المشرق

السنة الرابعة والستون — تموز - تشرين الاول ١٩٧٠

وقايع الشيخ روزبهان البقلي الشيرازي

مقتطفات من كتاب

كشف الاسرار ومكاشفات الانوار

نشرها مع مقدمة

الاب بولس نويا اليسوعي

الشيخ ابو محمد روزبهان البقلي الشيرازي من أقطاب التصوف في ايران ومن اشهر الذين كتبوا في العشق الالهي واعتنقوا فكرة وتجربة. غير ان اسمه يكاد ان يكون مجهولاً في الأوساط الصوفية العربية ولا يُعطى له اي اهمية في الكتب المؤرخة عن التصوف في تلك الأوساط، رغم أن روزبهان سُنّي شافعي المذهب ورغم ان الطريقة الروزبهانية قد انتشرت من فارس حتى افريقية، كما يشير الى ذلك العلامة ماسينيون في مقالة خصّصها للتعريف بشخصية روزبهان ومؤلفاته: كانت فاتحة الدراسات عن شيخنا.

١ — لا نعلم الشيء الكثير عن وقايع حياته الخارجية وهي تنحصر في بضعة أسطر : ولد الشيخ روزبهان في مدينة فسا من أعمال فارس سنة ١١٢٨/٥٢٢ . في عائلة يظهر انه لم يكن فيها لا علم ولا تقوى . وقد أشار الى ذلك هو نفسه بكلمات قاسية . غير ان الألطاف الالهية بدأت تثير في نفسه القلق الروحي منذ صغره . فهو يذكر انه شعر بذلك أوّل مرة وعمره ثلاث سنين . اما الصدمة الكبرى فقد تناوبته في السنة الخامسة عشرة اذ ظهر له : في عشاء يوم : شيخ مهيب « بزيّ الصوفية » لم يكن الا الخضر نفسه . فكان ذلك الحادث حاسماً في حياته . ترك روزبهان كل شيء — ولم يكن له الا حانوت يبيع فيه البقول (لذا دعي « البقلي ») — ومضى الى الصحراء « واجداً واجداً » فقضى في الخلوة سنة ونصف سنة مارس فيها المجاهدات والرياضات الصوفية وهو يعيش في « هيجان » باطني شديد . ثم هدأت حالته فعاد الى شيراز حيث أخذ يدرس القرآن وعلوم الظاهر ويختلف الى حلقات الصوفية ليتمعن في علومهم ورياضاتهم .

وقد أخذ علوم الظاهر من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام عن الشيخ ارشد الدين ابي الحسن علي التبريزي وعن الامام فخر الدين مرتيم . اما شيوخه في التصوف . فأوّلهم جمال الدين بن خليل الفسوي . وقد أخذ عنه في فسا . ثم الشيخ سراج الدين محمود بن خليفة (١١٦٦/٥٦٢) . وهناك شيخ كردي اسمه جاكير لقيه روزبهان في العراق قرب السامراء وتأثر منه تأثرًا عميقاً . ولعل روزبهان مرّ بالعراق عن طريقه الى الحج . غير ان معلوماتنا عن اسفاره قليلة جداً . ولولا الشيخ الاكبر ابن العربي لما عرفنا زيارته لمكة . فان صاحب « الفتوحات المكية »[1] يذكر عن الشيخ روزبهان قصة طريفة حدثت له في مكة . نوردها هنا لما فيها من المعاني التي تتجلى فيها شخصية صوفيتنا بمقوّماتها الانسانية والروحية : « حكي عن الشيخ روزبهان انه كان قد ابتلي بحب امرأة مغنّية وهام فيها وجداً . وكان كثير التوجّهات في حال وجده في الله بحيث انه كان يشوش على الطائفين بالبيت في زمن مجاورته : فكان يطوف على سطوح الحرم . وكان صادق الحال . ولما ابتلي بحب هذه المغنية . لم يشعر به أحد . وانتقل حكم ذلك الذي كان عنده بالله بها . وعلم ان الناس يتخيلون فيه ان ذلك الوجد لله على أصله . فجاء الى الصوفية وخلع الخرقة ورمى بها اليهم وذكر للناس

(١) الجزء الثاني : ص : ١٣٥ من طبعة صادر .

قصته وقال : لا أريد أكذب في حالي . ولزم خدمة المغنية . فأخبرت المرأة بحاله ووجده بها وانه من أكابر اهل الله . فاستحت المرأة وتابت الى الله مما كانت فيه ببركة صدقه ولزمت خدمته . وأزال الله ذلك التعلق بها من قلبه . فرجع الى الصوفية وليس خرقته ولم ير ان يكذب مع الله في حاله » .

وقد عاد روزبهان الى شيراز وتوفي فيها سنة ٦٠٦/١٢٠٩ وهناك قبره . وكان له في شيراز مجالس صوفية يحضرها الاكابر من الشيوخ ومريدون كثيرون ، والجميع يعترفون له بالتفوق في كافة العلوم ، الشرعية والصوفية .

٢ — هذا بما يخص وقايع حياته الخارجية : اما وقايع حياته الباطنية . فهي التي اثبت ذكرها في كتاب « كشف الاسرار ومكاشفات الانوار » . مجيباً لأحد اصدقائه وقد سأله ان يذكر له شيئاً عن مكاشفاته السرية . وفي النص الذي ننشره اليوم مقتطفات من هذا الكتاب ، اكتشفنا عليها في مجموعة عند أحد اصدقائنا في بغداد . ناسخها درويش حسن بن علي الخلوتي ، في سنة ١١٢٦ هـ . ويتبع اسم الناسخ اسم آخر لعله صاحب هذه المقتطفات وهو الشيخ شعبان التسلوني . مما يدل على ان أصل المخطوط تركي .

والكتاب اوسع بكثير من هذه المقتطفات التي لا تزيد على ربع الكتاب . كما أشار الى ذلك الاستاذ هنري كوربين الذي يعمل منذ سنين في إخراج طبعة علمية لكتاب « كشف الاسرار » . وقد كنا قد ارسلنا للاستاذ كوربين نسخة مصورة من المخطوطة . والظاهر ان مهمة إخراج هذا الكتاب ستتطلب مزيداً من الوقت لرداءة المخطوطات ولصعوبة المادة وأهميتها : فالكتاب فذ من نوعه ليس في الفن الصوفي الاسلامي فحسب ، بل وفي الأدب الصوفي العالمي . روزبهان « غوث العاشقين » و« شيخ شطّاح » لأن تصوّفه مؤسس على عشق الجمال الالهي المتجلي من خلال جمال كل المخلوقات ولأن عالمه الباطني ، عالم الوجد والمكاشفات . فهو يعيش « بالبديهة » في عالم الغيب ويرى الله رؤية العين . كما نحن نرى عالم الشهادة . ولا نعرف صوفيا آخر له مقدرته على « التغيّب » عن العالم المحسوس والدخول الى حضرة الله .

٣ — ونظراً للدراسة التي يُعدّها الاستاذ كوربين بخصوص كتاب « كشف الاسرار » ، فنحن سنكتفي هنا بسرد عناوين اهم مؤلفات روزبهان ليتعرف اليه القارئ العربي :

ا ــ عرائس البيان في حقائق القرآن ــ تفسير صوفي ضخم قد طبع مراراً في الهند. أدمج فيه المؤلف القسم الكبير من «حقائق التفسير» للسلمي ومن «لطائف الاشارات» للقشيري.

ب ــ كتاب منطق الاسرار ببيان الانوار ــ فيه يشرح شطحات الصوفية الاقدمين ومصطلحاتهم ويأتي بشرح لكتاب «الطواسين» للحلاج. غير مطبوع.

ج ــ شرح الشطحيات ــ اراده المؤلف ترجمة فارسية لكتاب «منطق الاسرار». لكن الزيادات الهامة التي اضافها اليه جعلته كتاباً جديداً قائماً بذاته. طبعه الاستاذ كوربين في سلسلة «المكتبة الايرانية» سنة ١٩٦٦ ؛ رقم ١٢.

د ــ كتاب كشف الاسرار ومكاشفات الانوار ــ وهو الكتاب الذي ننشر منه مقتطفات.

ه ــ كتاب عبهر العاشقين ــ دراسة غنية وعميقة عن العشق الالهي وعلاقته بالعشق الانساني او عن العلاقة بين العشق المجازي والعشق الحقيقي ــ وهو بالفارسية وقد طبعه الاستاذ كوربين في سلسلة «المكتبة الايرانية» سنة ١٩٥٨ ؛ رقم ٨.

و ــ كتاب شرح الحجب والاستار في مقامات اهل الانوار والاسرار ــ ويُدعى ايضاً «كتاب الاغانة». فيه يشرح المؤلف طبيعة السلوك الى الله والحجب التي يلاقيها السالك في طريقه اذ «لكل عارف حجاب في كل مقام». غير مطبوع.

ز ــ كتاب سير الارواح ــ ويدعى ايضاً «المصباح في مكاشفة بعث الارواح». يتطرق فيه المؤلف الى مسألة سبق الارواح في الوجود الأزلي وهبوطها الى الاجسام بخلق الانسان على «صورة الله». غير مطبوع.

جامعة القديس يوسف ــ بيروت

[١٧١ أ] هذا الكتاب من وقايع سلطان العارفين
وغوث العاشقين وبرهان المحققين وصاحب
تفسير العرايس وشرح شطحيات وكتاب الانوار
في شرح الأسرار : الشيخ روزبهان بقلي المعروف
ابو محمد بن ابي النصر البقلي الفسوي ،
قدس الله تعالى روحه ورضي الله تعالى عنه[1]

[١٧١ ب] بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على خاتم النبيّين محمد وآله اجمعين.

هذه وقايع الشيخ العارف العاشق ابي محمد روزبهان قدس الله تعالى روحه العزيز ورضي عنه .

قال الشيخ العارف العاشق الواصل روزبهان بن ابي النصر البقلي قدس الله تعالى روحه العزيز :

ان الله سبحانه وتعالى عرّف نفسه الرسل والأنبياء والملائكة والأولياء بخصائص آياته من العرش الى الثرى . فعرفوه بالآيات في البدايات ، وأحبّوه من حيث الآلاء والنعماء . ثم لم يقنع بما آتاهم ، لأنه سبب أحكام العبودية ، فابرز لهم انوار حضرته وكحّل عيونهم بكحل الجبروت وأراهم شعاع شموس عالم ملكوته ، فأحبّوه باغبة الخاصة — ولكن تلك المحبة في الحقيقة محبة بداية النهاية — ثم كشف لهم سُبحات جماله وجلاله بوصفهم تجلّي ذاته وصفاته ، فعرفوه به وأحبّوه بالمحبة الكبرى — والحق لا يتغيّر بتغيّر الحدثان ولا بنزول البلية والامتحان — فشاهدوه مشاهدة الحقيقة بلا حجاب . ثم خاطبهم وكلّمهم بغرايب العلوم وحكَمِ . وعلّمهم عظائم أسمائه وعرفهم لطائف نعوته وأوصافه وأنشقهم نسائم نفحات ورد المذانات [١٧٢ أ] ورياحين القُربات والوصلات . ثم بسط اليهم بكريم مناجاته وكشف أسراره وآنسهم جماله وجعلهم به عاشقين بجلاله . فبتلك الدرجات حملوا ما حملوا من اثقال البليّات من الرياضات والمجاهدات ، وصاروا عرايس حضرته وأمراء ملكه وملكوته .

فبعضهم أهل الارادات وبعضهم أهل الولايات وبعضهم أهل الآيات وبعضهم أهل الخطابات والمشاورات والمناجات وبعضهم أهل المكاشفات وبعضهم أهل المشاهدات والمحاضرات وبعضهم أهل المعارف واللطائف

(١) بالهامش : « مات روزبهان بقلي قدس سره في اواسط محرم الحرام من سنة ست وستمائة » (= ١٢٠٩ م) .

وبعضهم أهل العلوم اللدنيات والحكميات وبعضهم أهل الاتحاد. فاذا بلغوا : عبّروا بحر الازليات والابديات : فصاروا سكارى وآفين. فاذا تمكّنوا واستقاموا في جريان طوارق الغيب من الكشوفات والمواجيد : صاروا أهل الصحو. فاذا كانوا بمحلّ الاستقامة بعد التلوين. جعلهم الله تعالى سُرُج الزمان وآيات العرفان ومنازل الحقيقة واعلام الشريعة — جعلنا الله وإياكم من هذه الحالات والمقامات.

وبعد فقد سألني بعض من احبّه محبة كاملة من الصادقين أن اذكر له ما يقع لي من وقايع المكاشفات واسرار المشاهدات ليكون لهم (sic) اعلام طريقته ومونسه في سرّ قلبه وروحه الى عالم الغيب. فأجبتُه بما هو له.

١ — قال الشيخ قدس الله تعالى روحه : ومن جملتها ما رأيتُ الله تعالى على سطح بيتي بوصف العزة والجلال والقِدم. ورأيتُ كأنّ العالم بأسره شمشعاني كثير عظيم. فنادتني [١٧٢ ب] من وسط النور بلسان الفارسي سبعين مرة : يا روزبهان إخترتُك بالولاية واصطفيتك بالمحبة. انت وليّي ومحبّي. لا تخفْ ولا تحزن. فانا الله وأعينك في جميع مرادك. ورأيتُ كأنّ من العرش الى الثرى كان بحرًا وكان مثل شعاع الشمس. فتح فمي بغير إختياري ودخل جميعُه في فمي. فما بقي قطرة الا شربتُها.

٢ — وقال : انتبهتُ ليلة في نصفها وكنتُ بين النوم واليقظة. فقلتُ في قلبي : يا وهّاب ! فتجلّى الحقّ جلّ جلاله بوصف الجلال والجمال متجلّياً متحلّياً بجواهر النور فنثر عليّ من ذلك نثارًا عظيماً. وذلك من وجهه القديم وقال : اذا قلتَ يا وهّاب. فخذ هذا من الوهّاب. وانا الوهّاب الكريم !

٣ — قال : قد خطر ببالي كثيرًا من الزمان الماضي : ما معنى « المقام المحمود » (آية ١٧ : ٧٩) ؟ فرأيتُ ليلةً بحرًا عظيماً بين يدي الخضرة لا ساحل له. ورأيتُ جميع الانبياء والاولياء والملائكة المجرّدين في البحر. ورأيت حجاباً مضروباً على البحر. ورأيت آدم عليه الصلاة والسلام في البحر. وكان الى صدره. ومن كان اقرب الى الله تعالى كان اقرب من ذلك الحجاب. فمشيتُ الى قرب الحجاب واردتُ ان أعلم ما وراء الحجاب. فمشيتُ الى آخر الحجاب. فلمّا وصلتُ : رأيتُ من وراء الحجاب نورًا عظيماً. ورأيتُ شخصاً مثل القمر من الشرق الى التقدّم. وقد أخذ ذلك الشخص جميع الخضرة حتى لم يبق موضع رأس إبرة إلاّ إمتلأ منه. وكان على وجهه نور متّصل من الخضرة غير منقطع. واردتُ [١٧٣ أ] ان ادخل وراء الحجاب وما قدرت. فقلت في نفسي : اي مقام

هذا ؟ ومن هذا الشخص ؟ فنودي في سرّي : ان هذا المقام المحمود وهذا محمد (صلعم) ؛ وما ترى على وجهه غير نور التجلي ؛ ولو قدرتَ على الدخول لرأيتَ الله تعالى بلا حجاب . وقيل لي : ان هذا المقام خصّ به محمد (صلعم) ، وليس لأحد سبيل الى هذا .

٤ — وقال : رأيتُ الحق جلّ جلاله مرة بوصف الجلال والجمال معه الملائكة وقلتُ : إلهي كيف تقبض روحي ؟ فقال : آتيك من سُلطان الأزل وأقبض روحك بيدي وأذهب بك في مقام العندية وأسقيك من شراب الدنوّ وأظهر لك جمالي وجلالي الى الابد كما تريد بلا حجاب .

٥ — وقال : مرة رأيتُ الحق جل جلاله في نوادر الإلتباس وقلتُ : الهي وسيدي ومولاي الى متى تربّيني المشاهدة في حد الإلتباس ؟ أرني صرفَ القدم والبقاء ! فقال تعالى : موسى وعيسى يفتقدان هذه المنزلة . فكاشف الحق جل جلاله في ذرّة من نور ذاته الأزلي ؛ وكاد روحي تزهق . فرأيتُ نبيّنا محمداً (صلعم) وجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضي الله تعالى عنهم والمشايخ قدس الله تعالى روحهم يسألون من الله تعالى ان يرزقني مقام الكبرياء .

٦ — وقال : رأيتُ ليلة من وجه الله تعالى جلالاً وجمالاً وبهاء لو رأى اهل السموات والارض ذلك لماتوا جميعاً من اللذة . ثم رأيتُ اقطار السموات والارض ممتلأً منه ؛ وكنتُ معه حتى احضرني في مقام الدنوّ فوق كلّ فوق [١٧٣ ب] وتجلّى اليّ بسبعين الف جلال وجمال وكمال وأجلسني بين يديه وألطفني ألطافاً كثيرة وسقاني شرابات من بين يديه . ولا أطيقُ ان أصف ذلك الشراب . فلما سكرت . خطر ببالي : اين محمد (صلعم) واين الانبياء والرسل ؟ خاطبني الحق جل جلاله : هم قد فنّوا في انوار القدم ! فرأيتُ الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد خرجوا مثل العساكر العظيمة من انوار القدم . فاول قادم منهم نبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام ثم آدم عليه الصلاة والسلام ثم نوح عليه الصلاة والسلام ثم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ثم موسى عليه الصلاة والسلام ثم عيسى عليه الصلاة والسلام ثم جميع الانبياء صلاة على نبيّنا وعليهم . فجعل النبيّ (صلعم) وهو اقرب الخلق الى الله تعالى وقد تخلقوا وفي وسط الخلقة ابو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم اجمعين وقد نثر الحق جل جلاله على رأس المصطفى (صلعم) . ثم قال تعالى : إني اصطفيت عبدي روزبهان بالسعادة الأزلية والولاية والكرامة وجعلته أوعية علمي وسرّي لا يجري عليه بعد ذلك احكام التفرقة ؛ وعصمتُه

بعد ذلك عن عصياني وجعله من أهل التمكين والاستقامة : وهو خليفتي في العالم والعالمين . ومن أحببته أحببته ومن أبغضته أبغضته ، ولا مانع لقضائي ولا مردّ لحكمي وانا « فعّال لما يريد » (آية ١١ : ١٠٧) .

٧ — وقال : رأيتُ الحق جل جلاله مرة أخرى على أحسن صورة فعشقتُ بجماله وصفاته وأشفقت [على] دنوّه ووصاله . فمكثتُ غير بعيد [١٧٤ أ] فتضرعت . ثم ظهر لي وبينه شيء . قلتُ : اني ما هذا ؟ قال تعالى : قلبك ! فقلتُ : لقلبي منزلة تكون بيدك ! فتفتّش قلبي وكان كشيء مطويّ فنشره . ففشي قلبي من العرش الى الثرى . فقلتُ : هذا قلبي ؟ فقال : هذا قلبك ! وهو أوسع الاكوان . فذهب كما هو بيده الى اقطار الملكوت ومضيتُ معه حتى بلغتُ ديوان غيب الغيب . فقلتُ : الى اين تذهب ؟ فقال : الى عالم القِدَم حتى انظر فيه وأبدعُ فيه بدائع الحقائق وأجلي له الى الأبد بصفة الالوهية . فقلتُ : بوصف ما كنتَ في الأزل ! قال : لا سبيل لك الى ذلك . فتضرعتُ فقلتُ : أريد ذلك ! فبدا انوار العظمة ، وصرتُ مُتلاشياً فانياً . ثم خوطب سرّي وقيل : تعلم معنى قوله (صلعم) : « ان القلوب بين اصبعين من اصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء » ؟ وهو ما رأيت بين أصابعه .

٨ — وقال : يوماً قد اتفق انّ أحداً من الناس دعاني البارحة الى دعوة فيها السماع فانشد القوّال : شعر :

أيبدو الصبح عند الناس ولم يرعف خياشيم العراق
تنازلك ايها الساقي نشوءاً ترقّى بالصموم الى التراق

فغلب عليّ المواجيد وأنطاف المواصلات والمخاطبات وليس هناك الّا الوارد والوجد . فلما سكتتُ وخرجت تذاكرتُ تلك الاسرار حتى جاء الليل واشتغلت بالصلاة بين العشائين وقلت في نفسي : ما بال بدائع الغيب لم تنكشف في السماع البارحة ؟ فرأيتُ الحق جل جلاله بالبديهة على دواوين الملكوت طلع عليّ بوصف الجمال والجلال . فقلتُ على شرائط الانبساط : اين كنتَ اذ غبتَ في السماع ؟ فقال تعالى [١٧٤ ب] : كنتُ معك بهذا الوصف الذي تراني ! فضحكتُ وزعقت وطاب سرّي وعقلي وقلبي . فلما مضى من الليل نصفه . قمت وطلبته بوصف الالهية القديمة بغير إلتباس الصفات في الافعال . فتضرعتُ في ذلك : فبدا اليّ انوار الذات والصفات في عالم القِدَم : فرأيته سناءً في سناء وجلالاً في جلال وبهاءً في بهاء :

ورأيت بحر القدس يتظاهر بجميعها بنعت الرضا كأنّه يضحك في وجهي بتلك الانوار. فعلمتُ ان ذلك مقام الضحك.

٩ — وقال: مرة رأيتُ في نصف الليل بعد جلوسي على بساط العبودية لطلب ظهور عرايس غيب. جلالَ الحق جل جلاله في مقام الإلتباس على هيئة الحُسْن بما قنّع فؤادي بذلك؛ حتى صار منه كشفاً لجلال الديمومية التي تحرق الضمائر والأفكار: ورأيتُ وجهاً أوسع من السموات والارض والعرش والكرسي يتناثر من انوار البهاء وهو منزّه منه عن الأمثال والأشباه، لكن رأيتُ بهاءه تعالى على لون الورد الأحمر كأنّه يتناثر منه الورد الأحمر؛ وما رأيتُ خدّه. فذكر قلبي قوله(١) (صلعم): والورد الأحمر من بهاء الله تعالى». فهذا على قدر ادراك عقلي. ولو كان لي في ذلك الوقت عين من عين القدس لرأيته كما يُرى بعين الظاهر يوم القيامة بوصف التقدم والبهاء والأوّلية والأزلية التي منقدسة عن مشاهدة الحدثان. فمضى ساعة وقال لي: يا روزبهان من الذي يشكّ اني انا الله؟ هل بقي لك شيء[1] باني إنكشفت لك وانا اخترتك بهذا المقام؟

١٠ — وقال: رأيتُ نفسي في مقام التواضع [١٧٥ أ] فانيةً؛ فقلتُ: انا أقلّ خلقك. وانا عبدك وابن عبدك! فسدم على قلبي سطوات التوحيد والعظمة؛ وقال: من أنتَ حتى تكون عبدٌ لي؟ فاستحييتُ من الله عن قولي؛ فقلتُ: بأي صفة أقول وانا في مُلكك؛ لا أتعلقُ بشيء من الأشياء؟ فقال: لم تكن موحّداً حتى تنسى نفسك وما دوني من العرش الى الثرى! فبقيتُ في حجاب عظيم متحيّراً؛ وما قدرتُ ان انكلم. اذاً فخطر ببالي شيء من ذكره. فعلم فنائي فيه وشوقي اليه؛ وبان لي في حضرة القلب: وأشار الى نفسه فقال: انا ربّك! فتواجدتُ وطاب قلبي.

١١ — وقال: رأيتُ الحق جل جلاله إطّلع على اهل الجنة وقال: يا أهل الجنة انا آتي كلّ يوم سبعين الف مرة الى هذه الروزبهان من عالم القدم وأنظر الى اهل الجنة شوقاً الى لقاء روزبهان!

١٢ — وقال: رأيته تعالى في داري على أحسن صورة؛ فضحكتُ وبكيتُ واستغرقت في بحار الدنوّ. ثم دنا مني حتى لم يبق بيني وبينه بُعدٌ. فقال لي: انا اشتاق اليك غاية الشوق! فقلتُ: إلهي وسيدي! اذا حان وقت خروجي من هذا العالم فخذني بنفسك وادخلني معك في

(١) sic ولعلها « شك ».

حجاب الغيوب ! فقال تعالى : هكذا يكون ! ثم غبتُ عنه . ثم تجلى لي بصفات . كلّ لحظة بصفة : ما رأيتُ احسن منها . فذكرتُ قوله (صلعم) : « ان الله يُري هيئة ذاته كيف شاء » .

١٣ — وقال : بينما رأيتُ كأني بجبل الشرق ورأيتُ جماعة من الملائكة وكانَ من الشرق الى الغرب بحرًا . فقالوا لي : أدخل في هذا البحر واسبح فيه الى المغرب ! فدخلتُ البحر وسبحتُ فيه . فلما بلغتُ الى موضع الشمس من وقت العصر [١٧٥ ب] رأيتُ جماعة من الملائكة على جبال المغرب . فصاحوا وقالوا : يا فلان إسبح ولا تخف ! فلما بلغتُ الجبل . قالوا : ما عبَرَ هذا البحر الا علي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه ورضي الله تعالى عنه . وأنت بعده .

١٤ — وقال : ورأيتُ ليلةً حضرة الحق سبحانه كأنّه في سواق خالية . وأخذني الحق تعالى وذبحني . فامتلأت السواقي كلها من دمي . ودمي كان مثل شعاع الشمس . وجماهير الملائكة يأخذون من دمي ويمسحون به وجوههم . ورأيتُ النبي (صلعم) على لباس شتّى اكثر من الف مرة . وكان الرُطَب في يده . فوضع في فمي رُطَباً وقال : كُلْها باذن الله تعالى وبركة الله تعالى . ووضع في فمي لسانه . فمصصته مصّاً طويلاً . ووضع عمامة على رأسي .

١٥ — قال : ورأيتُ ليلة بحرًا عظيماً . وكان البحر من شراب الاحمر ورأيتُ النبي (صلعم) جالساً على وسط لجة البحر متربعاً سكران . وفي يده قدح فيه شراب من ذلك البحر . فشربه . فلما رآني غرف من البحر بذلك القدح غرفة وسقاني ذلك . ففُتح لي بعد ذلك ما فُتح وعلمتُ فضله على سائر الخلق . حيث يتيهون عطّاقاً وهو وسط بحر الجلال سكران .

١٦ — وقال : ورأيتُ في عالم الغيب عالماً منوّرًا من نور ساطع . ورأيتُ الحق سبحانه بلباس الجلال والجمال والبهاء وسقاني من بحار الوداد وشرّفني بمقام الأنس وأراني عالم القدس . فلما دخلتُ في هواء القدم وقفتُ على باب العزة . فرأيتُ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حاضرين . ورأيت موسى وبيده التورية وعيسى وبيده الانجيل وداود وبيده الزبور ومحمدًا (صلعم) [١٧٦ أ] وبيده القرآن . واشربني آدم عليه الصلاة والسلام الأسماء الحُسنى والاسم الاعظم . واطعمني موسى عليه الصلاة والسلام التورية واطعمني عيسى عليه الصلاة والسلام الانجيل واطعمني داود عليه الصلاة

والسلام الزبور واطعمني محمد (صلعم) القرآن. فعلمتُ ما علمتُ من العلوم الخاصة الربّانية التي استأثر الحق تعالى أنبياءه وأولياءه بها.

١٧ — قال: ورأيتُ الحق تعالى ينزل من طور سيناء على زيّ شيخ كبير: فغاب الطور تحت سطوات سلطان قهره. ثم غاب: ثم ظهر. فعل ذلك مراراً. ثم قال: هكذا فعلتُ بموسى عليه الصلاة والسلام.

ورأيتُ الحق تعالى مرة اخرى على زيّ راعٍ وبيده مغزل يغزل العرش. وعليه لباس من الصوف الابيض الخشن. فذكرت في قلبي: هذا نوع من التشبيه: والله تعالى منزه عن التخاييل! فكيف أقدر ان اقول: هذا الله الارض والسماء؟ فرأيتُ العرش قد إلتفّ على مغزله مثل شعرة: فدهشت واستغرقتُ في بحر العظمة. ثم غاب عني. ثم بانّ لي بوصف آخر: وتجلّى من عين الالوهية في عالم القِدم بنعت التوحيد. فتحيّرتُ في شأني. ثم ظهر لي من سوابق العرش على لباس البهاء. ورأيتُ على العرش سُترة مشبكة من النور: فناداني من ورائها. فكأنّه لم يعجب بذلك ورأيته مكشوفاً. وقال: يا روزبهان لا تهتم من جريان أشكال الأفعال: ولا شكّ فيما رأيتَ: فاني انا ربّك الواحد الاحد: ولا ينبغي لك ان يضيق صدرك في بحار النكران: فانا لك من جميع خلقي ولا تبالِ على أحد. فاني أبلّغك مقام عيان الغياب وأجلسك على بساط منادتي أبداً بلا حجاب.

١٨ — وقال [١٧٦ ب] أيضاً في حكاية طويلة: رأيتُ المشايخ يتبركون بي: والشيخ ابو مسلم يتلألأ من النور. وقال لأهل العصر واشار اليّ: «هذه ناقة الله لكم آية: فذروها تأكل في ارض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب» (١١: ٦٤). فرحتُ فرحاً شديداً لمّا بشّرني بناقة الله الكبرى. وخاطبني الحق تعالى: بعد ذلك. الخطاب الخاص الذي استأثر به اولياءه واصفياءه وقال: أدخلتُك في بساتين القدس وريتُك مشاهدتي. لا تخف. لا تخف: انك من خواص اصفيائي.

١٩ — وقال: رأيتُ الجنة مرة وما فيها من الأشجار والأنهار والأنوار: لا يُحصى عددها. ورأيتُ فيها محمداً (صلعم) وقدم صلبة الصلاة والسلام وجميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء قدس الله تعالى اسرارهم والشهداء والملائكة عليهم السلام. ورأيتُ عالماً لو أن السموات والارض تُلقى فيه ما يجدها أحد قط. من عظمته وسعته. مما رأيتُ في ذلك العالم الا نوراً في النور وضياءً في ضياء وبهاءً في بهاء. ورأيتُ النبي (صلعم) وجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء قدس الله تعالى روحهم كلهم

ركبتان على نور ؛ وكنتُ راكباً عن يمين النبي (صلعم) ؛ ورأيتُ الملائكة بباب من الذهب واللؤلؤ ؛ وكأنهم على صف واحد مسرعين في هواء مثل النار ؛ ورأيتُ جبرئيل عليه الصلاة والسلام على قُدّام الخلق في ذلك الهواء مثل حمامة الطير في اهواء ؛ حتى بلغنا حضرة العزة تعالى . فكشف الله تعالى لقاءه لنا وسلّم علينا . فما رأيتُ بعد ذلك واحداً من خلقه . [١٧٧ أ] فبقيتُ وحدي متحيراً حتى مضى عليّ زمان . فكشف لي عظمةً وعزاً وجبروتاً وبحاراً وانواراً . وكنتُ على باب عظمته كالغريب الدهش . فكلمني من سرادق العظمة وقال : يا مُكَدّي ! من اين لك هذا الحال ؟ فانبسطت اليه وقلتُ : إلهي وسيدي ومولاي ؛ من فضلك وجودك وكرمك !

٢٠ — وقال : ورأيتُ في بعض المكاشفات أسداً أصغرَ عظيم الهيئة ؛ تلبّس جبروت العظمة به . وكان يمشي على رأس جبل قاف ؛ وقد أكل جميع الإنبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء قدس الله تعالى اسرارهم ؛ وبقي في فمه لحم لحومهم . وسيل الدم من فيه . وهذه اشارة الى قهر التوحيد وسلطنته على الموحدين . تجلّى الحق من نعوت كبرياء القِدم بصورة الأسد . ومعناه أن العارف طُعمة قهر النكرة في مقام الفناء .

٢١ — وقال : ورأيتُ الحق سبحانه على أحسن صورة ؛ قد طلع عليّ من الغيب . فلم أملك نفسي حتى شهقت وزهقت ؛ وكأنه يتناثر من وجهه الورد الابيض . ثم غاب عني . ثم ظهر بصورة أحسن من الاولى ؛ فسرتُ حتى وصلتُ اليه . فقال : الى اين تمضي ؟ فقلتُ : الى الأزل والقِدم ! فقال : وأيش تطلب ؟ فقلتُ : أطلبُ فنائي في قهر الأزل لأني أرضى برؤيته في الإنتباس ! فقال : هذا سفر طويل ! فانا اني معك وأصحبك في الطريق . فمضينا الى ما وراء العرش ؛ وسافرنا سفر الغيب . ثم غاب عني . ثم ظهر لي بعد ساعة بوصف الجبروت وقال : أطلبني في مقام العشق ؛ فان الكون وما فيه لا يوازي سطوات جلالي .

٢٢ — وقال : ورأيت بين العشائين نوراً مُتلألئاً . وما علمت اني شيء ذلك النور [١٧٧ ب] . فكشف الله تعالى [أنواره] المقدسة وبيّن لي ان ما رأيتُ من النور كان من جلال يده . فعشقت بها لأنها تغير الأرواح والقلوب ، وما رأيتُ شيئاً ألذّ من مُلك المكاشفات . ورأيتُ الكون بأسره كذرّة بين أصابعه . فأضمني قراءة قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويّات بيمينه » سبحانه وتعالى

عمّا يشركون » (٣٩:٦٧) . وذكرت قول النبي (صلعم) : « الكون في يمين الرحمن أقلّ من خردلة » .

٢٣ — وقال : انتبهتُ ليلةً فتوضأت واغتسلتُ لأني نمتُ اكثر مما نمت كلّ ليلة . ثم خطر على قلبي أهلي المتوفاة رحمها الله تعالى ، فقلت : إلهي ! ترى كيف فعلتَ بي اذ توفيتها وتركتني مستوحشاً ! فخاطبني الله تعالى بالفارسية : كردران باكردنست[1] . فلما صلّيتُ ركعتين ، استقبلني الحق في وادي الأزل وكنت غريباً هناك ، ثم بان لي عند شوآمخ الكبرياء بوصف الجلال والجمال ، ثم اراني عالم الغيب ، وكنتُ خائفاً مما أبطأتُ في نومي . فقال الحق تعالى : لا تبتئس ! فانك ان كنتَ نائماً ، فانا لك غير نائم ، وكنتُ متلطفاً بك ، رافعاً لك . ثم أراني نفسه مراراً ، لا اطيق ان اشرحه ، وكنتُ في بحار الشوق مستغرقاً وفي مجالس الأنس واغاً ، قلبي بين الاستتار والتجلي ، وروحي بين الوجد والفقد ، وسرّي مشاهد للجبروت ، وعيناي في دوران الملكوت صبّابتان العَبَرات حتى شاهدت الحق تعالى بطيب الوصال .

٢٤ — وقال : رأيتُ الحق سبحانه وتعالى ينكشف للخلق جميعاً على وصف الجمال والجلال ، وقد اخبرني ان ليلة القدر ليلة الحادي [١٧٨ أ] والعشرين ، وقد طلبتُ الله سبحانه وتعالى وقت السحر في هذه الليلة ، فخاطبني بما خاطب موسى عليه الصلاة والسلام ، ورأيتُ في طور سيناء ظهر نفسه في الجبل من نفس الجبل . فتجلى الحق سبحانه وتعالى من تلك الروزنة وقال : هكذا اظهرتُ نفسي لموسى عليه الصلاة والسلام . فرأيتُ موسى عليه الصلاة والسلام كأنه رأى الحق تعالى وقد سقط من الجبل . سكران ، الى حضيض الجبل .

٢٥ — وقال : رأيتُ الحق تعالى بوصف الإنتباس والحسن والجمال جالساً على سطح رباطي بشيراز ، وكنتُ بين يديه واغاً ، ومع ذلك خطر بقلبي سرّ التوحيد وحقائق الفردانية وقدس العزّة . فنظر الحق سبحانه الى الأكوان ، فرأيتُ جميع الجبال خرّت له سجداً ثم ذابت . فعرفني ان ظهوره بتلك الصفة رحمة وشفقة عليّ . ورأيت في وسط تلك المكاشفات جميع الجبال يأتين الى قرب الحق تعالى ، ومع كل واحد من الجبال شربة من شراب القدس لأجلي ، فقرحتُ بذلك .

(١) اي وليك تعمل بنفسك كما عودت به ! ه

٢٦ — وقال : رأيتُ كأنّي في صحراء . وقام المشايخ هناك ؛ وبيد كل واحد مقلاة يرمون الاحجار عليّ متواترًا ؛ وكان شيخنا سيّدنا ابو يزيد قدس الله تعالى سرّه اكثرهم إغراضاً . فضاق وقتي هناك . واستعنتُ بالله. وظهر الحق سبحانه ورمى اليهم حجرًا عظيماً فسكتوا جميعاً وطرحوا المقلاة وقربوا منّي وتلاطفوا بي . ففي ذلك الوقت بلغت سرادق الكبرياء ورأيتُ جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والاولياء رضي الله تعالى عنهم والملائكة عليهم السلام ، وأقدمّ الخلق في الحضرة وأقربهم من الله تعالى . نبيّنا [١٧٨ ب] (صلعم) .

٢٧ — [وقال] : مرة قد تحيّرت في أوّلية الحق تعالى . فرأيتُه على أحسن صورة وذكرت في قلبي : من أين وقعتُ من عالم التوحيد الى مقام المتشابهات ؟ فدنا منّي وأخذ يجاذبني . قال : قُم ! أيش هذا الخاطر ؟ تشك في نفسي وانا مثلتُ نفسي في عينك لتتأنس بي وتعشقني — وعليه انوار الجلال والجمال لا يُحصى عددها . فلما دنا وقت السحر أمرني بوظائف. فقلتُ : ما قضيتُ وطري منك ! بعزّتك أطعمني طعم محبتك وأرني حقائق جمالك وجلالك حتى أفرح بك وأذوب فيك من حلاوة الأنس ! فقال : قُم واصعد الى سطح الرباط . فبناك تنكشف مرادك . فلما صعدت فاذتُ أذان السحر : رأيتُ الشيخ ابا الحسن بن هند قدس الله تعالى سرّه في مقام المراقبة . فقلت في نفسي : أيش يطلب ؟ فنودي في سرّي : انه يراقب الجلال ! ورأيتُ الصوفية مراقبين جلاله . ثم رأيتُ النبي (صلعم) مع جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مراقبين مشاهدة جلاله ؛ ثم رأيتُ جبرئيل عليه الصلاة والسلام وجميع الكرّوبين عليهم السلام مراقبين مشاهدة القدس . ثم رأيتُ الحق تعالى وتقدّس لم يما وصفه . وانا بين الصوفية قدس الله تعالى اسرارهم ورضي عنهم كالسكران الواله . مقبل بوجهي نحو عزّته ؛ فدنا منّي ورمقني ورقص معي وخصّني بذلك من بينهم . فلما ذُقتُ حلاوة الانبساط ؛ غلب عليّ صياح المتكوّيين وزعقات الصمدانية وشهقات الربّانية . قال : وكنتني الحق سبحانه وتعالى الليلة حيث كنت [١٧٩ أ] في تلك الأحوال التي ذكرت ؛ فقال جل جلاله : أما علمت أني بالأمس كنتُ جليسك في جنبك بنعت الجلال والجمال ؛ ووجهي عند وجهك ؛ ويدي مرآة مقابلة وجهي ووجهك ؛ وانا أنظر الى وجهك وانظر من وجهك الى المرآة التي ظهر فيها وجهي وجهك (sic)

وكنتُ ناظرًا اليّ . فزعقتُ وبكيتُ وتضرعتُ من كمال لطفه وغاية كرمه حيث جعل نفسه في لباس من قدرته حتى اراني نفسه لأنه علم عجز اخلاقي عن موازاة عزّ القِدم ؛ وهو منزه عن كل ما خطر وما يخطر على كل قلب أحدٍ من خلقه ؛ تعالى عن وصف الواصفين !

قال : ثم رأيته تعالى وتقدس بوصف الكبرياء والقدم والبقاء مرارًا ؛ ثم رأيتُه في جلال الأنس بنعت القدس ؛ ولم يبق هناك مقام ؛ فغصت في بحار الديمومية والأزلية والأبدية ؛ ثم فنيت من جميع صفاتي . ثم نزلتُ الى عالم الملكوت . فرأيتُ جميع الاكوان عند عزّته أقلّ من خردلة ؛ ثم سرتُ في ميادين الأزلية سكران وآفاً . ثم ألبسني لباسًا من حُسنه وجماله ؛ فكنتُ هناك معشوق الله تعالى ؛ وهو سبحانه قد عشقني وتلطف بي بألطاف لو قلتُ منها ؛ لا يستطيع ان يسمعه أحد من خلقه الا ما شاء الله . ثم جعلني متّصفاً بصفاته ؛ ثم جعلني متحدًا بذاته . ثم رأيتُ نفسي كأنّه هو ؛ وما ذكرتُ شيئاً الا نفسي ؛ ثم أفقتُ من ذلك ونزلت من الربوبية الى العبودية ؛ ثم تمنّيت مقام العشق حتى رأيتُ نفسي في دار الجلال ؛ فرأيتُ الحق تعالى بصفة الإلتباس ؛ وبقيتُ في مقام الأنس ساعة ؛ غائباً عن كل ما دونه ؛ وقد غلب عليّ [١٧٩ ب] مواجيد كثيرة مع الضجان والبكاء من شهود العين . فناداني مرارًا . فسجدتُ بعد ذلك فرأيتُ على ظهري انوار العظمة فقلتُ : إلهي ! ما هذا ؟ قال : نور الاستواء ! فقلتُ : إلهي ! ما معنى قولك : « الرحمن على العرش استوى » (٢٠ : ٥) ؟ فقال تعالى : اذا تجليتُ ! فلذلك استوى عليه .

٢٨ — وقال : نزل تعالى في ليلة القدر بوصف الإلتباس والجلال والجمال . وبين يديه النبي (صلعم) وقال : لم يهتد الى قربي ومشاهدتي الا ما شئت . فاذا أردتُ على بعضهم رحمة أفتح له باباً من أبواب الغيوب . ولا يجترئ ان يدنو منّي لان قربي قرب المعارف لا قرب المسافة ؛ فابشر تضيق صدرك (sic) . وانا قائم بذاتي سبحاني انا أزليّ أبديّ بلا زمان ؛ انا موجود عزيز قديم بلا مكان . والجواهر متحيزون فيما بين العرش الى الثرى . فبينا كنتُ كذلك اذ ظهر لي شعاع إشراق شموس العظمات وطاب قلبي ؛ وكان ذلك أدنى مقام مما وجدت منه . فذكر خاطري قصة موسى عليه الصلاة والسلام فرأيته الى قرب الحق جل جلاله وبعض مقاماته العالية ومعجزاته الشريفة ؛ كما ورد في الأخبار . فعاتبتُ خاطري وقلت : إلهي !

انت منزّه عن مناسبة المخلوقين ؛ أعطيتَ موسى عليه الصلاة والسلام تلك المعجزات والمقامات وخصصته[1] بالمكالمة ؛ فأيش بينك وبينه من القرابة ؟ وانا ايضاً من اولاد آدم عليه الصلاة والسلام فأيش أعطيتني ؟ فظهر لي بوصف الجلال والجمال وقال لي : ان موسى عليه الصلاة والسلام قد أتاني وانا أتيتك . أما ترضى ؟ [١٨٠ أ] أتيتك سبعين الف مرة من وقت اضطجاعك الى وقت انتباهك ! فلما سمعتُ ذلك اخذني تلاطم بحار التوحيد . فلما مضى زمان ؛ غاب عني وطار قلبي في عالم الملكوت . فاصعدني فوق كل فوق . وظهر لي بانوار كبرياء الذات والعظمة والجلال ثم قال : أما كنتَ تقرأ : « قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (١١٢ : ١—٤) و « ليس كمثله شيء » (٤٢ : ١١) ؟ هل ترى شيئاً من الاكوان[2] ؟ أنا تراني بوصف الجلال والعزة والبقاء ؛ وهذا عالم الوحدانية وهنا مقام التوحيد . فذكرتُ مقام نبيّنا محمد (صلعم) حيث دنا فتدلّى (٥٣ : ٨) : هل كان في مشاهدة غير مشاهدة القدس ؟ فأعطني الله تعالى حيث اراه نفسه في مقام الالتباس حيث قال : « رأيتُ ربي في أحسن صورة فقال : فيمَ يختصم الملأ الاعلى يا محمد ؟ قلتُ : انت أعلم اي ربّ » . حتى قال مرة اخرى : « فوضع كفّه على كتفي فوجدتُ بردَ أناملِه بين ثديَيّ فعلمتُ ما كان وما سيكون » (الحديث) . فعلمتُ ان الله سبحانه وتعالى تتلطّف بي حيث أراني ما ارى الانبياء من مقامات التوحيد واحية . وهنا عذرت . فاني اطلبه بوصف التقدم ونعوت الكبرياء والعظمة في جميع الاوقات .

٢٩ — قال : مرة قد جلستُ في ديوان المراقبة لطلب وصول الحقيقة حتى مضى زمان . وما فُتح لي شيء . فغاب سرّي وتغيّر قلبي من مرارة الفقدان . وذكرتُ الله تعالى في الغيبة واحضرتُ مقالة أهل الانبساط وقلت : أيش هذا [١٨٠ ب] الضيق . وبساط عطائك مبسوط في الغيب ؟ لو تظهر لي بعين الوحدانية . من يخاصمك في السموات والارض ؟ ولو تعطيني نوال مشاهدة بعد كشف الجلال والجمال . من يشرفك مني بعتريك ومن يجاذبك من العرش الى الثرى ؟ جبّار السموات والارض ولا يضرّ بك تغيّر الحدثان ! الأمان . الأمان المستغاث اليك ! تفعل بأوليائك وأهل أشواقك ما لا تفعل بالكفار بأسرافهم ! — مع كلمات أخر من مسافرة اهل الانبساط والأنس — ؛ فاوقعني بالغيبة في انوار تجلّي الذات في الصفات وتجلّي

(١) وخصصها (sic) .
(٢) الاكرانها (sic) .

الصفات في الأفعال . فظهر لي كل ساعة بلباس الربوبية في أفعال شتى التي سماها الصوفية مقام الإلتباس .

٣٠ — قال : وجلستُ للمراقبة وخاض قلبي في بحار الأفعال ، فما وجدتُ شيئاً الا عماءً في عماء . ثم خفتُ فبلغتُ ، ثم قطعتُ ذلك فبلغتُ الى انوار بوادي الصفات ، فكنت هناك بين الاستتار والتجلي . فتجلى الحق سبحانه وتعالى من عالم القدرة . قلت : ما هذا التجلي ؟ فقال : تجلي العظمة والكبرياء ! فنظرتُ في ذلك فاذاً قد انكشف لي يد الله سبحانه وتعالى ، فرأيتُ من بطنان الأزل الى عالم الأبد نوراً مسرمداً كأنه أخذ بيده جميع الاكوان والحدثان على مثال كرة ، فتلاشى الحدثان دون يده . فخاطبني بقوله تعالى : « يد الله فوق ايديهم » (٤٨ : ١٠) . ما رضيتُ بتلك المكاشفات وتفكرتُ في سبحات الجلال . فعرض لخاطري قول النبي (صلعم) : « حجاب النور لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما إنتهى اليه بصره من خلقه » . فلما تفكرت في ذلك وصل اليّ انوار سبحات وجهه ، فكدتُ أحترق . فجعلني الله تعالى مستقيماً ، فرأيتُ نبينا (صلعم) وآدم ونوحاً وموسى وأكابر الانبياء عليهم الصلاة والسلام فآرين من حدة سبحات ، فسرتُ معهم ، فأخذني تعالى بالقوة الأزلية فكشف لي جلال وجهه ، فرأيتُ الحدثان من العرش الى الثرى دون وجهه اقلّ من خردلة . فخاطبني الحق سبحانه بقوله : « كل شيء هالك الا وجهه » (٢٨ : ٨٨) .

٣١ — قال : ورأيته تعالى في بعض الأوقات الماضية كأنه ذبحني مراراً وأراق دمي في اسواق الغيب . فوقعتُ بعد ذلك في بلاء عظيم واستعنتُ به من ذلك وقلت : أعوذُ بك منك ! ثم بعد ذلك انكشف لي الحق سبحانه وتعالى فقال : الى متى تهتم ؟ انا افعل ما شئت !

٣٢ — قال : ورأيتُ الحق سبحانه وتعالى بوصف العزة وما فهمت منه شيئاً . ثم اخذني بحار سبحات وجهه واغرقني فيها . فما رأيتُ بعد ذلك الا انوار الكبرياء ، فرجعتُ وفررتُ منها لأنّ الإدراك قد انقطع هناك وقد بقي في قلبي ذوق ذلك وبقي في عين روحي تلك المشاهدة كأني أراها في جميع الساعات .

٣٣ — وقال : يوماً قد صليتُ في السحر لطلب مشاهدة الغيب ، فرأيتُ نفسي في صحراء واسعة ، وبيني وبين الحضرة حُجُب متكاثفة ، فسمعتُ كلام الحق سبحانه وتعالى تكلّم من وراء تلك الحجب وكان الأكوان والحدثان تذوب [١٨١ ب] من هيبة كلامه وما دريتُ ما سمعت

منه وتمنّيتُ من الحق تعالى ان يعلمني أيش يقول . فقال تعالى : أقول و انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون » (٣٦ : ٨٢—٨٣) . فقلتُ في نفسي : الكائنات تفرّ من صولة كلامه ، فمن يقوم بازاء عزّته وكشف جلاله ؟ فكشف الساعة تلك الحجب فرأيتُه بوصف الجلال والجمال والهيبة والكبرياء وأدناني منه وقرّاني حتى رأيتُه كما أردت ، ورأيتُ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صرعى في صحاري الغيب ، حيارى سكارى ، مجروحين مخضوبين بدمائهم من صولة جلاله وسطوات عظمته . ثم تجلى لي بجميع صفاته من الحُسن والجمال في مقام الانبساط ، فانبسط اليّ وقال : بهذا الوصف الذي رأيتني مضيتُ الى بلدك وصحلتك قبل أن أخلقك لأجلك سبعين ألف مرة من عالم القدم . وكنتُ في ذلك الوقت على هيئة السكارى من الفرح والهيجان وما سمعت من الحق في طول عمري قط مثلّ ما سمعتُ .

٣٤ — وقال : إنكشف الحق جل جلاله لي مرّتين ، مرة بوصف الجمال ومرة بوصف الجلال فقال : من لم ينكشف له وجهي الكريم لم يصل اليّ بالمجاهدات والرياضات : وهذا خاصّ لأحبائي وأهل قربي ، ولا سبيل اليّ الا بي .

٣٥ — وقال الشيخ : وقد كنتُ في بحار الامتحان ، وجرى عليّ حوادث الزمان ، وطلبتُ من الله تعالى نجاةً منها . فقلتُ : لو وهبتَ من العرش الى الثرى لنملة صغيرة ، لا ينقص من مُلكك ذرة لأن مفاتيح الاقدار المعدومة بيدك ، تخرج من العدم بأقل من لحظة بقدرتك [١٨٢ أ] الواسعة سبعين الف عالم من عوالم الملك والشهادة ، فما هذا الضيق يا صاحب هموم العارفين ؟ إجمع عليّ مهالكي وخلصني من جميع الهموم ! انت وهبت ملك سليمان لسليمان وملك داود لداود وملك مصر ليوسف ، وليس بهم عليك شيء . يا قدوس ! — وكنتُ في ذلك الوقت على حُزن طويل واهتمام وبيل ، فرأيت الحق سبحانه وتعالى بالبديهة في جذال عالم الغيب بوصف الجلال والجمال . فدنا مني بحيث لم يبق بيني وبينه بَيْن ، وتلطف بي وكأنّه يتعجب من همومي ، يعني : لا ينبغي للملك ان يتشوش خاطره بمرور البلاء . ثم قال : أنظر اليّ بعين العيان ! فنظرتُ الى جلاله وجماله ، واستأنستُ به وعشقتُ ، وكان قلبي وروحي ونفسي وعقلي وصورتي في انوار جلاله ، مستغرقاً في بحار الأنس والوجد . فلما سكن سرّي ، قلتُ : إلهي ! كن سمعي وبصري ولساني وقلبي وروحي وعقلي وجميع اجزائي واغرقني في بحار آلوهيتك بحيث أنظر الى ذاتك وصفاتك

بلا حجاب الى الابد بنور العشق والشوق والمحبة والمعرفة . فرأيتُ بحاراً من اللؤلؤ الرطب ، فاخذ سبحانه وتعالى جواهر من ذلك وبَشَر على رأسي كثيراً ، وكذلك فعل الأنبياء والملائكة حتى بلغت عالم القدم ، فظهر الحق جل جلاله بوصف الأزلية ، وهناك مقام الفناء . ثم غاب عني وسمعت منه في حالة الستار قوله تعالى : « يُجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنّا » (٢٨ : ٥٧) . ثم قال : ليس من فوق العرش الى قرار الثرى . انا مدبّر الخلائق وبيدي مفاتيح كل شيء ، أتصرّفُ في ملكي [١٨٢ ب] كما أشاء . أليس جريان المقادير لي وصدر من إرادتي ؟ قل لحولاء المتفضلين والمتشكين عنّي ليكفوا الشكاية وليشكروا الى مواساة نعمتي ، والاّ فأدمّر عليهم ! فخفتُ من هذا العتاب ، فانه يتناثر منه الجبّارية . فاني رأيته ، وكنتُ في حجرتي ، كأنّه دخل عليّ وكان على حُسْن وجمال ما لا أطيق وصفه . فبكيتُ وتضرعتُ لديه وقلتُ : إلهي ! خلّني حتى انظر اليك ساعةً وأذهبُ عن قلبي ما سواك من العرش الى الثرى . يا حبيب قلوب العارفين ويا قرة عيون الواجدين ! فكنتُ ساعة ، ثم رأيته على باب بيت اصحابي ، يناديهم ويقول لهم : يا أهل حضاري ! قوموا لطاعتي ، فانّه قد ذهب الوقت . فاذا أفقتُ من سُكري ، ذهب وقت الاوراد . وقال : ثم رأيتُ جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام والصديقين قدس الله تعالى روحهم والملائكة المقربين عليهم السلام في حضرة الله تعالى ، على نعت الوَحْدة والضجاجة ، وهو تعالى قد ظهر لهم ، ثم سَتَرَ دون المصطفى وكان (صلعم) على هيئة الحُسن والجمال واقفاً على باب دار الجلال مثل الحاجب عند السلطان وهو كان يَرى الحق ويتكلم مع الحق ، ولم يكن معه أحد في ذلك المقام . فعلمتُ ان ذلك هو « المقام المحمود » . ثم ظهر لي الحق بوصف الأحدية وأخذني ببطش القدرة وأذهبني الى عالم القدم ، وكنتُ مجذوباً مقهوراً ، حتى أدخلني في أسفار الأولية . فلما علم ضعفي عن حمل الثقال طارق التوحيد تركني ومضى . ورجعتُ الى ما كنتُ فيه .

٣٦ — وقال : قد تعرض لي في ليلة من الليالي [١٨٣ أ] خيالات المرض النفسانية والشيطانية وخيالات الروحانية ، وقطعتُ حجبها ورأيتُ لطايفها وفكرتُ في أشكالها . فضاق صدري وتحيّرتُ في شأني حتى بدا لي جمال الحق تعالى بالبديهة فقلتُ : إلهي ! ما هذه التماثيل التي عشّيتَ بها في المشاهدة ؟ فقال : هذا لمن يطلبني في أوائل كشوف حتى يعرفني من بينها بما لم يكن عارفاً .

قال : ثم ظهر جماله لي بأنواع اللباس كلها تنطفاً في لجة إبقاء نفسي بعد فنائي في نعمة الأزل . وسقاني شرابات الأنس والمداناة ، ثم مضى ؛ ورأيته مرآة الكون حيث توجهتُ . وذلك قوله تعالى : « فاينما تُولوا فثم وجه الله » (٢ : ١١٥) . ثم قلت في نفسي : أريد ان أرى جماله بلا انقطاع ! فقال جل جلاله : أذكرُ شأن زليخا ويوسف عليه الصلاة والسلام . فان زليخا صورت في ستّ جهات صورة نفسها ليوسف عليه الصلاة والسلام حتى لا يرى جهة الا وفيها صورة زليخا . فهكذا شأنك في دار جلالي . فرأيتُه سبحانه وتعالى من كل ذرة وهو منزه عن الحلول والتشبيه . لكن هو سرّ لا يطّلع عليه الا مستغرق في بحار التوحيد وعارف بسرّ أفعال القِدم في مقام العشق .

قال : ثم ظهر لي بحر الوحدانية وذهبتُ في امواجها الى مشاهدة الكبرياء . فرأيتُ جمال القِدم بلا كيف ووصف ؛ وقد تصاغر عند جلال عظمته جميع الأكوان والحَدثان حتى لم يبق أثرها عندَ إشراق سلطان بهاء الأزل . ولولا كرم الحق سبحانه وتعالى بامساك نفسي عند سطوات الكبرياء لتفتتُ أقل من ذرة . كأنّه تعالى أراني نعوت الأحدية وكأنّه أشار لي أن أنظرَ الى عظيم جلالي وجلالي . وذلك لطف منه . ثم ظهر لي بعد مضي تلك الحالة عالمُ القدس ورأيتُ الحق سبحانه وتعالى بلا كيف في سُرادق كبريائه [يمين] خواص [١٨٣ ب] الانبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة عليهم السلام على صورة البُزاة[1] البيض ؛ فنظرت الى قرب مولانا تعالى وتقدس ؛ وكأنّي على يمين العرش وكنتُ كشاطر بين البُزاة . وكنت كمشتاق أطير ساعة وأدور ساعة وأجلسُ ساعة كالوالِه المضطرب . فخاطبني الحق جل جلاله عند دنوّي منه وقال بلسان الفارسية : چون بوزي چون زستي[2] . ثم مضى ذلك الحال وكدتُ فيه من الفرح أذوب من اللذة والارتياح . ثم دار عليّ لوامع القدس وأنوار البقاء . فسمعتُ كلام الحق من مكمن الأزل وقال : خلقت الكون في طلبي وبلّغتك مقام القدس ؛ ومَن مثلك في العالم ؟ وانا اطلبك في أسفل قدمي . وظهر لي بوصف الألوهية والقدس والتنزيه فاضمحلّ في سطوات عظمته ما دونه من العرش الى الثرى وشاهدته مشاهدة العيان وكأنّه شهود عين العظمة ؛ ظهر في شهود جمال البقاء ؛ وذلك شيء غريب .. ثم قال : أنت في طلبي وانا في طلبك . لو نظرتَ

(١) بالحاشية : « جمع باز »
(٢) اي : « كلها خلق ؛ كلها غاص في الروية » .

وجدتني عندك دون قطع أسفار الغيب . وكنتُ قبل هذا الوارد مُتَيَّم (sic) من اجل بعض مقالة اهل مجلسي حيث سمعتُ منه بعض التفضيلات من اقوال المشبهة ؛ وقد ثبت ان كلامه قديم وما دون كلامه فهو محدث . فقال تعالى : زِنْ كلامي ولا تخف ؛ وانا أزيّن بنفسي كلما تُذكّر [في] مجلسك . وقد رأيته سبحانه وتعالى قد برز ومعه جميع الكرّوبيين والروحانيين في مجلسي ؛ وقد رأيتُ سكان حضرة الخاص قد طافوا في مجلسي ؛ ورأيتُ جبرئيل عليه الصلاة والسلام وفي عنقه سقّاء يسقي الناس في مسجد الجامع على زيّ شاب ؛ ورأيتُ كأنّ السموات جاءت [١٨٤ أ] الى مجلسي على صورة الاشخاص ، وكذا العرش والكرسي والجنة والنار والحور والغلمان والولدان وجميع أرواح الانبياء عليهم الصلاة والسلام والصديقين والشهداء رضي الله تعالى عنهم وقد واقفوا جميعاً حضور الحق تعالى . ثم قال الحق سبحانه وتعالى : هكذا أفعل كلما تجلسُ للتذكير .

٣٧ — قال : يوماً إني جلستُ قبل تغشى الليل عند ابني أحمد وكان به الحُمّى الشديد . وكان قلبي يذوب من الهمّ . فرأيتُ الحق سبحانه وتعالى بالبديهة على تعب الجلال ؛ فتلطف بي ؛ فغلب عليّ الوجد والهيجان وقلتُ : إلهي ! لِمَ تمتحنني وانا أتوقع منك المواساة ؟ فقال جل جلاله : لا تحزن فانا لك ! قلتُ : إلهي ! لِمَ لا تكلمني كما كلمت موسى عليه الصلاة والسلام ؟ فقال سبحانه وتعالى : أما ترضى أنّ مَنْ أحبّك فقد أحبّني ومن رآك فقد رآني ؟ فلما سمعتُ ذلك غلب عليّ المواجيد الكبيرة . فتمتُ ؛ فنادى الحق سبحانه الى بطنان الغيب وقال : يا شفاء ! فجاء الشفاء اليه ، وكان البلد مملوّاً من المرض ما رأينا مثله . فنفخ الشفاء في البلد وانتشر في الناس جميعاً . فتلطف بابني وسقاه شراباً .

٣٨ — وقال : إتفق إني وقعتُ بين جماعة من أهل الدعوى . فضاق صدري لما رأيت من دعاويهم وعونات البشرية . وحتى جماعة على رؤية الهلال . وكان ذلك شديداً علي وصعباً على نفسي الدخول عليهم . فاهتممت همّاً شديداً ونمت على ذلك وكان نومي نوم إتكاء . فانتبهتُ نصف الليل ؛ فخاطبني الحق سبحانه وتعالى بقوله : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » (٦١ : ٨) .

٣٩ — قال [١٨٤ ب] الشيخ قدس الله تعالى روحه العزيز : هذه المكاشفات شأن أهل النُهى من العارفين ووصف اهل الحقائق من المتحيرين

الذين قاموا بالحق بشرط المعرفة والعلم باحكام المتشابهات . وهم الذين وصفهم الله تعالى بانهم الربّانيون بقوله تعالى : « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم » (٣:٧) . والله لو اردتُ ان اصف بعض صفاته التي رايتها للمريدين والصادقين ما قدرت بذلك لانه تعالى كان يظهر بوصف كماء وزى منه آدم واظهر الكرّوبيين والروحانيين فخروا له سجدًا بغير اختيارهم . لذلك قال النبي (صلعم) : خلق الله تعالى آدم على صورته . ولولا مخافة الجهّال الذين ينسبوننا الى نسبة الغلة لأشرت مما رأيت من الحق سبحانه من نور بهائه وسناء قدسه وعظيم جلاله وجمال لطفه . وما كان قد تلبّس به من النعوت التي ألبسها آدم عليه الصلاة والسلام وموسى عليه الصلاة والسلام ويحيى عليه الصلاة والسلام وعيسى عليه الصلاة والسلام ويوسف عليه الصلاة والسلام وابراهيم عليه الصلاة والسلام ومحمدا عليه افضل الصلاة واكمل التحيات واشرف التسليات . وبتلك النعوت التي نوّرت انوارها منهم فاقوا على العالم والعالمين لانه سناء برق صفاته اذا تجلى لشيء خضع له الأكوان والحدثان لأنّه صدر من نعت الأزل وليس هناك الفصل والوصل والخيال والوهم . لأنه من عرف الله تعالى بعد سيره في عالم القدم : علم العلوم المجهولة التي انكشفت بها أسرار الربوبية وتخلصت بذلك اسرار الواصلين عن الشي والاثبات والتشبيه [١٨٥ أ] والتعطيل . فان هذه الاشياء حوادثات كونية وهو تعالى وراء ذلك وفني الوهميات عن سير ارواح العارفين .

والحمد لله رب العارفين والصلاة والسلام
على اشرف الخلق سيدنا رسول الله محمد
وآله وصحبه أجمعين .

تمت (sic) الكتاب بعون الله الملك
الوهّاب على يد أفقر الورى تراب أقدام
أولياء خلوص درويش حسن بن علي بن
محمد الملقب ابو الحسن الخلوتي . خلّصه
الله تعالى منه في سنة ست وعشرين ومائة
والف في شهر شوال يوم الخميس
ثمان وعشرين وانا الفقير من فقراء سلطان
الاولياء شيخ شعبان قسطموني قدس
الله تعالى سره وطاب روحه براحة وصاله .

الدكتور شاكر بك الخوري

١٨٤٧ — ١٩١١

بقلم جرجي ابرهيم نصر

من الواجب المفروض على كل أمة تخلّد أمجادها : وتفتخر بماضي آبائها وأجدادها . وتعتزّ بآثارها ، أن تُحيي ذكريات فواضلها الخالين : وتكرّم رجالاتها الباقين : الذين عملوا على إعلاء شأنها . ورفع كلمتها : وأدّوا بمآثرهم وبثقافاتهم العالية ، أجلّ الخدمات لوطنهم ، وثبتوا في الشدائد والملمّات : فدفعوا عن أوطانهم الشرور والآفات .

لذلك حقّ علينا ان نكشف للملأ ما خفي من آثار اولئك النوابغ . ومن هؤلاء العاملين الذين حملوا لواء الأدب والثقافة في زمانهم المرحوم الدكتور شاكر بك الخوري . الذي نتشرّف بحقّ بالطيب الأديب .

وهو ابن يوسف ابن الخوري ابرهيم ابن الخوري اسطفان ابن الخوري ابرهيم الأول ابن الخوري اسطفان الأول (الذي ارتسم على رعيّة بكاسين في ٢٤ من كانون الثاني ١٧٢٩) ونور ابنة ناصيف حبيب ناصيف الخازني . ولد في بكاسين نهار الأحد صباحاً في ٢٥ من تموز ١٨٤٧ وينتمي الى عائلة كريمة ومعتبرة . اشتهرت بخدمتها للحكومة والوطن متسلسلة كابراً عن كابر . وعندما بلغ الخامسة من عمره . عهد به والده الى مدرسة القرية فتعلّم فيها العلوم الابتدائية . كالقراءة والكتابة في العربيّة والسريانيّة : وكان والده أوّل متقدّم عند سعيد بك جنبلاط حاكم الختارة .

واذ صار شاكر على شيء من مبادئ القراءة في بكاسين ، أخذه والده معه الى الختارة حيث أخذ يتعلّم العربيّة مع ولدي الحاكم الجنبلاطي

وهما صاحبا العزّة نجيب بك ونسيب بك . وكان معلّمهم يومئذ الشيخ ابراهيم الأحدب الطرابلسي نائب محكمة بيروت . وتيسّر له هناك أن يتعلّم مع رفيقيه الجبلاطيين . القرآن . وديوان ابن الفارض وألفية ابن مالك . وكان له ذاكرة غريبة . ساعدته على حفظ هذه الكتب غيباً تقريباً .

وفي سنة ١٨٥٨ فتح الثلث الرحمات المطران بطرس البستاني على حياة عن الطيّب الذكر والأثر المطران عبدالله البستاني . مدرسةً في قرية مشموشة . حيث كانت يومئذ كرسي أبرشية صيدا الماروية . فدخلها شاكر وتعلّم فيها مبادئ الصرف والنحو . وظلّ في تلك المدرسة الى عام ١٨٦٠ حيث ابتدأت الحركة الشرّامة المشهورة . التي أدّت الى إقفال هذه المدرسة على كره . واضطرّ أبوه اذ ذاك أن يلجأ بعائلته الى مدينة صيداء . فرفع ولده في مدرسة الآباء اليسوعيين هناك خارجياً . فتعلّم مبادئ اللغة الفرنسية . وبعد استتباب الأمن وخلاص البلاد من تلك الفتنة الرهيبة . رجع شاكر الى بلدته بكاسين . وفي اواخر ١٨٦١ أدخله والده مدرسة عين طورا للآباء العازاريين . وهي تبعد حينئذ مسافة ثلاثة أيام عن بلدته . فكان يقضي الشتاء نظراً لصعوبة السفر والطرقات في ذلك العهد .

تلقى في المدرسة المذكورة اللغة الفرنسية مع سائر الفروع : كالجغرافية والتاريخ والحساب والرياضيات . وكان والده وهو صغير يقول له : « إني أرغب أن أعلّمك الطبّ » فرسخ هذا الأمر في ذهنه . وطلب من إدارة المدرسة ان يتعلم اللغة اللاتينية لاعتقاده أنها ضرورية للاطباء . فتعلّم قسماً منها . وحين برع في اللغة الفرنسية . أراده والده ان يتمكن من العربية على أصولها . ولمّا كان المرحوم العلامة المعلم بطرس البستاني قد أنشأ اذ ذاك المدرسة الوطنية في بيروت . دخلها شاكر منضماً فيها الى اخيه خليل وذلك في تشرين الأول ١٨٦٤ فتلقّى فيها . الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض على أساتذته الشهيرين كالمرحوم الشيخ ناصيف اليازجي والمرحوم الشيخ يوسف الأسير وغيرهما . وفي السنة التالية تعيّن في المدرسة المذكورة معلماً للغة الفرنسية مع استمراره على تعلّم العربية والانكليزية . وكان معلمه في هذه المرحوم سليم البستاني نجل المرحوم المعلم بطرس .

وفي تلك المدرسة ابتدأ ينظم الشعر : وكان مائلاً للنقد والنكتة والغزل . وفي اواخر ١٨٦٦ عاد الى وطنه بكاسين حيث قضى فصل الشتاء : بانتظار

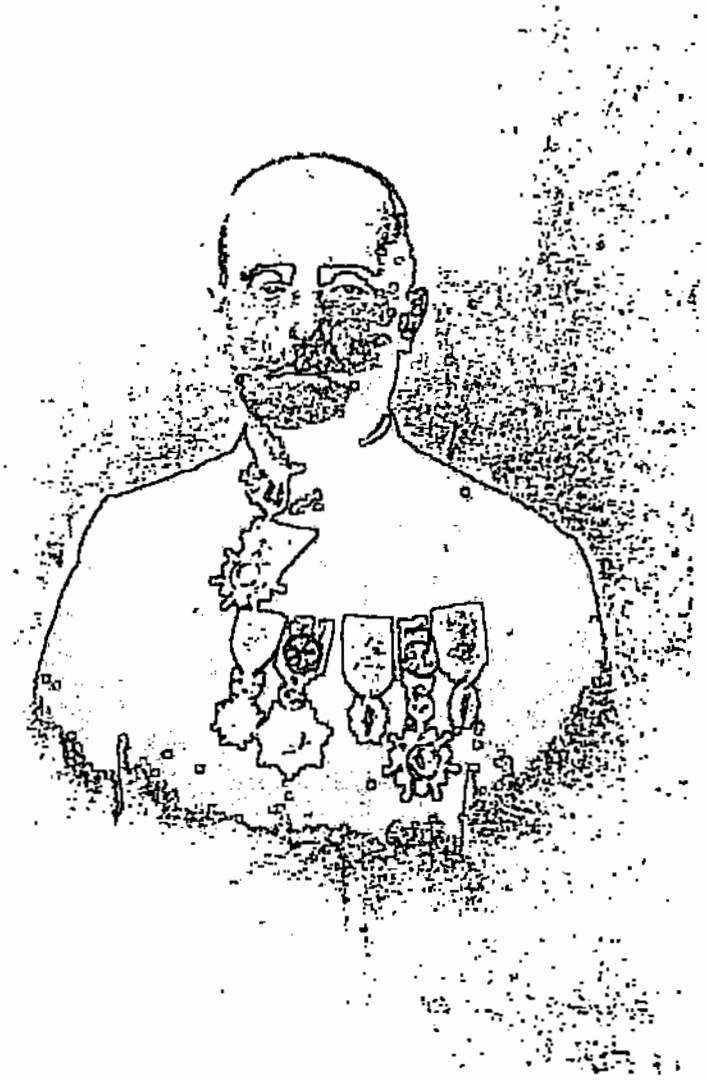

الدكتور شاكر بك الحوري

١٨٤٧ - ١٩١١

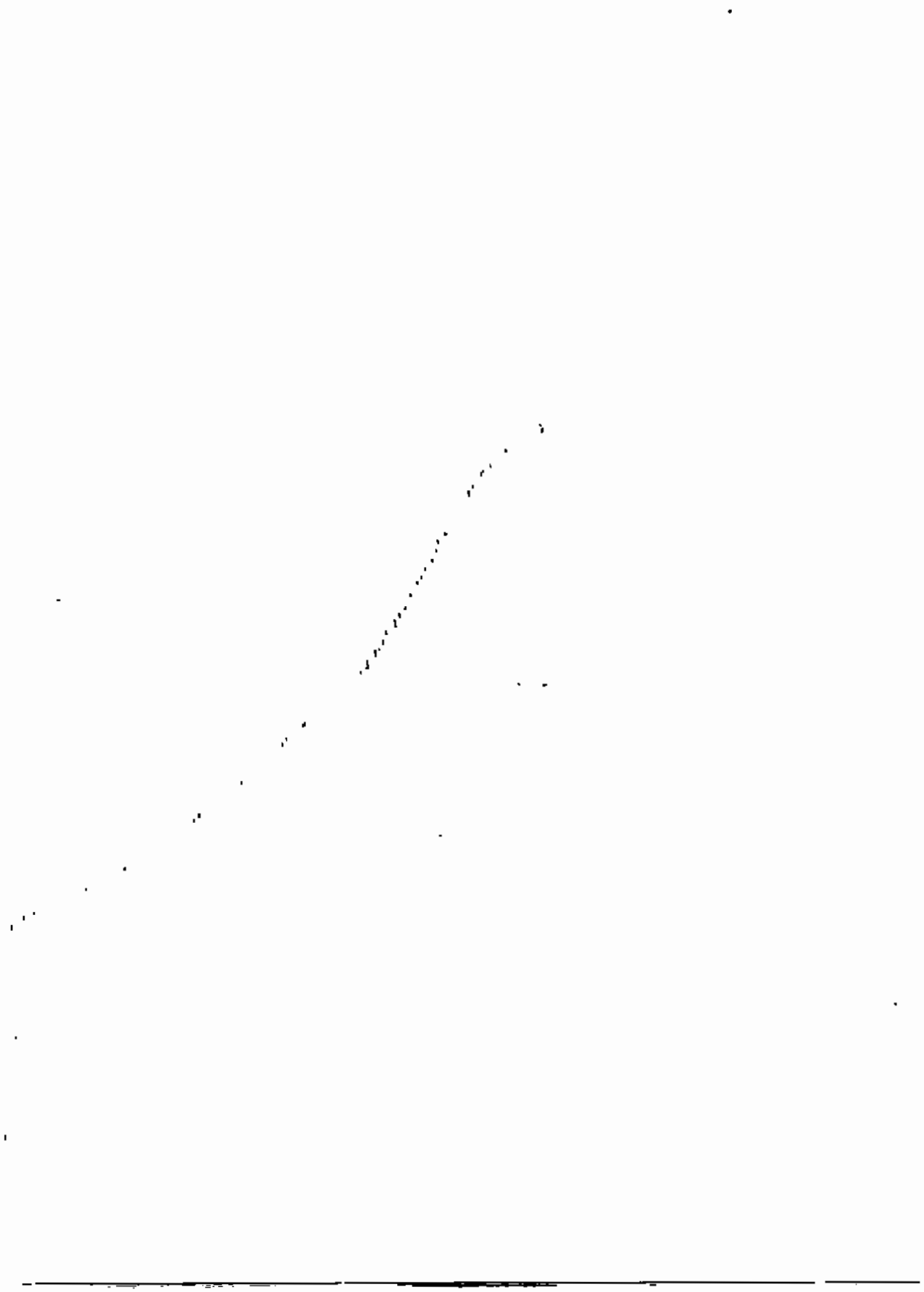

ان يجد له والده شغلاً . لكنّه أبى ان يذهب وقته ضياعاً : ففتح مدرسة في قريته العزيزة . علّم فيها أحداثها العربية والافرنسية حتى الربيع ؛ واذ ذاك نزل الى بيروت للدخول في محل تجاري ؛ وهناك كان لوالده ، صديق من التجار . فأدخله كاتباً في أحد محلاته مدة شهرين ولما دنا الصيف ألمّ به داء فأحضره والده اليه في بيت الدين . حيث أراد ايجاد وظيفة له في حكمية المتصرفية برفقة احد المهندسين ؛ فلم يقبل . وذهب الى بكاسين لتصفية فصل الصيف . وفي أواخره جعلت المصادفات ان يقابل السيد اسكندر المعوشي من جزين ؛ فأخبره المعوشي انه مسافر الى مصر ، حيث كان اخوه المرحوم الدكتور سليم ؛ الذي تمّم دروسه الطبّية في مصر ومكث هناك . وعندها عنّ للمترجم ان يذهب الى ربوع النيل فيدرس الطبابة . وكتب الى والده في بيت الدين يطلعه على ذلك ؛ ويطلب منه الحصول على توصية من المرحوم داود باشا متصرّف جبل لبنان يومئذ ؛ وكان ليوسف والد شاكر معزّة خاصة عند داود باشا وهو اذ ذاك عضوٌ في مجلس إدارة لبنان ؛ فأعطاه الباشا رسالة توصية الى ناظر الداخلية في مصر راغب باشا . فسافر شاكر مع اسكندر المعوشي . وبلغا الاسكندرية في ٢٥ تشرين الأول ١٨٦٧ . ثم توجّه شاكر الى مصر وأوصل رسالة باشا لبنان الى باشا مصر . فوعده هذا بنيل مطلوبه قريباً عاجلاً . وهو ان يتعلم الطب على حساب الخزينة الخديوية . وكان يتعلّم على نفقتها حينذاك عشرة طلاب من الشام . وحالما أنهوا دروسهم ؛ دخل شاكر المدرسة الطبية المعروفة بمدرسة قصر العيني في أول كانون الثاني ١٨٦٨ وكان رئيسها الطبيب محمد علي باشا البقلي الجرّاح الشهير . وكان قانون الدراسة الطبّية في تلك المدرسة ستّ سنوات هجريّة . فتلقّى شاكر العلوم الطبيّة باجتهاد ؛ وكان أول أقرانه ؛ على ما نطقت به علامات امتحاناته وشهادته الطبّية .

وفي أثناء إقامته في مصر شاهد فتح ترعة السويس سنة ١٨٦٩ حيث احتشد ملوك أوروبا وجمهور غفير من علماء الغرب والشرق . ممّا أدّى الى تأخير الفحوص الى ما بعد فتح تلك الترعة ؛ وكان يترأس كل امتحان سعادة بوكار باشا الفرنساوي طبيب الحضرة الخديوية ؛ مع أطباء مجلس الأمة . وكان معلمو معهد قصر العينيّ جميعهم من جامعة باريس ؛ التي كان معهد قصر العينيّ فرعاً ذا . وقد جعله هكذا مؤسسه كلوت بك الفرنسي .

وفي هذا المعهد . قدم شاكر فحصه الطبّي النهائي . وفيه نال شهادته

الطبيّة في ١٤ تشرين الأول ١٨٧٣ ومكث في مصر يمارس الطب بمعيّة استاذه الدكتور حسين بك عوض ووالده الطبيب محمد بك في امراض العيون ؛ وقد أضحى المترجم ماهرًا في هذا الفرع . وفي أثناء وجوده في مصر ، طلبت اليه الحكومة الخديويّة ان يرافق السيّاح في بلاد النيل ، فسافر مرّتين في البواخر الخديويّة حتى بلغ بلاد البرابرة وجاز الشلال الأول حتى الجزيرة المسمّاة « بقصر أنس الوجود » .

وفي عام ١٨٧٤ رافق المرحومة الأميرة حسن جيهان أرملة الأمير بشير الشهابي من مصر الى سورية . وقد كانت الأميرة مريضة . ورجع حالاً الى مصر ثانية ؛ فوجد المرحوم والده وشقيقه الدكتور أمين قد حضرا اليها مدة غيابه . فأدخل أخاه أميناً في مدرسة قصر العيني . أما والده فلم يلبث أن رجع الى لبنان ، وكان يومئذ عضوًا في محكمة الجنايات . وفي تشرين الثاني ١٨٧٥ مرض والده فاستدعاه الى لبنان لمعالجته . فحضر حالاً تاركاً أشغاله ، وأقام بجانبه مدة ثلاثة أشهر حتى تعافى . وأراد شاكر الرجوع الى مصر فمنعه والده ، وطلب منه أن يسكن لبنان . فنزل عند الإرادة الوالدية ، واستوطن الوطن الأم نهائياً ، لكنه قبل ان يأخذ محلاً لعيادته قام برحلة في البلاد . فتوجّه الى عكاء وقضى فيها ثلاثة أشهر عند قريبه رجل الخير والفضل المرحوم ابرهيم شهرانه الخوري الذي كان من أكبر التجار هناك . وأراد أهل عكاء توظيفه في بلديتها وأخرجوا له أمرًا بذلك من مجلس إدارتها ، فرفض معتذرًا . وقصد الى دمشق فأقام فيها ثلاث سنوات . وهناك ألّف كتابه الشهير المسمّى « وجهة المتزوّج » وقدمه لنظارة المعارف . فأهدته الوسام المجيدي العالي مكافأة عليه .

وبعد أن جال في أكثر مدن لبنان وسورية استقرّ نهائياً في بيروت ، وأنشأ عيادة طبيّة فيها . وشاء أن يتزوّج . فاختار مريم ابنة خليل اللبّان من بيروت زوجاً له ورُزق منها خمسة ذكور وابنة دعاها حسيبه ؛ كان يحبّها كثيرًا ، تزوّجت من السيد يوسف أسعد رحيّم من جزين ، وسكنا باريس . وقد روى لي المرحوم الاستاذ ابرهيم سليم النجار في زيارتي له في بيروت في ٢٩ من آذار ١٩٤١ ما يلي :

« عندما زرتُ باريس ، دعتني حسيبه كريمة المرحوم الدكتور شاكر الخوري الى زيارتها في منزلها ، فلبّيت الطلب نظرًا للروابط التي كانت تربطني بعائلتها ، وفي تلك الزيارة قدّمت لي شاباً لبنانياً يدعى جبران خليل

جبران : كان يدرس فنّ التصوير على يد اختصاصيين في العاصمة الفرنسية، وقد شنّف آذاننا بعزفه على العود . وفي سنة ١٩١٨ مرضت حبيبه بعد ان أصيبت بعدوى الحمّى الاسبانيولية وقد عدتها في مرضها وأنا اجهل أنها تنتظر ساعاتها الأخيرة ؛ فانها لم تلبث أن توفيت بعد يومين اثنين » .

ولنعد الى موضوعنا الأساسي . في بيروت تعرّف الدكتور شاكر بالمرحوم الدكتور سنس وقد كان طبيب المستشفى الفرنسي ؛ فأدخله في المستشفى ؛ حيث الدكتور سنس الشهير في خدمة المرضى في المستشفى المذكور وفي مستوصف راهبات المحبّة ؛ وكان ذلك في تشرين الثاني ١٨٧٩ . وعندما فُتحت المدرسة الطبية الفرنسية في بيروت عام ١٨٨٣ تعيّن الدكتور شاكر استاذاً فيها لأمراض العين وللجراحة الصغرى والأربطة وبقي هناك الى عام ١٩٠٦ وكان في تلك الحقبة يطبّب العيون ايضاً في مستوصف راهبات المحبّة في بيروت .. وقد نال شهرةً وتفوّقاً في عالمَي الطب والأدب ؛ وأصبح اسمه معروفاً لدى كبار الأدباء والباحثين ولا سيما في معالجة العيون والجراحة الصغرى . وكوفئ على ذلك بأوسمة متعددة منها : المجيدي الرابع والعثماني الرابع والعثماني الثالث ووسام المجمع العلميّ الفرنسي ووسام مجلس المعارف الفرنسي ووسام سانتي اتيديس بطرس ولقب « بك » من الذات الشاهانية وترجماناً من تراجمة دولة فرنسا وحمايتها .

مكتبته وآثاره

وكان له مكتبة جامعة حافلة بالمخطوطات الثمينة والكتب النفيسة والصور النادرة لعبت بها ايدي الضياع أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ اذ أهمل الاعتناء بها ؛ فكانت الخسارة جسيمة لفقد هذه المخطوطات والأوراق القيّمة .

وله عدة مؤلفات طبع بعضها وهي : «تحفة الراغب في صحة المتزوّج وزواج العازب» (١٧٨٩) و «نائب الطبيب» (١٨٨١) و «صحة العين» (١٨٩٠) و «مجمع المسرّات» (١٩٠٨) ومؤلفات أخرى لم تُطبع عبثت بها الأيدي . وقد ذكرها رحمه الله في ترجمة حياته المخطوطة التي خطّها بيده قبل وفاته والتي نحتفظ بنسخة عنها وهي :

كتاب علميّ فلسفي عنوانه : «الخالق والخليقة» . ثم «الطبيب السائح» . وهو رواية علمية . وتاريخ شيخ الجبل رئيس الإسماعيلية . وكتاب في فن الموسيقى العبرية وعلاماتها . ثم قاموس طبي في ثماني لغات : الفرنسية (وهي

الاساس) والعربية والتركية واللاتينية والايطالية والاسبانية والألمانية والانكليزية. وقد رأيت بعض الكراريس التي كان قد أعدّها لهذه الغاية. ويُحتمل أن يكون قام باعداد هذا القاموس وتنظيمه وترتيبه في أخريات أيامه بالاتفاق مع كبار الأطباء والاختصاصيين ولم يتسنّ له اخراج أي قسم منه لاعتلال صحّته.

وله ايضاً خطب ألقاها في دمشق خلال إقامته فيها. وكان عضواً عاملاً في الجمعية التاريخية. وله خطاب تاريخي في أهرام مصر. ومنظومات كثيرة ذات أسلوب سلس. يعذب على الأسماع. لما حواه من خفّة الروح والنكات اللاذعة. ولكنه لا يخلو من الركاكة. لأن أكثر ما ينظمه كان يجيء عفو الخاطر: لا يعتني بتصحيحه أو تنقيحه.

وله أقوال فلسفية منها: إن المال لا يغيّر صفات المرء بل يزيدها فيه. اذا ذهب الى البخيل زاد بخلاً. أو قصد الكريم زاد كرماً. ولا يصير البخيل كريماً ولا الكريم بخيلاً. ومن قوله:

لا بد للانسان من همّ: وأخصّ هذا الهمّ هو عدم حصوله على كلّ ما يريد. وذلك لعمري ضروريّ للوجود. لأنه اذا نال الإنسان كلّ ما اشتهى: فلا يمكنه احتمال شيء من متاعب الحياة. فالتعب في الحصول على المقصود يجعله ينسى باقي أتعاب الحياة ويتحمّلها بسهولة. ومن قوله أيضاً: جبل الإنسان حالة قريبه تجعله يحسده. ولكن اذا عرفه وعرف همّه عدل عن الحسد. ليست الراحة بالغنى: لأن حفظ المال يُتعب أكثر من كسبه وتحصيله. الى غير ذلك من الأقوال الفلسفية البعيدة المرمى.

شخصيته ومذكّراته

كان رحمه الله طويل القامة: أسمر اللون: حادّ الطبع: سريع الغضب: طيّب القلب: صريح القول. متّقد الذكاء. جريئاً مقداماً. أديباً ظريفاً وشاعراً خفيف الظلّ: ذا سرعة خاطر في الأجوبة الملآنة بابتداع المعاني: لاذع الهجاء: حاضر النكتة: اشتهر بالظرف والدعابة والمرح والفكاهة. وقد جمع كثيراً من الحوادث والأخبار والمشاهدات التي وقعت في عصره أو شهدها بنفسه أو انتقلت اليه من الرواة الثقاتين في لبنان وسورية ومصر ودوّن بعضها في كتابه المشهور «مجمع المسرّات» الذي حفل بمعلومات كثيرة وافادات ذات شأن: يصحّ أن يشكّل قسماً منها أساساً ومرجعاً لأمور هامّة غابرة في تاريخ لبنان. واليه والى معاصره ابرهيم

الأسود : يعود الفضل في حفظ التفاصيل والمرويات عن عهد المتصرفية ونشرها لأنهما رافقا تلك الحقبة من التاريخ اذ كانا قريبين من الدوائر الرسمية ؛ وبفضل ذلك تمكنا من الاطلاع على ماجريات الأمور وتسطيرها على أكثر ما يكون من الدقة والأمانة .

وفي الكثير مما سرده الدكتور شاكر مراجع تاريخية مهمة في تاريخ لبنان . ولولاه لضاعت من تاريخنا هذه الأصول . وأكثرها اليوم مفقود . يمكن الاستناد اليها في وضع تاريخ للبنان ، وذلك على الرغم مما وقع به من الأخطاء التاريخية الخطيرة التي رأينا أن نصحح بعضها .

ذكر في كتابه «مجمع المسرات» ص ٦١٠ أن الجد الأصلي لعائلته هو الخوري جرجس عبود الذي سامه البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٧٠—١٧٠٤) كاهناً في غوسطا على نيحا ومزارعها . ومن جملة مزارعها بكاسين وذلك سنة ١٧٠٣ . ولدى الاطلاع على سجل سيامات الكهنة التي قام بها البطريرك المذكور من ١٦٨٤ الى ١٧٠٤ تاريخ وفاته ، والمنشورة في مجلة «المشرق» المختبة (١٩٣٢ ص ٤٩٠) لم نجد أثراً لما ذهب اليه المترجم له ، وقد يكون ما رواه مستنداً الى روايات منقولة بالمشافهة ضعيفة الإسناد ، فضلاً عن الخطأ الذي وقع به ، وأشار اليه : بتعيين الخوري عبود على نيحا ومزارعها منها بكاسين ناحية عن بُعد المسافة التي تفصلها عن بعضها البعض .

وقد جاء في كتابه الآنف الذكر ص ١٤٥ أن جدّه الخوري ابرهيم ابن الخوري اسطفان الثاني ابن الخوري ابراهيم الأول المتوفى في بكاسين في ٢٥ من تشرين الأول ١٨٦٥ عن أربع وسبعين سنة . كان أول كاهن في قضاء جزين نال رتبة بريطوس ، نقلاً عن سجلات الكرسي البطريركي الماروني ، كما يقول : والحقيقة إن الذي نال هذه الرتبة هو الخوري ابرهيم الخوري الأول ابن الخوري اسطفان الأول وذلك في ١٥ آذار ١٧٨٧ وقد منحه اياها المطران يوحنا الحلو (البطريرك فيما بعد) اذ كان يومئذٍ زائراً بطريركياً في بكاسين وسنوضح ذلك في مقالنا هذا .

كذلك يزعم أن جده الخوري ابرهيم سيم كاهناً في ١٠ آذار ١٨١٠ والصواب انه رُسم في ١٠ آذار ١٨١٧ ولعل ذلك خطأ مطبعي .

كما يعترف بصراحة ووضوح في كتابه ص ٦١١ إنه عندما احتاجت بكاسين الى كاهن طلبوا صهر الشيخة ابن الخوري عبود الذي رسمه المطران

سمعان عواد (البطريرك) كاهناً على بكاسين في ٢٤ ك٢ ١٧٢٨ والصواب ١٧٢٩ . ثم يقول : وكان للخوري اسطفان عندما حضر الى بكاسين ثلاثة أولاد أكبرهم ابو عساف رزق الله والثاني الخوري ابرهيم والثالث أبو فارس انطون . ونتيجة لأبحاثنا وتحرياتنا وقفنا على ما يلي :

الأول : ابو عساف رزق الله جاء على ذكره ص ١٢٧ انه كتب وصيته عند موته ؛ وقد وقف الى دير سيدة مشوشة مزرعة جوار السويس — وهي من املاك بكاسين — ليصرف ريعها في بناء مدرسة لتعليم اولاد بكاسين . وتاريخ هذه الوصية سنة ١٧٨٧ .

الثاني : الخوري ابرهيم . لا يُعقل أنه سيم كاهناً قبل والده الخوري اسطفان الأول . ويدلنا التاريخ أن الخوري ابرهيم المذكور رفعه المطران يوحنا الحلو الى درجة برديوط على مذبح كنيسة القديسة تقلا في بكاسين بقداس جهري في ١٥ آذار ١٧٨٧ كما اوضحنا . وقد كان مرتسماً قساً من يد المرحوم المطران ارميا تجيم (المنارة ٥ : ١٩٣٠) .

وكان هذا الكاهن حياً سنة ١٨٠٨ اذ ورد اسمه في سجل مخطوط يبحث في مساحة أراضي بكاسين . وقد ذُكرت فيه قطع الأرض التي كان يملكها . مُبين بتوقيعات المشايخ امين وقاسم وعلي جنبلاط واختامهم — كما ورد ايضاً اسم ولده الخوري اسطفان الثاني الذي سيم كاهناً في بكاسين في ٢٩ حزيران ١٧٩١ من المطران يوحنا الحلو (المنارة ص ١٩٣٨ : ٣٣٧) وقد توفي الخوري اسطفان في بكاسين في ٣ ك٢ ١٨٣٩ كما جاء في « مجمع المسرات » ص ١٤٦ .

والثالث : ابو فارس انطون : وقد ورد اسمه في شهادة مؤرخة في ١٣ آذار ١٧٩١ (المنارة ٥ : ١٩٣٠) .

يتضح مما ذكرناه ويشعر القارئ من المعلومات التي سردها الدكتور شاكر أن ابناء الخوري اسطفان الأول الثلاثة كانوا متزوجين ولهم أولاد حين مجيئهم الى بكاسين وقبل سيامة والدهم كاهناً . كما يتبادر للذهن أن الخوري ابرهيم الأول كان كاهناً قبل أبيه .

ان الايضاحات التي توفرت لدينا وقد بيناها في هذه الترجمة تزيدنا علماً ووضوحاً بأن اولاد الخوري اسطفان الأول : منهم مَن كان صغيراً عند سيامته ؛ ومنهم مَن وُلد بعد سيامته ولا يمكن أن يمتدّ بهم العمر الى التاريخ الذي ذكرناه ؛ اذ كانوا وُلدوا وتزوّجوا وتناسلوا قبل سيامة والدهم . وهذا ليس

بمعقول . وفي صحيفة ٣٨٧—٣٩٥ تحت عنوان (دعوى عميلنا) يتطرّق الطيب الى ذكر خلاف مالي حصل بينه وبين مواطنه التاجر في بيروت ، المثري الشهير في عصره المرحوم ملحم منصور نصر ١٨٤٦—١٨٩٠ . وقد نسب اليه فيه أموراً معظمها لا يتّفق والواقع : وينعته بابن شليطا — وهذا اللقب لأبيه لأنه كان طويلاً — وفي أخباره من المتناقضات ما يدعو الى الشك ، وحبذا لو ترفّع عن الإساءة وتجنّب الخوض في هذه القضية التي يكتنفها الغموض والإبهام .

وفي صحيفة ١١٨ يذكر اسماء التلامذة الذين مثّلوا رواية يوسف الحسن في المدرسة الوطنية التي أنشأها المعلم بطرس البستاني ، ومن افرادها مواطنه ونسيبه ابرهيم راشد عطيه (١٨٤٦—١٩٣٢) فقد دوّن اسمه ابراهيم راشد متغاضياً عن ذكر عائلته وبلدته وكان هذا يتلقى علومه مع صاحب الترجمة وشقيقه خليل (١٨٥٠—١٨٩٤) ونعمان يوسف مبارك الخوري (١٨٥٦—١٩١٠) الذي اصبح فيما بعد قنصلاً عاماً للدولة الفرنسية في مراكش وسليمان ابن الخوري مخايل لطفي (١٨٥٧—١٩٤٥) .

وفي صحيفة (١٤٥—١٤٦) أتى على ذكر تأسيس دير سيدة مشموشة ، وممّا قاله : ان البطريرك سمعان عواد اشترى قسماً من أرض الدير من أولاد بو عصبه في مشموشه وقد عدّد أسماءهم . لكنه أهمل نشر هذه الوثيقة تدعيماً لقوله ، وهذه هي منقولة عن رزنامة الدير :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وجه تحريره وموجب تسطيره

هو انه قد باعوا أولاد بو عصبه . فيّاض وخالد وتمر ومخز وشمعون . حصّتهم جميعها من حدّ الحجر مقلب الماء ، الى حدّ عين الجوزه منه ، قبلة وشمال وشرق وغرب جميع ما لهم من سليخ في الموضع المذكور . وما بقا لهم علقا ابداً . وذلك البيع الى حضرة قدس المطران سمعان (عواد) القاطن في دير عين الجوزه ، وذلك مبلغ ثمانية عشر قرش ، التي نصفها حقظاً لأصلها تسع قروش . وقبضوها فرد قبضه بالحاضره والمعاينه برضا الفريقين من غير تعلّل ولا عناد . تحريراً في ٤ أيام من شهر تشرين الأول انف ومايه وخمسة واربعين هجرية ١١٤٥ (١٧٣٢ م) .

شهـــود الحـــال

شهد بذلك عبود ابن ...

شهد بذلك المعلم بو ابراهيم صايغ

وبهذه المناسبة نوجّه نداءً حارًا الى جانب الرئاسة العامة للرهبانية البنانية الكريمة التي تزخر بطائفة كبيرة من العلماء والمثقّفين : أن ينصرفوا الى نشر تاريخ هذا الدير : وان يتناولوا نشأته وذكر الرؤساء الذين تعاقبوا عليه : وما قام به كل منهم . الى جانب نشر الصكوك القديمة ، وما طرأ على الدير من أحداث : خصوصاً في الحركات الثلاث ، حتى لا تندثر يوماً أو تطالها الأيدي وتعبث بها . ومن يدري ما يخبّئه لنا الدهر . ولعلّها فاعلة باذن الله .

وهذه وثيقة ثانية ثبتت على مرور الزمن وتقلّبات الدهر . عائدة الى ١٧٣٤ م تزيّن بها هذه الترجمة ، وهي تحمل توقيع اربعة أشخاص من بكاسين ، بينهم الخوري اسطفان الأول ، جد عائلة بيت الخوري في بكاسين : نثبتها بنصها التالي :

وجه تحرير هاذي (هذه) الاحرف وهو ان اشطرا (اشترى) بمالو (بماله) لانفسو (لنفسه) دون غير (دون الغير) ودون ساير الناس اجمعين وهوا (وهو) ابو نجم حنا ابن بو غانم من اولاد نصر التهوجه (التهوجي) من قريت (قرية) السفانيه حصتين (حصتهم) الذي (التي) في جورت (جورة) الشكارا (مكان في بكاسين يكثر فيه الزيتون) بتيمين (بتسعين) المثمن المعتاد اجاري بيس (بحيث) قدروه باحد عشر قرش ودفع الشاري للي (الى) البايع الدراهم المعينه دفعا (دفعة) واحده على رضا واخطيار (واختيار) الفريقين بلا غصب ولا تكليف ولا كره فيه ولا فساد ولا رجوع ولا معاد وصار الملك ملك الشاري (الشاري) تحريران (تحريرًا) دالك (ذلك) سنة الف ومايه وسبعا واربعين صح صح صح.

حرر الأحرف بوحرفوش	بسم الله	بسم الله	بسم الله
	شهد	شهد	شهد
	موسي شاهين	بوهنر صطفان	الخوري صطفان

ومما يؤخذ على شكري الخوري : وهو ذلك العالم المتبحّر . الواعي في عصره وبين قومه : أنه أهمل الإشارة الى وطنه بكاسين ، فلم يؤرّخ لنشأتها والأحداث التي مرّت بها ، ولا ذكر نابغاً من نوابغها أو مشهوراً من مشاهير رجالاتها ، اللهم الا من كان يمتّ بنسب الى عائلته وذوي قرباه ، وقد كان ذلك ميسوراً لديه لمعاصرته الكثيرة من مشهوري رجالها ونوابغ أدبائها ، وما كان يمكنه إثباته بالنقل والتواتر عن شيوخها المعمّرين . ولو أنه توخّى ذلك ، لأنصف أهل بلده ، ودلّل على تعلّقه

بوطنه الصغير . وأماط اللثام عن كثير من الحوادث التاريخية التي وقعت في عصره أو شهدها بنفسه أو اتصلت اليه من الرواة الناقلين .

ومع ذلك فان مواطنيه المشهود لهم بالوفاء . لا ينسون له تلك المواقف الجريئة الصادقة ، ووقوفه الى جانبهم في كثير من الأزمات والمواقف الحرجة التي تعرضت فيها بلدتهم دفاعاً عن حق مشروع . وصموده في وجه المكابرين إبان الشدائد والملمات .

نماذج من شعره : وهذه بضع قطع انتخبناها من كتابه (مجمع المسرات) الحافل بالعجائب والغرائب والطرائف . يطغو عليها روح النكتة والفكاهة اللاذع وجمال الوصف ورقة التعبير ، وقد هذّب بعض عبارات على بعض منها بعد التطبع .

وهذا أول شعر نظمه في وصف غادة حسناء :

يا ظبيةً أسر الفؤاد بحبّها ... كفّي القتال فان طرفك ساحرُ
أخفيتُ حبّك عن فمي حتى غدا ... لم يدرِ فيه وهو فيك الشاعر
والآن أبدي ما كتمت من الهوى ... فلك الرضا بقبوله والخاطر
إن تُنكري أو ترتضي أو ترفضي ... فأنا أنا في كلّ حال شاكر

وقال في حسناء تدعى مريم :

أهديك قلباً موجعاً ومجرّحاً ... ومخضّباً من سهم لحظك بالدما
لو شرّحوه وجدت مكتوباً على ... سوداته : هذي الديار لمريما

وقال في احدى السيدات عندما سافرت بالسكة الحديدية الى المنصورة في القاهرة :

لمّا مشى البابورُ وهي بقلبه ... وبثلبي النيران عزّ مثيلُها
أسبلتُ دمعي حسرةً وصبابةً ... في مصر حتى فاض منها نيلُها
فحكى تُواحي والبكاء هديرُه ... وصفيرُه روحي يُزيد عويلها
أخذوا مياه بخاره من أدمعي ... وأعرتُهم نار الفؤاد تُحيلها

وقال في احد القضاة واسمه محمود كان متّهماً بالرشوة :

عجباً لقاضي ملّة ... دون القضاة لـه عوائدْ
فكلامه موصولٍ غدا ... لا بدّ من صلةٍ وعائدْ

وقال بعض مشيداً لقسّين شقيقين :

لمّا رأيت صليباً فوق مذبحه ما بين حنا وجبرائيل قسّين
حسبته واقفاً من فرق جلجلة وإنه لم يزل ما بين لصّين

وقال في كاهن عالم : نال درجة الأسقفية . وكان فخم الجثة : تمّت سيامته في شهر آذار . الذي تحلّ فيه الشمس في برج الحمل حسب علم الفلك :

في حلول الشمس في برج الحمل حلّ روح القدس في هذا الجمل
لا تخف إن وعظه ينهاك عن إعتزال ذكر الأغاني والغزل

وهذه أبيات أرسلها الى احدى السيدات :

هذا الكتاب يبثه من مقلتي من ذوب قلبي قد جعلتُ سواده
يمشي على قدم الحيا يبغي الرقا منكم . وقد جعل النسيم جواده
زوّدته فكري لذلك ما ارتضى يسأل إنه أخذ الخشاشة زاده
إن تسألي عن حالتي فأنا الذي . جعل المصابة حبه وجهاده
ونقد أضاع بهجركم آماله ورقاده ودموعه وفؤاده

وقال في عشي الأمير سعيد وكان خالياً من اللحم . وقد طارت هذين البيتين شهرة كشهرة الموازنات القديمة بين جرير والفرزدق وبين المتنبي وأبي تمام :

قد قيل إن المستحيل ثلاثة واليوم رابعة أتت بمزيد
الغول والعنقاء والخلّ الوفي واللحم في عشي الأمير سعيد

ودخل يوماً على رجل يُدعى شاكر ، فغضب هذا منه . فقال له : قد اخبتني عن الصعب يا شاكر . فأجابه بقوله :

أخبتني يا شاكراً ما هكذا فعل الصديق
وأجبته إني الذي يُلهي الخمار عن الطريق

وكان دولة متصرّف لبنان مظفّر (باشا ١٩٠٢—١٩٠٧) طلب من الشعراء ومن الدكتور شاكر نفسه نظم أبيات تاريخية لتُحفر على الباب الذي جدّد بناؤه في سراي بعبدا ، فلبّى الطلب مع بضعة شعراء . وقد تألفت لجنة تحكيم واختارت أجود ما قيل ، ففاز احد الشعراء . فغضب الدكتور شاكر وقال :

لو انّ شعري شعير لاستطيبته الحميرُ
لكن شعري شعور وصل للحسير شعور؟

وله عبارات ونكات عذبة كثيرة تردّد الى اليوم كما تُردّد الأمثال يصعب احصاؤها لو شئنا تعدادها وذكر حوادثها لاستوعبت صفحات كبيرة ؛ وأكثرها منشور في كتابه (مجمع المسرّات) . نكتفي هنا بسرد بعض منها ذكرها عنه أحد كبار أئمّة الشرع والقانون العلامي الفطيع والكاتب النحرير الاستاذ عبدالله خوند العمشيتي .

كان الدكتور شاكر صديقاً للأمير منقذ شهاب . وكان هذا صاحب نكت بارعة ؛ وهو ابن الأمير عبدالله ابن الأمير حسن شقيق الأمير بشير الشهابي الكبير ؛ تولّى مديرية ناحية جبيل فترةً طويلةً من حياته . رآه الدكتور شاكر يوماً في ساحة البرج ببيروت ؛ ووراءه جنديان . وكان شاكر متطيّاً فرسه الزرقاء ؛ فنادى الأمير وهمّ بالنزول عن فرسه للتسليم عليه ؛ فحاول الأمير منعه . فقال شاكر : حلفت يميناً أن أنزل عن فرسي احتراماً لمن هو أرذل مني .

والنكتة الثانية : هو ان حلّ ضيفاً على مائدة سلمى بولاد في مصر وبين المدعوين كاهن لا يكره المباسطة ؛ وقد عتب الكاهن على الطبيب لاحتكاره الحديث مع السيدة . فقال الدكتور على الفور موجهاً كلامه للكاهن : لتقاسم : سلمى لي ؛ وبولاد لك . فضحك الكاهن بدون ذعر .

قُبيل غروب شمسه

كان أعزّ أمانيه . بعد أن زار فرنسا وانكلترا ؛ أن يتبرّك بزيارة الأماكن المقدسة ؛ مهد المسيح ؛ ووطن الرسل . ومهبط الأنبياء ؛ وقد قدّر له أن يحقق هذه الرغبة ؛ فشخص الى فلسطين وطاف في مختلف أنحاء اورشليم ؛ ومشى على طريق الجلجلة التي سار عليها السيد المسيح . فدخل الهياكل والمساجد المقدسة ؛ وشاهد الآثار التاريخية الخالدة .

وقد تجلّى صدق ايمانه ؛ وراسخ عقيدته ؛ في أواخر حياته ؛ فتقرّب مراراً من منبر التوبة ؛ وتزوّد الأسرار الإلهية الأخيرة عن يد رئيس دير جزين للآباء اليسوعيين .

ومن غريب المصادفات إنه في الساعة التي دفن فيها رفات قريبه المرحوم نعمان الخوري فنصل فرنسا السابق في مراكش الذي نقلته احدى

البواخر الفرنسية الى لبنان . فاخذت في تلك الساعة روح الدكتور شاكر ، وكان ذلك بعد غروب شمس الخميس الواقع في ٢٤ آب ١٩١١ على أثر إصابته بداء السكّري والزلال .

فذهب مبكياً عليه . مأسوفاً على علمه الراسخ ، وأدبه الرائع . مشى وراءه رهط من العظماء والأحباء والوجهاء . وشيّعته بلدته بكامل أبنائها . وغزير دموعها ، وأودع جثمانه بعد الصلاة عليه ، تراب ذلك البلد الطيّب ، الذي طالما أشاد به ، وتغنّى حنيناً اليه بين الناس .

ومن نكد الدنيا ان والدته الثكلى عاشت بعده جريحة حزينة . وقد توفاها الله بعد مماته في ٢٢ آب ١٩١٢ عن ٨٨ عاماً .

وكانت وفاة زوجته مريم خليل التيّان في بيروت السبت في ٢٢ ت٢ ١٩٢٤ عن خمس وسبعين سنة ، وبعد الصلاة على جثمانها في كنيسة مارمارون ، أودعت مثواها الأخير بالاجلال والتكريم .

سيظل الدكتور شاكر الخوري مذكوراً بفضل أدبه ، وغيرته على المرضى ، وبخفّة روحه ، وظرف حديثه ، وسرعة نكاته التي تطيب لها النفوس وتستعذبها الأفواه .

من رسائل الادباء والمستشرقين
الى الاب لويس شيخو

نشرها وعلّق عليها الاب كميل حشيمه اليسوعي

بين الأوراق التي خلفها الأب لويس شيخو (١٩٢٧ †) والمحفوظة في خزانة جامعة القديس يوسف في بيروت، بضع مئات من الرسائل التي وصلته، أتيح لنا مطالعتها برمتها فوجدناها جديرة بأن تعرف لما يحويه بعضها من معلومات قيمة تساعد على درس شخصية الأب شيخو والدور الذي قام به في ميدان العربية وآدابها.

تقسم هذه الرسائل الى اربع فئات كبرى بالنسبة الى كاتبيها. فالقسم الأول حرره أقرباء شيخو واصدقاؤه. وهو اقل الاقسام قيمة لتاريخ الآداب لأن مواضيعه غالباً ما تنتصر على الإعراب عن عواطف المودة والشوق او طلب بعض الخدمات.

اما القسم الثاني فهو صادر عن اخوان شيخو في الرهبانية اليسوعية وتدور محتوياته حول امور عملية تمت بصلة الى الحياة الرسولية، او حول امور ادبية وعلمية لا تخلو من فائدة اذا ما أريد انشاء تاريخ الحركة الفكرية في اوائل القرن العشرين.

اما القسمان الثالث والرابع فلهما الأفضلية في نظرنا. اولهما يقلم نفر من الأدباء الشرقيين راسلوا شيخو في شؤون عدة لا سيما بصدد مقالاتهم او مقالات غيرهم في مجلة «المشرق»؛ والثاني الرابعة والاخيرة كتبها بلغات متعددة عشرات من المستشرقين من المع ما عرفته علوم الاستشراق في اواخر القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، جاء اصحابها يقرعون باب شيخو لحاجة لم عنده كأن يكلفوا اليه طبع احد كتبهم في بيروت او

يستعلمون في مراجع تؤيد بعض حججهم فيستطردون من حين الى آخر في تأملات حول مواضيع شتى ، مبدين رأيهم في كثير من المسائل ، دينية كانت او اخلاقية او ادبية . ولم يكن من النادر ان يكاتبه هؤلاء الاقطاب لا لشيء الا للصداقة التي تربطهم اليه . فيودعون رسائلهم من رقيق المشاعر ما ينبئ بالمنزلة الكبرى التي كانت له من قلوبهم وتقديرهم .

باشرنا منذ قليل باعداد العدة لنشر هذه الرسائل ، الا ان العمل ضخم سوف يتطلب من الجهد ما ليس باليسير ومن الوقت سنين طوالا ، فرأينا انه قد لا يخلو من الفائدة لو وضعنا منذ الآن بين ايادي الباحثين بعض هذه النصوص ، لا سيما من تلك التي خطها الأدباء والمستشرقون الى ان يتسنى لنا ابراز مجموعها كاملاً الى حيز النور . وكان رائدنا في كيفية انتقاء الرسائل ، الحرص على توسيع نطاق اختيار المؤلفين ما امكننا . فضمن حدود عدد معتدل من النصوص لا يتعدى الثلاثين ، ثم اننا اجتهدنا في انشاء مجموعة تتيح للقارئ ، على ايجازها ، ان يكوّن لنفسه فكرة كافية عن نشأة الأب شيخو وطباعه وشخصيته عامةً ومكانته بين اساطين العلوم العربية والاسلامية .

اننا لا نشك ان كل من نال هذه المجموعة ليستطيع ان يلمس لمس اليد بعض ما كان يتمتع به العلامة اليسوعي من اجلال بين رصفائه ، فهم اذ لا يحجمون عن انتقاده دون مداورة اذا ما رأوا فيه مأخذاً[1] ، يكنّون له بالاجمال كل تقدير من اجل الجهود الجبارة التي بذلها لاحياء التراث العربي ، إن عن طريق مجلة « المشرق » او عن سبيل المنشورات والدراسات[2] . وكان عدد غير قليل من المستشرقين قد تتلمذ عليه ويفتخر بالاقرار له بالفضل عليهم ، كهل (Hell) وكيتكو (Kmosko) وكراتشكوفسكي (Kratchkovski) (راجع رسائل رقم ١٠ : ٢٤ : ٢٥) . وكانوا عادةً لا يستنكفون من ان يلجأوا اليه في أمور تستعصي عليهم فيبتدوا بهديه سواء اكان اسمهم أليس (A. G. Ellis) ام را (G. Rat) ام گولدتسيهر (I. Goldziher) ام نالينو (C. A. Nallino) ام فليكس فارس ام محمداً كرد علي ، وقد اكد له هذا الأخير ، المعروف بمخاصمته له ، ما نصه : « وانا احب كل حين ان استرشد برأيك »[3] .

(١) رسالة رقم ٥
(٢) رسائل رقم ٢ : ٥ : ٦ : ٩ ...
(٣) رسالة رقم ٢٣

وكان شيخو ، اذا ما جاءه طالب علم مستشرًا ، لا يرده خائباً مهما كلفه الأمر . لا بل انه كان من دأبه ان لا يوصد بابه ابدًا في وجه كل قارع يأتيه في اوضع الحاجات ، فكان لا يتراجع مثلاً من ان يجوب المكتبات بحثاً عن كتاب طلبه احد الأدباء[1] او من تصحيح مؤلف ارسله اليه احد الكتاب الناشئين[2] او من مساعدة مستشرق على تتبع سير طباعة مخطوط وكله الى المطبعة الكاثوليكية في بيروت[3] . .

ولا عجب ان تكون نتيجة هذه الاستعدادية للخدمة اتفاقَ السواد الاعظم من المراسلين على التنويه بغيرة شيخو ولطفه ، فكلهم يلهجون بالثناء عليه بأرق العبارات ومنهم من لا يتمالك عن الاقرار بأنه ما برح يحفظ اعطر الذكريات من علاقاته به لعشر سنين خلون[4] . ولعل افصح البراهين على ما كان يتحلى به هذا الراهب العالم من رحابة الصدر ورقيق الشعور ما قاله هـ. زوتنبرگ في معرض رسالته (رقم ٨) ، وهذا تعريبه :

« ان ذكراك ، ابت العزيز ، ما زالت حيّة في ذهني وسرارًا ما كانت لي تعزية في احزاني . فذكاؤك اللامع وحصافة عقلك وجاذبية حديثك ومناقبك الرفيعة قد اضرمت فيّ نحو شخصك عاطفة تملكت مني الى حد انها كانت تنسيني الفوارق بيننا » .

وان نحن شددنا على هذه الناحية من شخصية شيخو مبينين ما كان يتحلى به من سمو في الأخلاق ودماثة في المعشر ، فلانه كان معروفاً بمواقفه الجدلية الصارمة ومناظراته الحامية الوطيس مع من كان يرى فيهم اخصاماً للدين ، وكان لا يتورع من ان يسترسل في مقالاته الى الانتقاد اللاذع والسخرية اللاذعة[5] ، فاحببنا ان نسلط اضواء تكشف عن مواطن غير مألوفة بين العامة من نفسية هذا الكاهن المجاهد .

ولقد بلغ من انصراف شيخو الى الجدل والدفاعية انه اصبح علماً يهتدى به وعمادًا راسخاً يستند اليه ويلوذ بجواه كل من اوجس على الدين

(١) رسالة حلّ ، رقم ١٠
(٢) رسالة زا ، رقم ١
(٣) رسالة گـت ، رقم ٢٠
(٤) رسالة باربيه دي مينار ، رقم ١١ — راجع ايضاً رسالتي هاليفي ، رقم ١٢ وكوشكو ، رقم ٢٤ .
(٥) راجع مثلاً مجلة « المشرق » ٢ (١٩٩٩) ، ص ٥٢٥ و ١١٣٣ ؛ او ٣ (١٩٠٠) ، ص ١٠٠٥ ؛ او ٤ (١٩٠١) ، ص ٨١٣ ، الخ ...

خيفة في الاقطار العربية قاطبة ؛ كما يستدل على ذلك في رسالة ابراهيم بربار (رقم ٢٦) وهو واحد من عشرات امثاله [١].

ومما لا ريب فيه ان مثل هذه الثقة التي كان يتمتع بها شيخو من قبل انصار الحفاظ على الدين ؛ كانت تتجاوب الى حد بعيد مع ما كان هو نفسه مفطوراً عليه من الغيرة والاندفاع ؛ فأدى ذلك عنده الى بعض المبالغة . فكان يتبرى للدفاع عن الحق في حينه وغير حينه . يعلق على مقالات كتّاب ملؤوا مجلته « المشرق » بما جاد به قلمهم . دون ان يستأذنهم في ذلك ؛ ولعل النية منه كانت صالحة الا ان صنيعه هذا ما كان ليشفع قلوب المعنيين كما نرى ذلك من خلال رسالة المطران جرمانوس معقد (رقم ٧) .

هذه اذاً بعض ملامح من الأب لويس شيخو نستشفها من خلال نخبة رسائل بعث بها اليه نفر من ارباب العلم والقلم . ولا بد لتتم اللوحة وتبرز شخصية الرجل على اكمل وجه من ان نحيل القارئ الى احدى الرسائل التي نحن قادمون على نشرها (رقم ٩) كتبها اخ لشيخو في الرهبانية اليسوعية ؛ العالم المجتهد في الكتاب المقدس الأب البير كوندامان ؛ فهي بأسلوبها الفكاهي الظريف تبين كيف كانت تبدو صورة شيخو للعيان : فهو العالم العلامة بمكنونات العربية والناشر المدقق لكنوز مخطوطاتها والمؤلف والمترجم والمدير لمجلة شهيرة تصدر مرتين كل شهر والقيم على مكتبة من اغنى المكتبات الاستشراقية والمعلم في الجامعة والمدرسة والرسول الغيور — المبالغ في غيرته — الذي يقضي اوقاتاً طوالاً في سماع اعترافات المؤمنين مما يتبقى من الساعات التي يمكنه ان يخصصها للعلم فيخدم الدين بطريق غير مباشر خدمة أوفى .

وقبل ان نختم هذه المقدمة ؛ لا يخلو من فائدة ان ندرج ثبتاً ببعض مراسلي شيخو من الأدباء والمستشرقين ؛ مستثنين منهم العشرين ونيفاً الذين سننشر لهم رسالة في الصفحات القادمة .

فمن المستشرقين نذكر : اسين پالاسيوس [٢] وأمدروز [٣] والبارون ماكس

(١) راجع ايضاً رسالة البطريرك الماروني الياس الحويك بتاريخ ١٢/٢/١٩١٤ ؛ وقد نشرها شيخو في ملحق العدد الثاني من « المشرق » ١٧ (١٩١٤)؛ ومما جاء فيها : « تلقه درة ايها الأب العالم العامل الذي جاهدت في سبيل الله جهاد الابطال ولم تزل تجاهد في هذه الاعصار الشرقية التي كثر فيها عدد المتخرصين على الدين الحق ... »

(٢) Miguel Asin Palacios (١٨٧١-١٩٤٤) . كاهن اسباني ؛ عضو المجمع العلمي بدمشق . درس حركة التفاعل الثقافي بين الاسلام والمسيحية . — امتنا لتعريف عن معظم المستشرقين الآتي ذكرهم بمؤلف نجيب العقيقي في ثلاثة اجزاء: المستشرقون ؛ القاهرة ؛ ١٩٦٤ — ١٩٦٥ .

(٣) H.F. Amedroz (١٨٥٤ — ١٩١٧) . اصله سويسري ولكنه انجليزي الجنسية . حقق الكثير من المخطوطات طبع منها ثلاثة في المطبعة الكاثوليكية في بيروت .

اوبنهايم[1] والأب پاريزو[2] وج. گابريلي[3] وگراف[4] وگودفرا ديمومبين[5] وا. گويدي[6] ودي خويه[7] وسنوك هرگرنجه[8] وفنسنك[9] ولك. فولليرس[10] وكارا دي ڤو[11] وكرنكو[12] وج. ب. ن. لاند[13] ولايل[14] ومرگليوث[15] ولويس مسينيون[16]

---

(١) M. Oppenheim (١٨٦٠ – ١٩٤٦) . طاف في سوريا وما بين النهرين بحثاً عن المكتبات العربية وقد درس احوال البدو وتواريخهم درساً سهباً .

(٢) Dom J. Parisot . من رهبانية القديس مبارك . له مؤلفات في السيريتي واللغات الشرقية .

(٣) Giuseppe Gabrieli (١٨٧٢–١٩٤٢) . امين مكتبة مجمع لنشاي الايطالي . له بحث فيه : تاريخ الدراسات الشرقية في ايطاليا وصلاتها بالشرق .

(٤) Georg Graf (١٨٧٥ – ١٩٥٥) . كاهن كاثوليكي . انصرف الى طلب المخطوطات الشرقية . اهم ما خلفه من الآثار « تاريخ الآداب المسيحية العربية » وهو في خمسة مجلدات ضخمة .

(٥) M. Gaudefroy-Demombynes (١٨٦٢–١٩٥٧). فرنسي . الف ونشر الكثير لاسيما فيما يختص بالمغرب .

(٦) Ignazio Guidi (١٨٤٤ – ١٩٣٥) . ولد في رومة . تبحر في العربية وفي سائر اللغات السامية لا سيما السريانية والحبشية والأمهرية . علم في جامعة القاهرة .

(٧) M. J. de Goeje .هولندي . من اعظم المستشرقين . اشتهر بسعة اطلاعه على تاريخ العرب وتفلسفه من فلسفتهم وبعده عن الهوى في جميع ابحاثه .

(٨) Snouck-Hurgronje (١٨٥٧–١٩٣٦) . تتلمذ على دي خويه . عد في طليعة رواد دراسات الفقه الاسلامي والاصول والحديث والتفسير في اوروبا .

(٩) A. J. Wensinck . (١٨٨١–١٩٣٩) . تخصص في اديان الشرق بيد ان وضع المعجم المفهرس الى الفاظ الحديث وتولى تحرير دائرة المعارف الاسلامية .

(١٠) Karl Vollers (١٨٥٧ – ١٩٠٨) . امين المكتبة الخديوية بمصر . نشر ديوان الخنساء وعدة مخطوطات اخرى .

(١١) Baron Carra de Vaux . علم العربية في باريس . الف ونشر في الفلسفة والرياضيات والتاريخ .

(١٢) Fritz Krenkow . الماني . تزوج الى انجلترا وتعاطى فيها التجارة واضطر الى جانب علوم الاستشراق حيث برع ! اعتنق الاسلام فيما بعد وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق .

(١٣) J. P. N. Land (١٨٣٤ – ١٨٩٧) . دارت ابحاثه حول تاريخ الموسيقى العربية .

(١٤) Sir Ch. J. Lyall . رأس ديوان الهند في لندن وكان احد رؤساء تحرير مجلة الجمعية الملكية الآسيوية *JRAS* . كتب الكثير من الفصول الشرقية في دائرة المعارف البريطانية وعني بالشعر الجاهلي عناية خاصة .

(١٥) D. S. Margoliouth (١٨٥٨ – ١٩٤٠) . استاذ العربية في اكسفورد . من ائمة المستشرقين . انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق والمجمع اللغوي البريطاني والجمعية الشرقية الالمانية وغيرها .

(١٦) Louis Massignon . (١٨٨٣–١٩٦٢). من اساطين الاستشراق في فرنسا . وقف حياته على استنباط واستيعاب كل ما يمت الى التصوف الاسلامي بصلة حتى اصبح الحجة فيه . كان عضواً للمجمع اللغوي بمصر منذ انشائه سنة ١٩٣٢ والمجمع العلمي العربي في دمشق . – كتب الى الأب شيخو اربع عشرة رسالة ذات قيمة كبيرة نأمل ان ننشرها مجموعة على حدة عما قريب ان شاء الله .

وموريتس[1] وموزيل[2] وجيار[3].

اما الأدباء العرب فعددهم اقل من عدد المستشرقين ونحن نجتزئ منهم بالآتية اسماؤهم: انيس اسحق ابملة[4] ومحمود شكري الآلوسي[5] والأب انستاس ماري الكرملي[6] والأب قسطنطين الباشا[7] واحمد باشا تيمور[8] والشيخ امين الجبيل[9] وقسطاكي الحمصي[10] ويوسف اليان سركيس[11] والأب جرجس منش[12] والطران يوسف دريان[13].

هذا ما لزم الآن واننا قبل ان نفسح المجال للنصوص، نتقدم القرصة لنطلب الى كل من يستطيع ان يهدينا الى وسائل بخط الأب شيخو ان لا يضن علينا بالخدمة وله منا سالف الشكر جزيلاً.

---

(١) B. Moritz (١٨٥٩–١٩٣٩). مدير مكتبة المعهد الشرقي ببرلين ثم مدير دار الكتب العينية بالقاهرة. طاف الشرق والغرب العربيين بحثاً عن الجغرافيا التاريخية وكانت معظم مؤلفاته فيها.

(٢) A. Musil (١٨٦٨–١٩٤٤). كاهن تشيكي. درس مدة في معهد الآداب الشرقية ببيروت وتكررت رحلاته الى الشرق وكتب عن الجزيرة العربية وباديتها بحوثاً كثيرة.

(٣) Clément Huart (١٨٥٤ – ١٩٢٧). ترك مهام القنصلية ليتفرغ للعلوم فكان استاذاً للغات العربية والفارسية والتركية في باريس وعضواً لعدة مجامع علمية عالمية منها مجمع دمشق. آثاره عديدة بين مؤلف ومترجم ومنشور.

(٤) من علماء السريانية. ولد في ماردين مسقط رأس الأب شيخو سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٩٥٥ في بيروت. من مؤلفاته «حياة القديس افرام».

(٥) من اسرة بغدادية انجبت عدة علماء. توفي سنة ١٩٢٤. من مؤلفاته «شرح الأدب في معرفة أصول العرب».

(٦) (١٨٦٦–١٩٤٧). اديب لغوي من افاضل علماء العربية بحثاً. صاحب مجلة «لغة العرب». وجدانة بينه للاب شيخو ما يتيف على المئتي رسالة مشحونة بالنوادر الأدبية نأمل ان تنشرها في مجلة مشرقنا ان شاء الله.

(٧) كاهن سكتي من الرهبانية الخلصية (١٨٧٠–١٩٤٨). حبر الكثير من المقالات المختصة بالتاريخ، لا سيما تاريخ الكنيسة الشرقية.

(٨) (١٨٧١–١٩٣٠). ولد في القاهرة. صاحب الخزانة التيمورية الشهيرة بمخطوطاتها ومطبوعاتها.

(٩) (١٩٤١ †). من احدى العائلات اللبنانية العريقة. كان طبيباً واديباً وصاحب نضالات وطنية واجتماعية. الف عدة كتب لا سيما في علم النسمة، وحياة القديس منصور دي بول.

(١٠) (١٨٥٨–١٩٤١). ولد في حلب. تاجر واديب. عضو المجمع العلمي في دمشق.

(١١) (١٨٥٦–١٩٣٢) من مواليد دمشق. استوطن القاهرة في سنيه الاخيرة. اشتهر بنشره معجماً للمطبوعات العربية والمعربة فيه اسماء الكتب ومؤلفيها منذ نشأة الطباعة الى بعيد الحرب الكونية الأولى.

(١٢) كاهن حلبي. عضو المجمع العلمي العربي. توفي سنة ١٩٢٧.

(١٣) اسقف موارنة مصر. الف في تاريخ الطائفة المارونية. توفي عام ١٩٢٠

١ — من گُستاف را[1]

Toulon, le 29 *mars* 1889[2]

Monsieur le Rèvèrend Père Louis Cheikho

Beyrouth (Syrie)[3]

Veuillez excuser la liberté grande que je prends de vous écrire et de me mettre en relations avec vous par correspondance.

Je m'occupe depuis quelque temps de langue arabe; j'ai terminé dernièrement la traduction in extenso des 1001 nuits, d'après les éditions imprimées à Boulaq et à Calcutta[4]. En ce moment je travaille à une traduction du *Mostat'ref*[5], de Chihab-ed-din, dont j'ai presque terminé le premier volume, mais je dois avouer que certains passages de ce livre m'ont présenté des difficultés de traduction que je n'ai pu surmonter et dont le sens m'échappe totalement.

J'ai pensé, mon très cher Révérend Père, que vous pourriez m'assister de vos lumières et que, grâce à votre profonde connaissance de la langue arabe, il vous serait facile de m'éclairer sur les parties du texte que je n'ai pu comprendre ou dont le sens que je leur attribue me paraît douteux. Il y a principalement un chapitre intitulé:

---

(١) يعتب المستشرق كاتب هذه الرسالة الى الأب شيخو ان يده بد الساعدة في عمله ترجمة « مستطرف » شهاب الدين الأبشيهي من العربية الى الفرنسية بعد ان عدل عن هذا المكتب بعض المواضع . وكاتب الرسالة من تولون (Toulon) في جنوب فرنسا تعاطى الملاحة مدة وامسى فيما بعد امينا لشركة تجارة مدينته . كان عضواً في الجمعية الآسيوية الباريسية ، يحسن التركية الى جانب العربية (اقتبسنا هذه المعلومات من الرسالة نفسها بين المقدمة لترجمة « المستطرف » الذي سيأتي ذكره ادناه) .

(٢) كان شيخو وقتئذ في الثلاثين من عمره فقط وكان قد ذاع صيته منذ ان بدأ ينشر خمسة « مجاني الأدب » قبل ست سنين ، في ١٨٨٣ .

(٣) لم تكن بيروت في ذلك الوقت عاصمة لبنان كما لا يخفى على اللبيب . بل انها تحولت سنة ١٨٨٦ من متصرفية تابعة ايالة صيدا الى ولاية مستقلة يتمتع واليها بالاستقلال مباشرة في الأمور المدنية وبمشيرية الشام في الأمور العسكرية .

(٤) كتب « را » في كراس صدر له في تولون سنة ١٩٠٠ تحت عنوان *Examen critique succinct des diverses éditions du texte arabe des Mille et Une Nuits*, ص ٢١ : ان ترجمته لرواية « الف ليلة وليلة » ما زالت مخطوطة لانصراف طوال ما يقارب العشرين سنة الى ترجمة « المستطرف » .

(٥) هو « المستطرف في كل فن مستظرف » لشهاب الدين احمد الأبشيهي (١٣٨٨–١٤٤٦) . صدر الجزء الاول لترجمة سنة ١٨٩٩ ، اي بعد عشر سنين من كتابة هذه الرسالة ، في ٨٢٩ صفحة من حجم كبير القطع ، وعقبه الجزء الثاني سنة ١٩٠٢ في ٨٢٠ صفحة بعد ان نال جائزة من « الاكاديمية الفرنسية للكتابات والآداب الجميلة » .

page 43, du 1er volume (édition de Boulaq) qui renferme des proverbes dont le sens, en grande partie, m'échappe totalement. Ce sont sans doute des proverbes populaires.

Je vous envoie pour le moment ci-contre quelques passages dont je vous serai bien obligé de me donner l'explication dans le cas (où) vous voudrez bien entrer en correspondance avec moi, à ce sujet[1].

Veuillez agréer, mon très cher Révérend Père, avec mes remerciements anticipés et l'expression de ma profonde gratitude, l'assurance de mes sentiments les plus respectueux et les plus dévoués.

G. Rat

Mr. G. Rat
Capo au 1. cours
Membre de la Société Asiatique
2, Rue de la glacière
Toulon s/mer (Var).

٢ – من ا. ج. اليس[2]

British Museum
Department of Printed Books
6 *November* 1839

Dear Sir,

Some days ago I received from the Reverend Father Strassmaier[3] your letter of September 30.

I am exceedingly obliged to you for your kindness in sending me the information I was in want of with regard to Abdallah Zakher's book[4]. If I am not asking too much, might I trespass

(١) قبل شيخو مراسلة « رأى » وقد وجدنا فيها خلسة من اوراق عدة يسائل من هذا المستشرق يستزيده المرة بعد المرة معلومات وايضاحات. وقد اقر الكاتب في ذيل مقدمته للجزء الاول بفضل شيخو عليه اقراراً مقروناً بأحر عواطف الاعجاب.

(٢) كان هذا المستشرق يعد المدة لنشر فهرساً لكتب العربية الموجودة في « المتحف البريطاني » – وقد طبعه في لندن بين ١٨٩٤ و ١٩٠١ واتبعه بذيل سنة ١٩٢٦ – فكان بين الفينة والفينة يلجأ الى الأب شيخو يستوضحه ما غمض عليه ويغرف من معين علمه الفياض كما هو الحال في هذه الرسالة.

(٣) نظام يسوعي الماني. اشتهر بنشره نصوصاً بابلية قديمة.

(٤) عبدالله زاخر (١٦٨٤–١٧٤٨) هو الشماس المعروف بتأليفه المنظمة العربية في دير مار يوحنا السابق في الخنشارة (لبنان) ولا ندري اي كتاب من كتبه هو المعني هنا.

yet a little further upon your generosity? I have several books of the seventeenth century by Timoteo Agnellini, Archbishop of Mardin. He also calls himself by an Armenian name "Karnuk" (Գառնուկ) and by an Arabic "al-Humaili" (الخيلي), both equivalent in meaning to his Italian name Agnellini. He also uses a poetical nom-de-plume "Zafi" (ضفي).

Could you tell me as to which of the Oriental Churches he belongs to? He is, I presume, a member of one of the Uniat Oriental Churches[1].

Agnellini translated into Arabic a work entitled "Breve compendio della Perfettion Christiana".

Can you tell me who is the author of that work?[2].

I am exceedingly grateful for your reference to Professor Cardahi[3] with regard to the History of Thomas of Maraga[4]. I hope soon to avail myself of it.

Believe me, dear Sir,

Yours most sincerely

A. G. Ellis

---

(١) كان طيموثاوس هذا من الطائفة السريانية الكاثوليكية .

(٢) عنوان ترجمة الخيلي العربية «كتاب الاختصار الخصر في الكمال المسيحي» . قال البس في فهرسه *Catalogue of Arabic books in the British Museum*, الجزء الاول ، ص ١٣٤ ، ان مؤلف هذا الكتاب هو الأب التونسي رودريگوز (Rodriguez) اليسوعي . وقال في المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ ان هذا الكتاب عربه الخيلي عن طبعة مختصرة لمؤلف رودريگوز . وانما كتب ذلك استناداً الى رد شيخو على سؤاله كما تبين ذلك من رسالة بعث بها الى شيخو في ١٨ تشرين الثاني ١٨٨٩ جاء فيها : «شكراً جزيلاً لمعلومات التي تفضلت علي بها . لم اكن ادري ان *Breve Compendio* هو لمكتب المشهور رودريگوز» .

الا ان شيخو شط هنا شططاً فادحاً — واصل معه نبيله البير — وقد فاته ان هذا *Breve compendio* انما هو كتيب ذاع صيته في اوروبا في القرن السابع عشر حتى انه طبع اربع مرات قبل ان ينقله الخيلي الى العربية سنة ١٦٨٨ . اما واضع الكتيب فهو سيئة الذكر ايزابيلا كريستينا ليماتي بيزاگا وقد ساعدها في عملها الأب گاياردي (Gagliardi) اليسوعي . والعنوان الأصلي هو *Breve compendio intorno alla perfezione cristiana* . راجع *L'Abrégé de la perfection de la dame milanaise; Revue* في مقالته Marcel Viller *d'Ascétique et de Mystique*, 12 (1931), p. 30. حيث يذكر المؤلف ترجمة الخيلي) .

(٣) هو القس جبريل القرداحي الحلبي البناني (١٩٣١ ـ) ، مدرس العربية والسريانية بالمدرسة الاوريانية في روما وصاحب عدة مؤلفات عن اللغة السريانية وآدابها ، بينها «البيه» وهو معجم سرياني عربي طبع سنة ١٨٨٧ .

(٤) هو توما اسقف المرج الذي عاش في القرن التاسع . وتاريخه المذكور في الرسالة هو : «كتاب الرؤساء» حيث يتطرق الى الحديث عن تاريخ الرهبان القديسين الذين عاشوا في دير بيث عابي غير بعيد عن الموصل .

٣ – من مرتن هرتمن[1]

Schillerstr. 7.
Charlottenburg
20.3.98

Mon cher Monsieur,

En même temps avec ces lignes[2] je vous envoie le numéro 3 de la *Orientalistische Litteraturzeitung*[3] contenant un petit article de ma plume qui ne vous dira rien de nouveau, mais qui attirera votre attention sur le livre curieux de Monsieur Janseu[4]. Aussi voudrais-je que vous preniez note de la notice sur votre Machriq nº 4[5]. Je prendrai soin que votre journal figure régulièrement dans la *Zeitschriftenschau*. J'ai reçu dernièrement les premiers cinq numéros du Machriq après qu'on m'avait écrit que les conditions que j'avais sollicitées pour mon abonnement soient inacceptables. Maintenant je ne sais pas au juste à quoi m'en tenir. En tout cas je suis avec le plus grand intérêt votre publication intéressante[6].

Mon travail sur le résultat de mon séjour en Egypte s'avance plus lentement que je ne pensais[7]. Il y a toujours autant de petites affaires qui empêchent l'élaboration assidue.

Croyez, mon cher Monsieur, à mes sentiments sincères et à mon entier dévouement.

Martin HARTMANN

(١) مرتن هرتمن (Martin Hartmann) مستشرق المّاني (١٨٥١–١٩١٨) كان مستشاراً بسفارة المّانيا في بيروت ثم عين استاذاً للدراسات الاسلامية في برلين. قام برحلات عديدة الى البلاد الشرقية وصنف في كل وجهة مصنفاً نفيساً. اسس الجمعية الشرقية الالمانية للدراسات الاسلامية واصدر لها « مجلة عالم الاسلام » *Die Welt des Islams*. — موضوع الرسالة يدور حول بعض الآبار العلمية التي تمت بطلبة الى شيخو او الى مجلة المكتاب.

(٢) في هذه الرسالة وفي سواها ما كتب المستشرقون بلغات لا يجيدونها : اغلاط نحوية وعبارات خطأ في الانشاء لم نشر اليها لكثرتها غالب الاحيان ؛ وان نحن هلنا عليها نحيناً تتكل شواذاً يلفت النظر او يحتاج الى تصحيح ليفهم المراد.

(٣) مجلة علمية تبحث في العلوم الشرقية تأسست سنة ١٨٩٨ بمدارة ف. ا. بايزر (F. E. Peiser) في برلين.

(٤) هو الدكتور هوبرت يانسن، وكتابه بالالمانية تحت عنوان « انتشار الاسلام » مع الاشارة الى مختلف المذاهب والشيع والاحزبات في مختلف اقطار الأرض ... ».

(٥) هو العدد الرابع من السنة الأولى لمجلة « المشرق » (١٨٩٨) ؛ يشير « هرتمن » في نبذته المذكورة الى نشر شيخو لتاريخ بيروت لابن صالح.

(٦) لم يتفرد « هرتمن » في الثناء على « المشرق »، فسوف نرى في الرسائل الآتية تقاريظ بقلم مستشرقين آخرين (راجع رسائل رقم ٥ و٦ و ١١ و ٢٣).

(٧) لعله يشير هنا الى الكتاب الذي كان يعد عن الصحافة المصرية وقد صدر في السنة التالية بعنوان *The Arabic Press of Egypt*.

٤ — من كارلو الفونسو نلّينو[١]

Naples, le 21 *juillet* 98

Monsieur le Directeur du Machriq[٢],

Je viens de lire avec plaisir, dans le nº 13 du Machriq, le rapport intéressant du P. Jouon sur l'égyptologie en 1898. Seulement je trouve à mon regret que le nom si bien arabe de تلّ العمارنة est transformé, p. 578, toujours en تلّ امرنا, et que, p. ٥٨٠, إسنا devient إسنة, et بيان الملوك est changé en بيان الملوك.

Or je désire saisir cette occasion pour rappeler votre attention sur ce fait assez curieux, et on pourrait dire honteux, que dans les publications modernes arabes et turques les noms géographiques orientaux sont bien souvent défigurés jusqu'au point de ne pouvoir plus les reconnaitre. Je connais un bon et gros atlas turc, publié il y a peu de temps, où les noms de l'empire Ottoman sont parfois irréconnaissables; évidemment on a pris un atlas français, et on a *transcrit* le tout en caractères nashi sans se soucier de contrôler si la transcription était bonne ou fautive. Il est de même dans une grande carte arabe de la Syrie, imprimée précisément à Beyrût! Est-ce qu'on tolérerait en France, qu'on imprimât une carte avec Bariz pour Paris, Burdu pour Bourdeaux (٣), etc.?

Ainsi je prends une publication qui est adoptée[٤] comme livre de text[٥] dans les écoles égyptiennes: كتاب العرب لابتدائيم جامعيه ادورد قانديك وبطلميوس فيليبدس Bûlâq 1893. Dans les premières pages on a un petit abrégé de la géographie de l'Arabie; les auteurs ont puisé à diverses sources européennes, et n'ont nullement pensé

(١) يعد نلّينو (Carlo Alfonso Nallino) الايطالي سنة ١٨٧٢ والمتوفى سنة ١٩٣٨ من افضل العلماء باعاً في ميادين الاستشراق وقد رغب في معرفة كل شيء عنها وقال الكثير عنها ايضاً. كان عضواً في عدة مجامع وجمعيات دولية منها المجمع العلمي الايطالي؛ والمجمع العلمي العربي في دمشق والمجمع العلمي في القاهرة منذ تأسيسها؛ وقد اشرف على مجلة «الشرق الحديث» *(Oriente Moderno)* و «مجلة الدراسات الشرقية» *(Rivista degli Studi Orientali)*. بلغت نلّينو في رسالته نظر شيخو الى ما يقع في المؤلفات الشرقية من التصحيف للاسماء الجغرافية والتاريخية العربية ويعطي في ذلك امثلة عديدة ويبدي فكرة انشاء قاموس جغرافي للبلدان التي تستعمل الابجدية العربية. وقد نشر الأب شيخو قسماً من هذه الرسالة في الصفحة ٨١١ من «المشرق» (السنة الأولى: ١٨٩٨).

(٢) كان مدير «المشرق» وصاحب امتيازه منذ تأسيس المجلة الأب شيخو؛ وقد ظل في منصبه هذا حتى وفاته سنة ١٩٢٧.

(٣) هكذا في الأصل، (والصواب Bordeaux) ولعله سهو من قبل الكاتب، والاّ لنصح فيه ما جاء في الانجيل: «ايها الطبيب طبب نفسك»!

(٤) و (٥) هكذا في الأصل. ونظن ان الكاتب قد سها ايضاً.

à voir comment les Arabes mêmes écrivent leurs noms. A p. ٦ et ٧ je trouve les îles كوريان موريان au lieu de خوريان بوريان ; la ville de القريط sur le golfe Persique au lieu de الكويت ; الجبل العريض pour الجبل العريف (nom des dépressions à fer de cheval[1] dans les sables du Nefûd) pour نفوذ (avec la prononciation bédouine du ق).

Prenons les deux pages ١٣ et ١٤ ; nous y remarquons: لبنا pour طبانه — صعيدة pour اده — اكبر pour عكير — اخاكية pour حنكية — لبنة pour قنعة بنا — الرّمس pour راس — فلرما pour دراما — اغيمة pour جمع — تبانة pour شناص — صحار pour زهاد — برّكا pour برق — خج pour فيج — قنعة بيشة pour افنوف — البريمة pour برنا — القاهرة pour الظاهرة — le pays de شناص — la tribu des بنيل pour بكيل — la tribu des الجوابي pour الجواسم — افنّيوف etc., sans conter[2] la répétition de fautes signalées plus haut, les fautes d'impression (telles que خار pour غار), et la mauvaise orthographie[3] truque de l'île قران pour كمران.

Ne pourrait pas le *Machriq* prendre une initiative énergique pour faire cesser des abus pareils? Le moyen meilleur d'y réussir ce serait de publier un dictionnaire géographique des pays où on se sert de l'alphabet arabe, la Malesie[4] comprise, afin qu'on ne voit plus, p.ex., écrite مقسّار la ville que les Malais appellent et écrivent مكسّر (c'est-à-dire مسكسّر). Je me prends la liberté de vous envoyer un article que j'ai publié en 1894 dans le Bulletin de la Société Khédiviale de Géographie; il s'adresse aux Européens, mais dans les premières pages il contient des réflexions qui regardent aussi les Orientaux[5].

J'aurais encore beaucoup à dire sur la mauvaise habitude des Orientaux de transcrire les noms allemands, italiens, espagnols, etc., d'après la prononciation française; mais je ne veux pas abuser de votre temps et de votre patience.

Je vous prie M. le Directeur, de vouloir bien agréer mes vœux

---

(١) لا معنى لهذه العبارة بالفرنسية ، ونظن انه ما اراد قوله هو : *en fer à cheval*.

(٢) و (٣) و (٤) . هكذا في النص .

(٥) عنوان هذه المقالة *La transcription des noms géographiques arabes, persans et turcs.* وقد عاد ليشير الى مثل هذا الموضوع سنة ١٩٠٧ فكتب مقالاً صدر في القاهرة بعنوان *Les noms géographiques du monde musulman dans des publications arabes modernes*

sincères pour le Machriq et l'expression de ma considération la plus distinguée.

Votre dévoué
Carlo Alfonso NALLINO
Prof. dans le R. Istituto Orientale
Naples (Italie)

٥ – من أدريان بربيه دي ميناره

SOCIÉTÉ ASIATIQUE
DE PARIS
Fondée en 1822

Siège de la Société & Bibliothèque
1, Rue de Seine
(Palais de l'Institut)

Paris, le 22 *juin* 1899

Très honoré P. Cheikho,

Je n'ai pas manqué de mettre votre lettre sous les yeux du Conseil d'administration en la recommandant tout particulièrement. C'est avec une sincère satisfaction que je vous annonce que l'échange entre le Journal Asiatique et votre Revue estimable المشرق vient d'être autorisé. Vous recevrez en conséquence les numéros parus depuis le commencement de la présente année, et la suite vous sera exactement expédiée par les soins de la maison Leroux, éditeur de notre recueil. Nous nous plaisons de notre côté à espérer que rien ne viendra interrompre le cours des travaux et des publications par lesquels l'Université catholique[٢] de Beyrout[٣] a pris une place distinguée dans la marche des études Orientales. Une part considérable dans cette savante collaboration vous appartient et j'espère que malgré les critiques d'une certaine école trop portée à en contester la valeur, vous continuerez à mettre à la disposition de nos travailleurs, dans les conditions d'exactitude

(١) ادريان بربيه دي ميناره Adrien Barbier de Meynard – (١٨٢٧–١٩٠٨). كان استاذاً في معهد فرنسا (Collège de France) ومديراً لمجلة الاسيوية (*Journal Asiatique*) وكان يجيد الى جانب العربية الفارسية والتركية وله ابحاث جميلة. – اهم ما في رسالة هذه اعلامه شيخو بان الجمعية الاسيوية قبلت ان تتبادل مجلتها «المشرق» بمجلتها «المجلة الاسيوية» ؛ ثم تقريظه لآثار الجامعة اليسوعية اليروتية عامة وشيخو خاصة. والله ليشير في معرض تقريظه هذا الى ما يأخذه نفر من المستشرقين على شيخو طلقه بعض الشطط فيما ينشره من مؤلفات.

(٢) هي جامعة القديس يوسف اليسوعية.

(٣) هكذا في الأصل.

et de prix très appréciables, une série de documents littéraires et pédagogiques destinés à rendre de réels services. Ce but honorable sera atteint surtout si vous nous donnez des textes publiés dans « leur complète intégrité ». Je n'ignore pas les honorables scrupules[1] qui vous obligent quelquefois à leur faire subir des retranchements; mais c'est là surtout qu'il faut chercher la cause de l'indifférence ou de la critique sévère de quelques uns de nos confrères de l'étranger et c'est sur ce point que je me permets, en collaborateur sincère et dévoué, d'appeler votre attention.

Je serais heureux de recevoir de vos nouvelles et d'apprendre par vous-même quels sont les travaux que vous avez sur le métier. J'ai communiqué à mon savant ami Rubens Duval[2] la notice et le fragment que vous venez de publier d'Abi-l Faradj Bar Hebraeus[3] : il en a été très satisfait et regrette de ne pas en avoir eu connaissance assez à temps pour l'utiliser dans l'histoire de la littérature Syriaque[4] dont il vient d'enrichir le monde savant.

En attendant quelques lignes de votre main, je vous renouvelle, honoré et Cher Confrère, l'assurance de mes sentiments dévoués.

A. Barbier de Meynard

P.S. Seriez-vous assez bon pour me faire savoir si le P. Salhani a mis la dernière main au dernier fascicule du Diwan d'Al-Akhtal où doivent se trouver les notes et indices: je ne possède jusqu'ici que les quatre livraisons du texte[5].

---

(١) كان شيخ وسائر اليسوعيين المطهاء : كتاب صاحبنا في ضبطه لأنه نبذ ونبذ . يشرعون من ادوار الكلمات او المتصلة الخاصة بالآداب في النصوص التي ينشرونها .

(٢) هو العلامة الأب روبنس دوفال (١٨٣٩–١٩١١) . استاذ السريانية في معهد فرنسا . من مؤلفاته « تاريخ مدينة الرها » وقد نشر قسمين بهذا السجل الفخم .

(٣) مقالة مستفيضة عن ابن العبري صدرت تباعاً في « المشرق » سنة ١٨٩٨

(٤) « تاريخ الآداب السريانية » هذا سنة ١٨٩٩ في باريس .

(٥) شرع الأب انطوان صالحاني اليسوعي (١٨٤٧–١٩٤١) باصدار ديوان الأخطل في اربعة اجزاء متتالية سنة ١٨٩١ ؛ ولكنه لم ينته من وضع الفهارس الا بعد اكثر من ثلاثين سنة ؛ فقد أردف الأجزاء الأربعة سنة ١٩٠٩ بمجلد ثان في مطلعه انه « يختوي زيادة ايضاح في الشرح وتصحيح اغلاط ومشابلات وفهارس للاعلام والأنطاق الغوية » . الا ان الفهارس لم تخرج فعلاً الا في ذيل تبع المجلد سنة ١٩٢٥ .

٦ — من كارلو الفونسو نلّينو[1]

Naples, le 13 *sept.* 1900

Rev. P. Louis Cheikho,

N[r] ne saurais pas vous remercier assez des bonnes paroles que vous avez eu pour moi dans le Machriq à plusieurs reprises[2]; mais surtout je désire vous remercier de votre observation à propos de باسم كاهن . J'ignorais cet usage, et aussi j'ai commis l'erreur de prendre باسم pour un nom propre[3]. Je vois maintenant que ce personnage est le même Joseph le peintre qui en 1648 traduisit l'histoire des empereurs byzantins de Mathieu Tzigala; version dont le Musée Asiatique de St Pétersbourg possède un exemplaire (Catal. de M. Rosen, nº 190, p. 135-141).

Si dans l'avenir vous trouverez des erreurs dans mes publications je vous prie vivement de ne les taire pas; je désire seulement d'apprendre, et vous êtes bien à même de nous enseigner un tas de choses du plus grand intérêt.

Je suive[4] avec le plus grand plaisir le progrès continuel de

---

(١) راجع في هذا المستشرق ما جاء في الحاشية الأولى من الرسالة ٤ و يشكر نلّينو للأب شيخو ملاحظة ابداها له في شأن غلط صدر منه ويطلب اليه ان لا يبخل عليه بانتقاداته كل ما سنحت له الفرصة لأنه من اساطين العلم يعوّل على آرائهم .

(٢) كذا في الأصل ، والظاهر ان نلّينو خلط هذا الخرق وعاد عن فكرة اول وردته فيها من كتابة ضمير المتكلم Je .

(٣) راجع مثلاً « المشرق » ١ (١٨٩٨) : ص ٨١١ .

(٤) ليس بين يديّ ما يمكنني من معرفة ما قاله شيخو لنلّينو بالتمام . ولكنني استطيع ان اتبين نحواً والمناسبة التي كانت داعياً له اذا ما رجعنا الى اثر للمستشرق ظهر في السنة التي أرخ بها رسالته وهو *I Manoscritti Arabi, Persiani, Siriaci et Turchi della Biblioteca Nazionale e della R. Academia delle scienze di Torino* : ففي الصفحة ١٠ من هذا الكتاب تمرّبت غلطة « نقله من الرومي الى العربي العبد الخاطئ يوسف المصور باسم كاهن » وقد جاء في الصفحة نفسها جملة مشابهة « نقله من الرومي ... العبد الخاطئ ... يوسف باسم قسيس المصور » . فترجم نلّينو عبارة « يوسف باسم كاهن المصور » بقوله « Giuseppe Bāsim sacerdote, pittore» : جاعلاً من « باسم » علماً ، فيا ترى قراءة هذه الكلمة على النحو الآتي : « وباسم » فتكسر الباء وتسكن السين . والمراد من قبل الكاتب هو الاخبار بسكت فيقول بأنه كاهن ولكن كن ليس هو كذلك . كاهن بالاسم لا بالفعل ، وذلك تقلّلاً منه وتواضعاً .

ويوسف الكاهن المصور هذا عاش في اوائل القرن السابع عشر وقرنه البطريرك الانطاكي الارثوذكسي مكاريوس ، فيما نرى من اخباره : ليتقل الى العربية تاريخ الملك الروم من تأليف القبرصي متى جيناللا فحرره تحت عنوان « الدر المنظوم في اخبار ملوك الروم » .

(٥) هكذا في الأصل .

votre *Machriq*, qui est désormais un des centres les plus puissants de culture dans l'Orient arabe.

En vous remerciant encore une fois, je vous prie, Rév. Père, d'agréer l'expression de mes sentiments les plus dévoués.

Votre dévoué
Carlo A. Nallino

٧ – من انطوان جرمانوس معقد[1]

جرمانوس معقد
مطران اللاذقية
جونية (لبنان) بطريق بيروت

حضرة الأب الجليل مشير المشرق المحترم

تلوت كتابكم العزيز رقم ١٢ الجاري الذي تذكرون به انكم اخذتم الى القتال ... بعض ملاحظات لاهوتية فأخذت انتظر وصول المشرق لازاها فلما وصل وطالعتها شعرت باستياء عظيم بدئ اكتئيتم بالاولى وحدها لكان الامر اهون[2].

(١) كان انطوان معقد (١٨٥٣–١٩١٢) بطريركاً ملكياً كاثوليكياً (بعد مفيوس بجهية البطريركين البولسيين) قد نزل عند رغبة الأب شيخو ونشر في «المشرق» (عدد ١ كانون الثاني ١٩٠٠، ص ٦٨–٦٩) فصلاً من كتاب له مخطوط عنوانه «رحلة التلميذ الروحي الباحث عن المسيح». وقد صدر له فصل ثان في عدد ١٥ تشرين الأول من السنة نفسها مرفقاً بتوضيح جواب بقلم الأب شيخو عن نية مشيرة المجلة عن نفس الاستئناف وموضوعه حول شرح اسرار طفولية المسيح وصباه.

يتسبب عن الحكم المنصف ان لا يغفل شيخو عن ما فعل؛ فاذا ما رجعنا الى مقالة المطران، وجدنا انه لا داعي لسنة حواشي شيخو. فهي إما لا تأتي بجديد او، اذا زادت عن ما في الأصل، فمن غير ضرورة، اذ النص ليس بحاجة الى ايضاح. ولا ترى ما الذي دفع شيخو الى التشهير عن السعة وتسلم القلم للاندفاع في التعليق، وقد ساء ذلك في عيني الخبر العالم لا سيما ان شيخو لم يستأذنه في ذلك كما هو مبين في الرسالة، بل ونسب اتمام الأمر الواقع! ويجب ان مثل هذا التعليق، وان لم يكن متناقضاً مما في الاصل، فهو قد يحط من قيمة النص المعلق عليه بما يزيده او يدعي انه يزيده عليه.

(٢) كان سبب الملاحظة الأولى قول المطران عن المسيح انه «لم يكن مضطراً الى النوم مثلنا بل كان النعاس يأتيه برضاه» (ص ٩٣٢). وهذا عين الصواب في ايجازه فرأى شيخو ان يبين ان نقائص طبيعتنا البشرية التي شعر بها المسيح من تنشه طبيعته هي على انواع: «اما النقائص الشخصية التي تطرأ على افراد الجنس البشري كالامراض وغيرها فلم يقبلها ابن الله في طبيعته البشرية وكذلك النقائص النسوية التي هي ثمرة الخطيئة كالشهوة والجهل لان ذلك لا يليق بطبيعة متحدة جوهرياً بالكلمة ابن الله. وزد على ما تقدم ان النقائص الجنسية نفسها لم تحل بالمسيح اضطراراً كما تصيب بقية البشر بل اتخذها طوعاً كطبيب شفوق ليشفي فينا عوائبها السيئة. وكان بوسع السيد المسيح ان يكف عنه مفاعيلها بقدرته السامية او يدبرها فيه كيف يشاء

فما الداعي الى هذه الملاحظات . اني لم اذكر شيئاً ضد الايمان او الآداب وان افترضنا اني ذكرت شيئاً من ذلك فكان الواجب ان تنبهوني اليه لأصلحه بنفسي او ان تمتنعوا عن نشر الفصل وتردوه اليّ .

فهل كانت نيتكم عندما طلبتم مني فصلاً من كتابي ان تتخذوا نشره ذريعةً لبيان قصوري واسقاط منزلة كتابي قبل ظهوره . كلا . ولكن من كانت نيته كذلك لا يفعل اكثر مما فعلتم ... فالذي يرى انكم علقتم اربع ملاحظات على فصل واحد منه فلا محالة انه يظن ان الكتاب مشحون بالاغلاط فلا يعود له عنده اعتبار .

قلت لو كانت ملاحظاتكم على امور ضد الايمان او الآداب لما كان لكم عذر فيما فعلتم بل كان يجب ان تردوا الفصل اليّ بدون ان تنشروه عملاً بمقتضى المحبة المسيحية واحسان معاملة القريب بالنصيحة السرية لا بكشف اغلاطه لعالم القرّاء ولا ان تتخذوه مدرجة لاظهار نقص علم غيركم في مجلة ليس كل من يقرأها خبيراً بهذا الموضوع ليميز الخطأ من الصواب .

فاذا يقال اذاً عن عملكم هذا اذا عُرف ان ملاحظاتكم في غير محلها بل الثلاثة الأخيرة منها غير جديرة بالقبول ولا قريبة الى الصواب اكثر مما في المتن . وليس من قصدي الآن تفنيد تلك الملاحظات لآتيكم بالأدلة على صدق قولي . فالمراد انها لم تكن ضرورية ولم ينقض عليكم بوضعها الانتصار للايمان او الحق ولذلك كان لكم مندوحة عن ذكرها .

وعلى الجملة لا عذر لكم سواء كانت تلك الملاحظات صحيحة او غير صحيحة وسواء كان ما ذكرتُه مضاداً للايمان والحق والآداب او لم يكن

وكانت مع ذلك طيبته الابية منزهة عن هذه الشوائب الطبيعية لم ينلها شيء من نفسها واذاعه » . كل هذا تسبيح لفكرة المظفر المقتضبة وتصريح لما لم يكن من الضروري ان ينوه به .

اما الملاحظة الثانية فتتعلق بالأولى وهي تتميم « على جرح المسيح » . لما قيل في نيته بالملاحظة الأولى . ويرى المظفر انه لم يكن ثمة من ضرورة بعد ما جاء في الملاحظة الثالثة .

التعليق الثالث كان على سبب انفصال مريم المجدلية ويعقوبا بيعث فقيب التي يسوع عنها منه رجيماً جيماً من الخبر . قال المظفر انه لم يخالج مريم ويعقوب ريباً في ان يسوع «تفقدها سائراً مع المرفقة من الأهل او المعارف او مع النساء اللواتي يسرن سراعاً الى الأمام » (ص ٩٣٣) ؛ فيما قال شيخو ان كلاً من يعقوب وخطيبته كان يظن ان يسوع كان يسير مع الآخرة وهذا الموقف لا يناقض ذاك .

اما التعليق الرابع فمن امر حميل يسوع على الموت اثناء ابتعاده عن اهله وهو عائد من اورشليم بعد الحج . قال معتقد انه « لا غرو ان الذين كانوا يسمونه مخلصين من فهمه واجوبته كانوا يتسابقون الى دعوته للاكل معهم » (ص ٩٣٤) ؛ فاراد شيخو ان يزيد في الحاشية « ولعل الرب كان يقتات مدة هذه الايام الثلاثة بمدخرات اهلنين او بما كان يرزقه سدنة الهيكل على اهل الحاجات » ولم يزد بهذا التعليق شيئاً الى تسليم الموضوع .

كذلك لان الكتاب لم يُطبع بعد . ولو كنت اهديت اليكم الكتاب مطبوعاً ورأيتم فيه شططاً فنبهتم اليه لكان لكم بعض العذر ولكن انتم تعلمون ان الكتاب لم ينته تأليفه بعد وقد سألتموني ان ارسل لكم فصلاً او فصلين منه فاسرعت بارسالها طلباً لرضاتكم قبل ان اعيد النظر على الكتاب بأسره وقد قلتم ان نشرهما في المشرق يجعل للكتاب شهرة . اهذه هي الشهرة التي أردتم تخويلها لكتابي اي ان تبينوا انه مشحون بالمآخذ تبييناً فسيناً هو كالتصريح .

وربما تعترضون بضرورة الحاشية الأولى فاقول انها لو كانت كذلك لكان يجب ان اقول انا اصلاح كتابي وكان حينئذ الأولى بكم ان تمتنعوا عن نشر الفصل . ولكن ليس هنالك من ضرورة فان رأي اللاهوتيين المرجح الذي ذكرتموه قد صرحت به في المتن بقولي « واذ انه كان يشعر كسائر الاطفال بالبرد والحر والجوع والتعب ... » وقولي الآخر « لأنه شاء ان يشاركنا في خاصياتنا العمومية » وما تكريري بعد ذلك لفظتي « برضاه واختياره » ليدل على خلاف ذلك الرأي المرجح بل هو مستند اليه .

أهذا ما كان يؤمل من انطلاقكم يا حضرة الأب الجليل ان تسقطوا منزلة كتابي قبل ظهوره بدون سبب موجب ولا داعٍ مقبول وانا قد كابدت في تأليفه عرق القربة .

ولو لم يكن اليسوعيون من المشهورين في العلم ما لم لكنت ظننت انكم تعتمدتم بذلك ان تظهروا للقراء حسن ضميركم فضلاً عن انه ليس بمخطئة مثلي شهرة او كبير شرف لأني لست من مشاهير اهل العلم والذي اعرفه قليل ولكن ليس فيه والحمد لله زيف .

كتبت هذا وانا عالم بانكم لا تردون الثالث ولا ترضون بمخطئة عملكم بهذا كانت غايتي من هذه الرسالة اشعاركم بانني حسست بالضربة الثقيلة التي اتتني منكم عن تعمد ومشورة قرّ عليها رأي جمعية الجلة . ولو كنت ممن يحبون النزاع لكتبت مقالة في احدى الجرائد بينت فيها ما في عملكم هذا من الفجاجة واثبت بالدليل بعد الآراء التي اتيتم بها عن التسواب وان احدها بالخصوص يكاد يكون ضد عبارة الانجيلي[1] ولكني لا افعل لأني

(١) معقد يبالغ فيها يخص الملاحظة الثانية : فذا هو أثر بسواب الأول وجب عليه ان يعترف بصواب الثانية . — اما في أمر الثالثة والرابعة فهو حق ؛ وقد جاء في الانجيل لوقا عن عودة يسوع من اورشليم (لوقا ٢ : ٤٣ : ٤٥) : « واذ كانا يظنان — اي يوسف ومريم — انه — اي يسوع — مع الرفقة ... » ؛ فما يزيد قول معقد ان يسوع « تقدمها سائراً مع الرفقة » ؛ فيا قول شيخر « ويكاد يكون ضد عبارة الانجيلي » اذ يشدد على افتراق يوسف ومريم أيام السفر وعلى ظن كل منهما ان الصبي مع الآخر ؛ بينما يفيد لوقا انهما كانا يظنانه ما ينبئ انهما كانا يسيران معاً ؛ والله اعلم .

اكرم التلاج واحب السلام والوئام.

وفي الختام اقول اهذا ما ينتظر منكم من هو محب لرهبانيتكم المباركة وشخصكم الجليل فكيف لو كان على غير ذلك. ارجو ان تقرأوا رسالتي هذه بتأنٍ ونظرًا غيرتكم للحق ارى انكم لا تروني اتيت بها بغير الحق والرب يحفظكم آمين.

حريصا ـ ٢٩ ت١ ؛ ١٩٠٠

الحقير
جرمانوس معتقه

٨ ـ من هـ. زوتنبرگ[1]

Paris, 23, Rue Le Verrier — Le 12 novembre 1900

Mon cher Père,

J'ai fait partir, il y a quelques jours, à votre adresse le volume de la chronique d'Al-Tha'âlibi qui vient de paraître. Il vous est offert, sur ma proposition, par l'Administration de l'Imprimerie Nationale. Si on l'avait envoyé par la voie officielle, il y aurait eu des formalités et des lenteurs qu'il valait mieux éviter.

L'impression de ce texte a été retardée par toute sorte d'obstacles; elle a été achevée cependant en temps voulu pour que le volume (sans la préface) pût figurer à l'Exposition[2] comme spécimen de la typographie arabe; car telle était sa destinée. J'ai fait mon possible pour donner un texte correct et j'espère que vous n'y trouverez pas trop de fautes. Insuffisamment préparé en commençant, je me suis courageusement mis à lire beaucoup et à combler les lacunes de mon savoir. Je pense aussi que vous serez convaincu par la discussion et les conclusions présentées dans la préface touchant l'auteur, etc.

Certes, plus d'une fois, pendant ce travail, j'aurais désiré avoir recours à vos lumières, vous consulter sur quelque passage difficile ou vous envoyer une épreuve. Mais je n'ai pas osé, sachant que vous êtes fort occupé de vos propres travaux, absorbé par vos fonctions, et que votre temps est précieux. Au surplus, ma vie durant

(١) كان H. Zotenberg (١٨٣٢–١٩١٤) مدير المخطوطات في مكتبة باريس الوطنية. نشر وترجم عدة مؤلفات قديمة منها النص الأصلي لمكتبة «علاء الدين والقنديل المسحور». في رسالته هذه يتبين أنه ارسل اليه كتاب «اخبار ملوك فارس» لأبي منصور الثعالبي (٩٦١–١٠٣٧) بعد ان أتم تحقيقه وترجمته وينهزها سانحة ليثبت رصيفه الراهب احد مواطني العراق منوهاً بأخلاقه العالية وسعة معارفه.

(٢) معرض باريس العالمي القام في العاصمة الفرنسية سنة ١٩٠٠

ces dernières années a été très tourmentée et ma longue et grave maladie, dont je commence seulement à me remettre, m'avait ôté toute volonté.

Vous avez peut-être appris que j'ai quitté, il y a longtemps déjà, la Bibliothèque Nationale et que je m'étais retiré à la campagne. Mon séjour actuel à Paris n'est que temporaire; je compte, avant la fin de l'année, aller m'établir à demeure dans le Midi de la France.

Votre souvenir, mon cher Père, est toujours présent à mon esprit. Il m'a souvent consolé dans mes tristesses. Votre haute et lucide intelligence, le charme de votre conversation, toutes vos éminentes qualités m'avaient inspiré une si ardente sympathie pour votre personne, que j'oubliais volontiers ce qui nous séparait. La vie serait vraiment trop belle, la terre ne serait plus la vallée des larmes, si les hommes de votre modèle étaient plus nombreux. Mais pourquoi vous dire tout cela? Ne vous l'ai-je pas déjà dit et répété et n'aviez-vous pas observé vous-même mon admiration, quand vous étiez ici?

Adieu, mon cher Père. Peut-être me sera-t-il donné de vous revoir un jour. Ce serait un jour heureux.

Votre affectueusement dévoué
H. Zotenberg

٩ – من الأب البير كوندامان[1]

JHS
22, Rue des Fleurs, 22 *Toulouse, le* 27 *mars* 1901

R.P. Louis Cheikho,
Arabisant, Ecrivain, éditeur, bibliothécaire, confesseur, professeur...[2]

Mon Révérend et bien cher Père, P.X.[3]

Qu'apprends-je? Qu'entends-je? Confessez votre crime! Lequel? vous confessez! oui! autrement dit, vous entendez des con-

(١) كان الأب البير كوندامان Albert Condamin (١٨٦٢ – ١٩٤٠) احد اعضاء الرهبانية اليسوعية وكان بتاريخ كتابه هذه الرسالة استاذ اللغات السامية والكتاب المقدس في المعهد الكاثوليكي بمدينة تولوز في فرنسا. تدور رسالته حول فكرة واحدة: تدريب شيخو بكثير من اللطف والمحبة لتحمله اشغالاً كثيرة تثقل كاهله وتشر بصحته، لا سيما الاشغال الرسمية كمسؤاع الاشراقات وهي تأكل من الوقت المفروض عليه ان يكرسه لما هو أكثر اهمية له من غيره، وهو البحث والتأليف.

(٢) لدى النظر في مجلات الرهبانية اليسوعية من سنة ١٩٠١ نجد ان مهمات شيخو الرسمية كانت كالآتي: مدير مجلة «المشرق»؛ مدير المدارس العربية في المدرسة الشرقية التابعة لجامعة القديس يوسف في بيروت؛ مدير الفعل الأدبي في المدرسة عينها؛ مدير خزانة الكتب

(٣) اختزال لـ Pax Christi اي «سلام المسيح».

fessions! Mais il y a 10, 12 confesseurs, et peut-être plus, à l'Université[1]; et il n'y a qu'1 Père Louis Cheikho! Quand on est Arabisant dans les proportions où vous l'êtes (la majuscule ne suffit pas), on doit se contenter d'*arabiser*, c'est un *devoir*; oui, ad M.D.Gl.[2], il le faut. Mais que dis-je? vous ne vous contentez pas de confesser! vous faites la classe! oh! on souffre donc en ce moment d'une lamentable pénurie de professeurs, pour qu'on soit obligé de vous arracher à vos précieux travaux pour combler quelque déficit. Evidemment on a eu d'excellentes raisons. Dieu me garde de blâmer, de critiquer, ni vous ni qui que ce soit! Mais ça me fait l'effet de creuser un gros trou dans la cour pour boucher un petit trou dans le jardin. J'aurais plutôt congédié les élèves, ou payé à prix d'or un professeur... — Mais s'il ne s'en trouve pas à Beyrouth? — Eh! bien, je l'aurais cherché à Damas, à Tripoli, au fond de l'Égypte, que sais-je?

Éditions savantes, compositions et traductions (!) dans la *Revue*, dans une revue *bi-mensuelle*!, soins d'une Bibliothèque de manuscrits et livres spéciaux, — confessions, classe, prédications peut-être, — c'est trop, c'est trop, *c'est trop*! Vos muscles ne sont pas de fer, vos nerfs ne sont garantis par aucune compagnie d'assurances; votre cristallin n'est pas en diamant, et vous n'avez pas une rétine de rechange. Ménagez donc vos yeux, votre peau, votre poitrine, vos nerfs, votre substance toute entière, pour pouvoir tenir aux Socin[3], aux Nöldeke[4] et à tous ces Messieurs qui donnent à de pareilles études un temps copieux, sans même prélever le temps de se confesser, hélas! —

Je m'arrête; car je me reprocherais de dérober quelques parcelles de votre temps écourté.

Je me recommande à vos saintes prières.

En union de SS Sacrifices.

Tout à vous, très affectueux et reconnaissant en N.S.

Albert Condamin

اشرقية ، مؤلف ، مراجع لكتب التي تعد للطبع ، سؤول عن المراسلة باللغة العربية على المائدة . فلا ذكر اذاً لانه يعلم او يعرف ، ولكن من له معرفة بمدارس اليسوعيين يعلم ان المدرس فيها غالباً ما يضطر الى انشاء الدروس لاسباب قاهرة او تدريب المعلمين . كذلك فاننا نجد في غير مجلات سنة ١٩٠١ ان شيخو كان من الذين وقفتهم اسباع الاعترافات في كنيسة المير !

(١) اي جامعة القديس يوسف .

(٢) هي الأحرف الأولى من شعار اليسوعيين Ad Majorem Dei Gloriam وتعريبها المألوف : لمجد الله الأعظم .

(٣) ألبرت سيين مستشرق ألماني توفي سنة ١٨٩٩ . خلق ديوان عنترة الفحل وتخصص في جغرافية فلسطين وكان من مؤسسي الجمعية الالمانية الفلسطينية .

(٤) راجع عن هذا المستشرق الطائفة الأولى من الرسالة رقم ١٥ .

١٠ — من يوسف هل[1]

Wilsbiburg, 15/IX 1901.

Mon Révérend Père,

Je viens de recevoir une lettre de mon ami, le Dr Otto Weber[2], orientaliste et disciple du professeur Hommel[3]: Dr Weber désire avoir le plus tôt possible un exemplaire du « Lisân al 'arab »[4] et il me prie de m'adresser à mon ancien maitre à Beyrouth, pour lui demander pour combien on pourrait obtenir un exemplaire et s'il faut envoyer l'argent avant l'arrivé[5] des livres ou non. Il est bien prêt de l'envoyer aussitôt qu'il connait le prix précis. Quant à moi, je désire depuis longtemps pouvoir acheter le « Lisân al 'arab », mais il ne me reste jamais assez d'argent. Vous savez, mon révérend père et maitre, que je suis un pauvre idéaliste, qui a dédié sa vie à une science enchanteuse mais peu profitable. Je ne m'en repens jamais, seulement quand ma pauvreté m'empêche même à acheter les livres nécessaires, alors je commence à être un peu découragé.

Après 6-8 semaines j'espère pouvoir expédirer le « Nachtrag zum Divan des Farazdak, II Hälfte » (c. 1200 vers)[6].

Les semaines prochaines je vais aussi achever le « Specialwörterbuch zum Divan d. Farazdak » pour mon propre usage. Ce dictionnaire se composera d'environs[7] 6.000 feuilles, sur chaque feuille un vers, dont un seul mot est surligné. De cette manière je connais tout de suite le contexte des mots cherchés. Armé de ce dictionnaire je crois pouvoir oser la traduction du Farazdak.

---

(١) هو المستشرق الالماني Josepa Hell (١٨٧٥–١٩٥٠) تلميذ الأب شيخو في بيروت . عين استاذاً للغات الشرقية في جامعة Erlangen الالمانية . عني بالشعر العربي عناية خاصة فنشر منه دواوين عديدة . – اما ما ذكره لكاتبة رسالته هذه الى شيخو فهو رغبته في ان يطلب اليه خدمة لتصوير له مستشرق . ثم ينتظر الفرصة ليعطي استاذه الشيخ بعض الأخبار عن نشاطه العلمي .

(٢) كتب هذا المستشرق في فنون وتاريخ وآداب الاشوريين والبابليين والحثيين والعرب لا سيما في جنوب الجزيرة .

(٣) هو المستشرق فرتز هومل (١٨٥٦–١٩٣٦) . استاذ اللغات السامية في جامعة München . من مؤلفاته كتاب في قواعد اللغة العربية الجنوبية .

(٤) وهو قاموس ابن منظور الشهير .

(٥) هكذا في الأصل .

(٦) كان هل قد نشر سنة ١٩٠٠ من ديوان الفرزدق عن مخطوط آيا صوفيا ما لم ينشره بوشيه Boucher بين ١٨٧٠ و١٨٧٥ . فزاد في اواخر سنة ١٩٠١ ملحقاً على الجزء الثاني هو المعني هنا .

(٧) هكذا في الأصل .

Vers la fin du mois d'Octobre je vais à Berlin pour y passer 6 mois. Je voudrais entendre Sachau (arabisant) [1] et Delitzsch (Assyriologue) [2]. Après ce temps je tâcherai de me faire Privatdozent à l'Université de Munich.

Vous voyez, mon Père, que votre ancien disciple n'a pas encore abandonner [3] son ancien idéal. Je n'aime pas proclamer ce que je pense faire, j'aime mieux référer ce que j'ai fait. C'est pourquoi vous avez si peu de mes lettres. Je ne saurais que vous dire toujours. Je suis content, si je peux rendre un petit service à la science chaque an et je suis sûre [4] que vous préférez ces signes de ma reconnaissance [5] à beaucoup de lettres et de paroles. Ayez donc la bonté, mon père, de penser un peu au « Lisân al 'arab », et adressez, s'il vous plait, la réponse à votre ancien disciple

tout dévoué

Dr J. Hell

München, Nordenstrasse 6a II.

١١ — من أدريان بريسيه دي ميناره

École Spéciale
des
Langues Orientales vivantes 19 *février* 1903.

Honoré R.P. Cheikho

Je suis un peu en retard pour vous remercier du précieux témoignage de confraternité littéraire que vous avez bien voulu me donner par l'envoi d'un exemplaire de l'*Histoire de Beyrouth* [6]. Je tenais à la lire avec toute l'attention qu'elle mérite et je ne puis disposer que d'un temps très limité pour mes lectures particulières. Je puis maintenant vous adresser mes remerciements en connais-

(١) إدوارد ڤاخاو (١٨٤٥–١٩٣٠). من ذوي المرتبة الأولى بين المستشرقين. أسس معهد اللغات الشرقية في برلين سنة ١٨٨٨.

(٢) فريدريش ديليتش (١٨٥٠–١٩٢٢). اشتهر بمؤلفاته الكثيرة عن الآثار الاشورية والبابلية، وشرح الالفاظ السامية الآرية والعبرية.

(٣) و(٤) و(٥) هكذا في الأصل.

(٦) راجع في هذا المستشرق الخاتمة الأولى من الرسالة ٥. أما موضوع الرسالة ١١ التي نحن بصددها الآن، فهو شكر شيخو على ارساله احد كتبه، وتهنئته بما يسديه من خدم في دنيا العلوم العربية، وافادته بأنه سيتلقى عن قريب كتب قيمة مما يشرف على اصداره صاحب الرسالة.

(٧) «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى. كان الأب شيخو قد نشره تباعاً في «المشرق» سنة ١٨٩٨ و ١٨٩٩ فطبعه على حدة سنة ١٩٠٢. وقد اعيد طبعه منقحاً سنة ١٩٢٨ ثم سنة ١٩٦٩ منقحاً ومزيداً عليه باشراف الأب فرنسيس أور اليسوعي والدكتور كمال سليبي.

sance de cause et vous féliciter d'avoir tiré de l'oubli et publié avec tous les éclaircissements nécessaires le vieux document qui dormait dans les arcanes des Mss. de notre Bibliothèque nationale et qui probablement n'aurait jamais figuré in extenso dans la collection des Historiens arabes des Croisades.

C'est donc un service réel que vous avez rendu aux études historiques et littéraires du monde arabe en même temps que vous avez rehaussé par l'insertion graduelle du texte arabe, l'intérêt qui s'attache aux matériaux mis au jour par le *Machriq*.

Et puisque le nom de cette savante revue vient sous ma plume, permettez-moi de vous rappeler que l'École des Langues Orientales espérait la recevoir pour sa Bibliothèque en échange des volumes de sa propre collection qu'elle adresse exactement à l'Université Catholique[1] de Beyrouth. Dès le mois prochain, j'aurai le plaisir de vous faire parvenir deux nouveaux volumes, par la voie des échanges internationaux, à savoir: 1° le tome I de la traduction du *Hadith de Boukhari*[2] par MM. Houdas et Marçais[3]; 2° la suite de *Omarah du Yémen* par M. H. Derenbourg[4]. Vous recevrez aussi dans le courant de l'année le tome troisième du *Kitâb el Bad'* etc. d'El-Makdisi, traduit par M. Cl. Huart[5]. Je ne doute pas que, d'autre part, la Bibliothèque de l'Université Catholique ne possède déjà le tome V des Historiens arabes[6] que j'ai terminé l'année dernière pour la Collection de l'Institut. En cas de non-réception je vous prierais de m'en informer et je veillerai à ce que le Secrétariat de l'Institut comble cette lacune.

Je suis heureux de profiter de cette occasion, Honoré R.P., pour vous dire combien m'est précieux le souvenir de votre trop court séjour à Paris il y a dix ans et vous prie de recevoir avec tous les vœux que j'adresse au Ciel pour votre santé et la continuité de

(١) جامعة القديس يوسف .

(٢) محمد الجعفي البخاري (٨٧٠ –) . من أئمة علماء الحديث .

(٣) نقل وليم مرسيه (١٨٧٤–١٩٥٦) الى الفرنسية « صحيح » البخاري في اربعة اجزاء وقد عاونه في الجزءين الأولين أوكتاف هودس (١٨٤٠–١٩١٦) .

(٤) كان المستشرق هرتويك درنبورغ (١٨٤٤–١٩٠٨) قد نشر سنة ١٨٩٧ « كتاب المكث المصرية » لعبد الله عمارة الحكمي اليمني المتوفى سنة ١١٧٤ ، فرده بجزء ثان في مجلدين . الأول سنة ١٩٠٢ اورده تكملة لمؤلفات عمارة ومنتخبات في سيرته واخبار زمانه ؛ والثاني سنة ١٩٠٤ وهو سيرة عمارة باللغة الفرنسية .

(٥) هو « كتاب البدء والتاريخ » لابن المطهر المقدسي نشره متناً وترجمة في ستة اجزاء بين ١٨٩٩ و ١٩١٩ المستشرق كليمان هوار (١٩٢٧–) .

(٦) الكتاب المذكور هو الجزء الخامس من سلسلة «المؤرخين المشرقيين لحروب الصليبية» وهو كالجزء الرابع من السلسلة نفسها ، يحوي منتخبات من « كتاب الروضتين » لأبي شامة ، حققها وترجمها الى الفرنسية صاحب الرسالة .

votre activité scientifique, l'assurance de ma profonde estime et de mes sentiments dévoués.

2 *Rue de Lille, Paris* A. Barbier de Meynard

١٢ – من جوزيف هاليڤي[1]

Paris, 1er *mars* 1904

Cher et honoré Monsieur l'Abbé,

J'ai l'honneur de vous envoyer sous enveloppe un exemplaire de mon *Nouvel essai sur les inscriptions proto-arabes* [2] que vous avez bien voulu me demander. J'y suis encore aux premiers tâtonnements, mais je l'ai publié tout de même dans le but de ne laisser disparaitre toute trace de la mission de notre pauvre compatriote Charles Huber [3]. La publication prochaine des inscriptions du recueil Euting [4], disposant d'excellents facsimilés et d'estampages, aura matériellement plus de valeur; l'initiative nous restera néanmoins. Il y a des circonstances où il faut se contenter de peu.

J'ai eu le plaisir d'y joindre un exemplaire de la *Revue sémitique* de Janvier dernier, où vous trouverez mes observations sur les inscriptions safaïtiques. Là le terrain se dessine plus clairement et le résultat obtenu est plus solide.

Donc, cher et honoré Monsieur l'Abbé, ces deux mémoires vous sont envoyés à titre d'hommage bien sincère de ma part. Je vous prie d'être assuré de mon admiration pour vos travaux et de ma profonde affection à l'égard de votre personne. Votre bon souvenir reste encore vivant dans mon âme et je m'estime heureux de

---

(١) كاتب هذه الرسالة Joseph Halévy (١٨٢٧ – ١٩١٧) من اساتذة مدرسة الدراسات العليا في باريس ، طاف جنوب الجزيرة العربية فجمع عدة مئات من الكتابات الثمودية . منها سبئية وحميرية ونبأ مكتوبة بالخط المسند ، فنقل رسومها وعلق عليها شروحاً ضافية وافية . اما الغاية من رسالته فهي افادة شيخو بانه مرسل اليه مقالتين بشأنه . وهو يغتنم المناسبة فيبث صديقه اخق عواطف التقدير والوداد .

(٢) هذا المؤلف منتزل من « المجلة الآسيوية » حيث ظهر تباعاً بين ١٩٠١ و ١٩٠٣

(٣) كان شارل هوبير (١٨٢٧–١٨٨٤) رحالة فرنسياً طاف الجزيرة العربية للاستكشاف فجمع جملة من الكتابات الثمودية والحميرية والصفائية ونقل في الصحراء قطعة أدلاوه . وقد سمت الجمعية الآسيوية والجمعية الجغرافية الفرنسيتين بنشر ما دونه من كتابات خلال رحلته ، تحت عنوان *Journal d'un voyage en Arabie* ؛ واجتهد هاليڤي في مقاله المذكور آنفاً ان ينشر الكتابات .

(٤) يوليوس أوتنج (١٨٣٩ – ١٩١٣) مستشرق ألماني من جامعة ستراسبورغ Strasbourg رحل الى البلدان العربية برفقة هوبير .

profiter de cette occasion pour vous faire parvenir l'expression de mes sentiments les plus cordiaux et les plus respectueux.

J. Halévy
26, *Rue Aumaire*

١٣ — من فلكس فارس[1]

حضرة العالم الفاضل ذي الاعمال المبرورة والآثار المأثورة
الأب لويس شيخو اليسوعي الجزيل الاحترام.

سيدي الموقر

لست لأول مرة اخط احكم الكريم يراعي ولا هي المرة الاولى التي اذكر بها من خدم الدين والانسانية بمناجاة الحق ونشر العلوم.

من مبادئكم تعلمت وفي الكتب التي اهديتموها للأدب تثقفت قليل ما اعرف وقد أسعدت منذ شهرين بالمثول لديكم في مقامكم ببيروت فحظيت مع والدي بلثم انامكم العاملة لخير البشرية. فلا يتعجب سيدي اذا اتيت لديه برسالتي هذه مختلساً من اوقاته الثمينة برهة يسيرة. كتبت رسالة عنوانها السعادة والعواطف[2] وفسحتها ما خال لي انه الحقيقة في مطلب تناقضت فيه افكار الباحثين وبعد التروي وجدت ان ارسلها اليكم لسببين الأول رسوخ مبادئي على ما تنشرون من الآراء الصادقة في خدمة الحق وطموحي الى جعل ما اكتب مفيداً لارادتكم وبعيد نظركم بالمباحث حتى اذا وجدتم بافكاري القاصرة ما يؤهلها لخدمة المشرق تحسبوني من عداد مكاتبيه الأخصاء. والسبب الثاني هو انني منذ خمس سنوات لا افتأ اكتب في جرائد عديدة بمصر وبيروت بمباحث مختلفة حيث اجد من نفسي ميلاً غريزياً الى فنون الكتابة ولكن طال الزمان ولم ابلغ من اشتغالي ارباً ولعل ذلك من تبديد بنات افكاري وارسال قواي مشعبة دون تحويلها الى حجة واحدة اذا بلغتها افيد واستفيد.

(١) يلد فليكس فارس سنة ١٨٨٢ في لبنان من اب لبناني وام فرنسية ودرس الحقوق وتعاطى الأدب نثراً وشعراً وخطابة. تنقل بين سورية ومصر واميركا ولبنان. من آثاره: «انجوى الى نساء سورية» و«الحب الصادق» و«قد عرب» هكذا تكلم زرادشت» لفيلسوف الالماني نيتشه. توفي سنة ١٩٣٩. والجدير بالذكر انه كتب رسالته هذه الى شيخو لما كان في الثالثة والعشرين من عمره.

(٢) طبعت هذه المقالة في «المشرق» ٩ (١٩٠٦) ص ٣٦٦-٣٧٣.

لذلك اتيت لديكم راجياً رمق رسالتي ملياً حتى اذا ما وجدتم تصوري سقيماً وعبارتي ضعيفة تأمرون باعادة ما حررت ولو كان ذلك مخالفاً للنظام الا انها نعمة استصيحها من فضلكم مع الأمر لي بالتوقف عن عمل لست اهلاً له ولا يداخل سيدي ريب من جهة خضوعي التام وعدم تأثري لانني ان تركت القلم اذ ذاك اكون تاركه عن يقين بحسن ما افعل حيث استند على حكم فاضل عالم لا يخابي بالوجود في موقف الصدق :

اما اذا رأى سيدي نفعاً للأدب بما افعل فليأمر لأثابر على ارسال المقالات والقصائد بمواضيع تهذب النفس وترقي الشعائر فلا اتأخر ولعل ذلك يكون لي مورداً لسد بعض الحاجة اذ انني اؤمل ولا اطمع ...[1]

هذه عريضتي لديكم واسمحوا ان اودعها قبلة تلمس انامليكم الطاهرة وانا ادعو لله بطول بقائكم ركناً للدين والأدب .

عن مرتفعات طريق الشام : ١٠ تشرين الأول سنة ١٩٠٥

ولدكم المطيع
فليكس فارس

١٤ — من روبنس دوفال[2]

Paris, 11 *Rue de Sontay*
5 *Novembre* 1905

Très Cher Père,

Je vous suis infiniment reconnaissant pour l'aimable envoi de votre édition de la version arabe de Kalilah et Dimnah [3], que je viens de recevoir maintenant seulement, car l'envoi avait été adressé à l'École des Hautes Études, dont le concierge ne me connait pas. Le livre a donc fait maintes pérégrinations dans Paris avant d'arriver au Collège de France où je l'ai trouvé.

(١) تابع فليكس فارس عد « المشرق » للمقالات ودعة من الزمن : فعدت له « وقفة في قلعة بعلبك » ج ٩ (١٩٠٦) : ص ٧٧٥–٧٨٠ ثم « مغارة النسر » ج ٩ : ص ١١٤٢ و « العزاء بالصليب » ١١ : ص ٧٨ .

(٢) راجع ما قلناه عن هذا المستشرق في حواشي الرسالة ٥ . اما ما دفعه الى تحرير كتابه فهو رغبته في ان يشكر شيخو على ارساله له طبعته « لكليلة ودمنة » وانه ليثني على مزاياها المطبعية ويقدمها على ما سبقها من الطبعات .

(٣) سنة ١٩٠٥ نشر شيخو كتاب « كليلة ودمنة » عن اقدم نسخة مخطوطة مؤرخة وقدم لها مهيباً وذيلها بحواش مستفيضة .

Votre excellente édition de Kalilah et Dimnah remplacera désormais l'édition de Sacy [1] reconnue depuis longtemps insuffisante. Elle satisfait le desideratum si souvent exprimé d'une édition critique qu'il était bien difficile d'entreprendre avec les seules ressources dont on disposait jusqu'à ce jour. La publication de l'ancien manuscrit que vous venez d'éditer avec une compétence si rare sera accueillie avec joie et reconnaissance par les orientalistes. Veuillez me permettre de vous adresser à ce sujet mes bien sincères félicitations.

Je n'ai pas encore vu annoncé dans le Catalogue des livres publiés par l'Université de St Joseph la seconde édition du Dictionarium Syriaco-latinum du P. Brun, qui a été commencée il y a un an. J'espère que cette seconde édition ne tardera pas à paraître [2].

Veuillez agréer, Très Cher Père, avec tous mes remerciements, mes respectueux et affectueux compliments.

R. Duval

١٥ — من تيودور نولدكه [3]

Magnas Tibi refero gratias, Reverende Pater, quod socium te fecisti eorum, qui me septuagenarium superbo thesauro litterario, volumine sapientia et doctrina pleno, maxime honoraverunt,

(١) اصبح دوفال طبعة شيخو « الكبيرة » ، وفضلها على سواها بحسنة فعل : فان طبعة انطوان سلفستر دي ساسي المذكورة في الرسالة والصادرة في باريس سنة ١٨١٦ : كانت مقصرة من عدة نواح لا حاجة الى التوقف عندها (لمزيد من الايضاح راجع مقدمة شيخو لطبعته ، ص ٨) . واما طبعة بين ١٨١٦ و١٩٠٥ ، وهي السنة التي صدرت فيها طبعة شيخو ، فلا يخطر باحصر خلية واحدة الى الاذهان . إن لاكتفاء المتأخرين بنقل نص دي ساسي او تجرئهم الى تغييرات حسبوها وهية لم يذكروا اصلها وكيفية استنباطهم لها (راجع مقدمة طبعة شيخو ، ص ٦)

(٢) صدرت الطبعة الثانية هذه سنة ١٩١١ .

(٣) Theodor Nöldeke (١٨٣٦ – ١٩٣٠) من امراء المستشرقين المجازين . كان يجيد الى جانب العربية والآرامية والحبشية، التركية والفارسية والسنسكريتية والالمانية والانجليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية . فاليك عن اليونانية واللاتينية ... التزم في مصنفاته تكثيرة (وقد اورد عددها على الست مئة بين كتاب ومقال) اسلوباً علمياً رصيناً سايراً ما جعله قبلة تؤم واماماً يهدي . وان نحن اردنا ان نشير الآن رسالته هذه الصغيرة الى شيخو فذلك الاسباب لذلك هو كونها من نولدكه المستشرق الذائع الصيت . ثم انها تبين لنا ما كان يكنه العالم العلامة من ود نحو شيخو ، وكذلك كم كان هذا الاخير يجل نولدكه ويشرح له تلبه . فالذكرتان الرئيسيتان في الرسالة هما : شكر شيخو على مشاركته العلماء في تحرير مستف تقدم نولدكه بمناسبة بلوغه السبعين ، وشكره ايضاً لعنايته له بمناسبة ذكرى مولده .

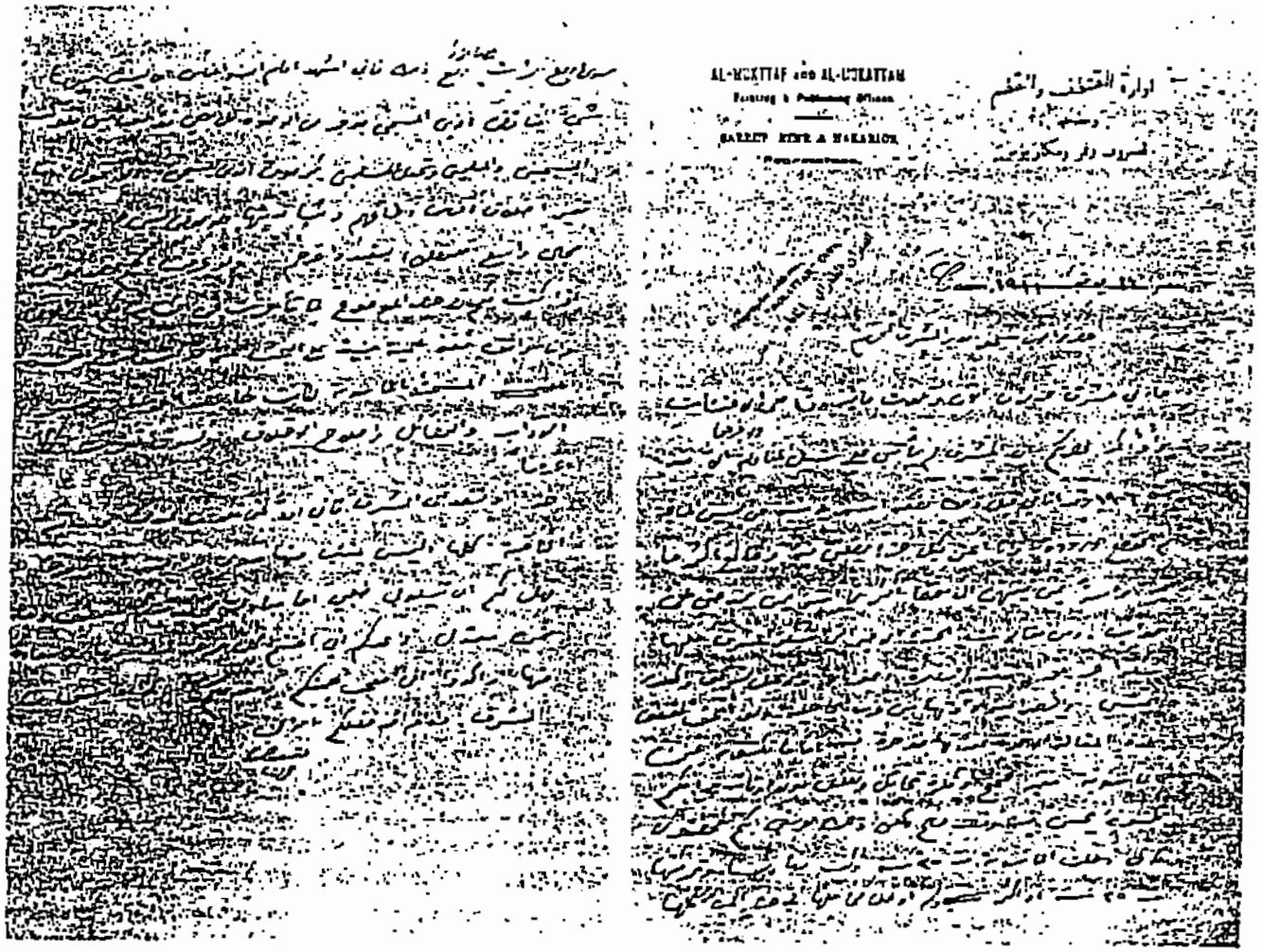

رسالة من يعقوب صروف

بروايات بيد تشرين ١٩٠٩م

جناب الاديب المحترم العالم المقدس الشهير في الآفاق سيدي لعيسى شيخو
حفظه الله ورعاه وسلمه. آما بعد مزيد التحيه والتسليم فانتهز
باخباركم انه قد وصلتني التحف العزيزة المرسلة الى الفقير من
انامل العلامة الجليل وقد كنت ابتسمت اكثر مضمونها
حريصة الى الغراء سابقا. واما الآن فيسرني غاية السرور
ان اتسط برسالة الحرانتي في صورة مجاميع مستعلقة حيث
كلا المجموعتين حصة جدا وكثيرا ما سيلزم الرجوع اليها آناء
ابحاثنا العلمية. فاشكر لجنابكم شكرا بليغا على هديتكم الكريمة
المغبوره عطر على مكتوبكم الظريف وعلى تذكركم الايام التي تبادلنا
في مجالسها مسرات. اعاد الله ايام النظائر وجمع الشمل ...
وحسبه ان الفقير من المتعذب بقراءة صحف المشرق من
ابتداء ظهورها الى حد الآن. لما فاتني ما اشار اليه جنابكم
في بعض الجوائد الواردة في ج ٩ حزب ١٠١ برج ١١ (والتي تسلمو) من
مذهب القائلين بان الله لما خلق الملائكة الخ تعرض على نفسي
ليكون موضوع خبر القراءة من سجود الملائكة لادم ومعارضة
ابليس اللعين امر الرب تعالى والذي يتعلق بهذا الخبر المكرر في
القرآن مرارا مستفادا من النقل النصراني الذي اوردته
جنابكم اوصحتموه لان التشابه بين الروايتين ظاهر لا يخفى
حتى انه خطر في فكرنا اول وهلة ان احداهما مأخوذة من
صاحبتها. ثم رجع البيط ترجيح الغير الى الاصل. اما حينئذ

توكتم الدلالة على مصدر الزوائد المنقولة في بعض الروايات
منها. آما انا فبهتني كثيرا حتى ان اخرى من مصنفات الفقير
الروايتين لكي يكتفي الطالب بمطالعة احداهما
ولو تفضلتم على باشارة وجزتم
الروايتين حتى الواردة من السرين
وارجو اه لا يعسر عليكم ان
واستعدادكم النفع الطالبين جزاكم الله
طالبي العلم في الخافقين

meorum meritorum modulum nimis exaggerantes [1]! Hoc ipso die legi Honeini libellum quem Tu in illo volumine edidisti et in linguam gallicam transtulisti. Sane Honeinus dignum se praestitit discipulum veterum philosophorum et theologorum.

Praeterea grato animo Te prosequor pro litteris, quibus, quae Tua est humanitas, me die meo natali salutasti.

Vale et mihi favere perge!

Th. NÖLDEKE

Scribebam Argentorati,
die XXI mensi Martiis anni MDCCCCVI.

١٦ — من عيسى اسكندر المعلوف [2]

من زحلة : ٢١ حزيران سنة ١٩٠٧

سيدي العالم الفاضل النهامة الأب لويس شيخو الجزيل الورع :

ان عيد شفيعكم القديس لويس الكريم [3] يذكرني اليوم بواجب تهنئتكم لتدوموا محفوفين بشفاعته بمجالي الهناء والصفاء متمتعين بالعافية لتنشروا من صادق مبادئكم الدينية والأدبية ما يبشر (المشرق الاغر) في الشرق والغرب فلا زلتم مشكاة لذلك النبراس المضيء الوافر الفوائد لتحتفي بكم سنن الآمال وبواخر الآداب فتصل الى ميناء السلام الحادي غير خاشية من الارتطام. فاقبلوا يا رعاكم الله مني ومن لفيف عائلتي التهنئة والدعاء بطول بقائكم فخرًا لشاكر فضلكم.

عيسى اسكندر المعلوف

---

(١) عنوان الكتاب المهدى وهو في جزءين ضخمين : *Orientalische Studien Theodor Nöldeke gewidmet*, Giessen, 1906

(٢) مساهمة شيخو في الكتاب كانت نشر وترجمة رسالة لحنين بن اسحق يطلق عليها عنوان « ادراك حقيقة الديانة » (الجزء الأول ، ص ٢٨١–٢٩١).

(٣) عيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩–١٩٥٦) من مواليد كفرعقاب في جبل لبنان. له العديد من المقالات والمصنفات في الدين والمهجر وبينها مجلة « المشرق » بمقالاته وابحاثه. اسس مجلة « الآثار » واشرف على اداريها. تآليفه اكثر ما تكون تاريخية ، منها « تاريخ مدينة زحلة » و « تاريخ المشايخ اليازجيين واسهارهم » و « مدائني المعلوف في تاريخ بني المعلوف ». وما زالت عدة كتب له مخطوطة.

رسائل عيسى اسكندر المعلوف الى شيخو (وعددها يقارب العشرين) هي محدودة الموضوع لا تتعدى بالاجمال اخبار المرض والطلب في شأن المقالات التي يرجو المعلوف ان تدرج في « المشرق ». رأينا ان تنشر الرسالة الوجيزة اعلاه اذ فيها من رقيق شعور كاتبها نحو المكتوب اليه ما يشير الى المكانة الرفيعة التي لشيخو في قلوب معاصريه.

(٤) في ٢١ حزيران تحتفل الكنيسة الغربية بعيد القديس لويس گونزاگا اليسوعي.

١٧ — من ا. گولدتسيهر[1]

بودابشت في ٨ تشرين ٢ سنة ١٩٠٨

جناب الأب المحترم العالم العلامة الشهير في الآفاق . سيدي لويس شيخو تنعنا الله به وبعلومه .

اما بعد مزيد التحية والتسليم فاتشرف باخبار جنابكم انه وصلتني التحف العزيزة المرسلة الى الحقير عن افضال العلامة الجليل وقد كنت اقتنيت اكثر مضمونها من جريدة المشرق الغراء سابقاً واما الآن فيسرني غاية السرور ان اختتمها زينة لخزانتي في صورة مجاميع مستقلة حيث كلا المجموعتين مهمة جداً وكثيراً ما سيلزم الرجوع اليها اثناء ابحاثنا العلمية فاتشكر لجنابكم شكراً بليغاً على محبتكم الكريمة المعبرة عنها في مكتوبكم الظريف وعلى تذكركم الايام التي تداولناها في عاصمة دنيسرك اعاد الله ايام التهاني وجمع الشمل[2] .

وحيث ان الفقير من المجدّين بقراءة صحف المشرق من ابتداء ظهورها الى حد الآن فما فاتني ما اشار اليه جنابكم في بعض اجوبته الواردة في ج ٩ ص ١٠١٤ س ١٤ (والتي تتلو) من «مذهب القائلين بان الله لما خلق الملائكة» الخ...[3] فعرض على ذهني إمكان كون خبر القرآن عن سجود الملائكة لآدم ومعارضة ابليس المعين امر الرب تعالى والذي يتعلق بهذا الخبر المكرر في القرآن مراراً[4] مستفاداً من النقل النصراني الذي اوردته جنابكم او من

(١) Ignaz Goldziher (١٨٥٠ — ١٩٢١) . مجري ، تخرج باللغات السامية في بودابشت وبرلين وليدن وصار فيما بعد استاذاً بجامعة بودابشت . تفلسف من العربية على شيوخ الأزهر لا سيما الشيخ محمد عبده وطار له صيت بتحقيقاته في تاريخ الإسلام وعلومه وفرقه وحركاته الفكرية ، ويعرف بسعة نظره وتنزهه عن الهوى . زاد على تمكنه باللغات السامية معرفة اهم اللغات الاوروبية والف بها . من آثاره النادرة كتاب في « الاسلام » لم ينشر بعد ، نقله الى العربية الدكتور محمد يوسف موسى والاستاذ عبد العزيز عبد الحق .

(٢) هنا يشير الكاتب الى المؤتمر الدولي الخامس عشر للمستشرقين عقد في عاصمة الدنيسرك سنة ١٩٠٨ وكان شيخو يمثل فيه جامعة اليسوعيين في بيروت بصحبة المستشرق الأب لامنس .

(٣) مثل لشيخو ما معنى قول القديس بولس حوارييه عن العذراء مريم انها « ولدت خلاص الملائكة » ، فاجاب ان المسيح هو الخلاص المذكور ، وهذا على مذهب القائلين بان الله لما خلق الملائكة عرض عليهم كلمته المتجسدة فان تسم منهم ان يعترفوا له بالعز واخذ لما رأوه من ذلك طبيعته البشرية فانتقام الله في جهنم النار » .

(٤) راجع القرآن : ٢ : ٣٤ ، و ٧ : ١١—١٢ ، و ١٥ : ٢٨—٣٣ ، و ٢٠ : ١١٦ الخ ...

مثله لان التشابه بين الروايتين ظاهر لا يخفى حتى انه يبتدر في فكرنا اول وهلة ان احداهما مأخوذة من صاحبتها ترجع اليها رجوع الفرع الى الأصل امّا جنابكم (ف)تركتم الدلالة على مصدر الرواية المنقولة عن بعض المذاهب مبهماً امّا انا فينبغي كثيرًا جدًا ان اعرف مصدرًا لتلك الرواية لكي يمكنني اثبات حقيقة النسبة بين الروايتين ولو تفضلتم عليّ باشارة وجيزة الى مصنّف قديم ناقل الرواية الواردة في المشرق لكنت لكم من الشاكرين ورجو ان لا يعسر عليكم وان تعفوا عن وقاحتي بفضلكم واستعدادكم لنفع الطالبين جزاكم الله خيرًا وامتع ببقائكم طالبي العلم في الخافقين .

الداعي المخلص

Dr I. Goldziher

من خدمة العلم في كلية بودابشت

١٨ – من جرجي زيدان[1]

مصر في ٧ مايو سنة ١٩٠٩

حضرة الزميل الفاضل الأب لويس شيخو

اظنك سمعت باسم العلامة سيد عالم جان احد كبار المصلحين في تركستان روسيا[2] وهو ناقل هذا الكتاب اليك فقد علمت انهُ عازم الى بيروت فاحببت ان اعرفه اليك وهو شغف بالعلم واهله ويحب ان يشاهد مدرستكم ومطبعتكم نظرًا (لما)[3] سمعه عنها من الشهرة الواسعة فارجو ان يلاقي ما اعهده فيكم من اكرام اهل الفضل واغتنم هذه الفرصة لتقديم جزيل احترامي ووافر سلامي .

جرجي زيدان

(١) هو الأديب المعروف (١٨٦١–١٩١٤) منشئ مجلة الهلال المصرية ومؤلف روايات تاريخ الاسلام . له ايضاً تاريخ التمدن الاسلامي في خمسة اجزاء وتاريخ آداب اللغة العربية في اربعة اجزاء .

(٢) لم نجد لهذا العلامة ذكراً في معاجم المؤلفين ولا في المجلات العلمية ولا في المؤلفات العديدة التي تطرقت الى موضوع الاصلاح في الاسلام .

(٣) هذه الكلمة ناقصة في الأصل .

١٩ — من يعقوب صروف[1]

ادارة المقتطف والمقطم ومطبعتها
لصروف ونمر ومكاريوس

مصر ١٤ يونيو ١٩١١

حضرة الأب شيخو مدير المشرق المحترم

جاءني مشرق حزيران الآن وتلوت ما فيه ردًّا على الانتقادات[2] وأؤكد لحضرتكم ان المشرق لم يأتِ على سبيل المجادلة ولا غيرها الا منذ سنة ١٩٠٦ وقد اتاني قبل ذلك بضعة اشهر في سنة من السنين الماضية ثم انقطع وروده وانا اعنى بكل جزء يصلني منه وأطالع اكثر ما فيه واسر بمن ينبهني الى خطأ اكثر مما اسر بمن يمدحني على صواب. ومن مقالات الجزء الاخير[3]

(١) ولد يعقوب صروف سنة ١٨٥٢ وتوفي عام ١٩٢٧. كان اديباً رياضياً صحافياً نسيباً. اسس بالاشتراك مع فارس نمر وشاهين مكاريوس مجلة «المقتطف» وجريدة «المقطم». من آثاره «العلم والعمران» و«رسائل الأرواح».

(٢) يستعمل صروف هنا كلمة لشيخو نفسه في عدد حزيران من «مشرقه» ١٩١١، ص ٤٥٤: حيث دبج اليسوعي مقالاً عنوانه «انتقادات المقتطف على نقد المشرق»، وقد حق في مقاله هذا عز «المقتطف» لانه انتقد انتقاداً «للمشرق» على غير صواب.

ولا بد لنفهم الجملة التالية من رسالة صروف «وأؤكد لحضرتكم ان المشرق لم يأتِ على سبيل المجادلة ولا غيرها الا منذ سنة ١٩٠٦» من الرجوع الى مقالة شيخو السابق ذكرها: فنعلم منها ما يدعونا الى التعجب مع صاحب «المشرق». ذلك ان صروف كتب في «المقتطف» (عدد ايار (مايو) من سنة ١٩١١): «كنا بالأمس نبحث في موضوع لغوي وقيل لنا ان احد الأدباء كتب فيه في المجلد الثامن من مجلة المشرق الصادر سنة ١٩٠٥. فاستعرنا ذلك المجلد من المكتبة الخديوية وبينما نحن نقلبه ونبحث فيه عن ضالتنا وجدنا اموراً تتعلق بالمقتطف حرفي في كيفية تمثيلها» (ص ٤٣٤). فما كان من شيخو عند قراءته هذه الاسطر الا ان استولت عليه الدهشة فكتب في «المشرق» (عدد حزيران من السنة نفسها، ص ٤٥٤) انه من عجيب ما تجريه مقالة صروف «ان كاتباً بعد سبع سنوات تزل عن وفعة مقامه والقى بنظره السامي الى مجلتنا التي كاد يجهلها بتاتاً ولولا اشارة بعض اصحابه لما عرف ان في بلاد الشام مجلة تدعى المشرق فاستعار الى ان يمثلها من المكتبة الخديوية مع اننا لم ننقطع عن مبادلته منذ ثلاث عشرة سنة فكأن صاحب المقتطف لا يجد في المشرق ما يستحق الالتفات فكان يلقيها بين الاوراق التي لا فائدة من مطالعتها. اما نحن فنؤكد لجنابه اننا نطالع نشرته وننتبع فصولها بالشياق فاذا رأينا فيها ما يستحق الثناء اثنينا عليه كما فعلنا في عددنا السابق (٣٩٩) حيث ابدينا سرورنا لما كتب منشئها في ضرورة الدين وان وجدنا ما يستدعي نقداً فعلنا ليس انتقاداً كما زعم او بغية بالنقد الباطل ولكن لرغبتنا الشديدة في تحسن المقتطف شيخ المجلات العربية في بلادنا...» فهذا المقتطع يفهمنا اعتذار صروف اولاً ثم اطراءه بنوره في متن رسالته لمقالات «المشرق» ورغبة منه في ان يبادل شيخو بالمثل!

(٣) عدد حزيران سنة ١٩١١

التي اشكر المشرق عليها شكراً جزيلاً مدينة السامرة وحفرياتها[1] والانجيل الشريف[2] والكلندر الحبشي[3] والنصرانية وآدابها بين عراب الجاهلية[4]. ولو اتحف المقتطف بهذه المقالة الاخيرة لعددتها جوهرة فيه. اما ما تكتبونه عن الماسونية فغير صحيح وكله تخامل وتضليل[5] ولا ارتاب في انكم تكتبونه بحسن نية وقصد صالح ولكن ذلك لا ينفي انكم مخطئون فاني دخلت الماسونية منذ ٣٥ سنة وكنت فيها رئيساً. وتركتها منذ ١٥ سنة او اكثر ولم ادخل محافلها في هذه المدة الاخيرة كلها سوى اربع مرات على ما اتذكر ومع ذلك فاني اشهد امام الله والناس ان ليس فيها شيء يناقض الدين المسيحي بوجه من الوجوه بل هي تؤالف بين قلوب المسيحيين والمسلمين وتجعل المسلمين يكرمون الدين المسيحي ولا اقول انها تغير اخلاق الناس وطباعهم ولكنها تلطفها ولو بعض الشيء وفيها مجال واسع للفضلاء ليفيدوا غيرهم ولو عرفت انكم تصدقونني اذا كتبت لكم في هذا الموضوع لما تأخرت عن الكتابة لكم الى الآن. وانا واثق ثقة علمية مبنية على البحث انه لو استعانت الكنيسة المسيحية بالماسونية لكانت لها عضداً قوياً في نشر الآداب والفضائل واصلاح الاخلاق. وسوف نعرف كما عرفنا.

هذا ولنعد الى المشرق فاني اود ان تكون عندي مجلداته الماضية كلها وليس عندي منها سوى اجزاء سنة ١٩٠٦ وما بعدها فهل لكم ان تتلطفوا طلبي اما مبادلة بمجلدات المقتطف واما بثمن معتدل واعدكم اني اغتنم كل فرصة لمطالعتها والاستفادة منها واكدوا اني معجب بهمتكم ومثابرتكم وباكثر ما ينشر في المشرق وادام الله فضلكم[6].

الداعي

يعقوب صروف

---

(١) وهي بقلم الآب شيخو.

(٢) وهي بقلم الآب انطون رياط اليسوعي.

(٣) وهي من تأليف الكاتب عبدالله رعد. مدير جريدة الأحوال.

(٤) وهي للأب شيخو.

(٥) كتب شيخو مقالة في الماسونية في عدد حزيران ١٩١١ من «المشرق» ولكنه كان قد بدأ سلسلة مقالات في هذا الموضوع منذ عدد تشرين الأول سنة ١٩٠٩.

(٦) يبدو من اطلاع صروف على اقتناء مجلدات المشرق السابقة لسنة ١٩٠٦ انه كان صادقاً لما كتب في «المقتطف» انه لجأ الى المكتبة الخديوية ليطالع ما كتب عن «المقتطف» سنة ١٩٠٥ ولكن العقل الخصيف لا يفهم كيف تمكن صروف، وهو الدكتور في الفلسفة، من ان يبقى ست سنوات قبل ان يعلم — عن طريق الصدفة! — بوجود انتقادات من قبل «المشرق» على مجلته «المقتطف»! أو كان على هذا الحد من عدم الاطلاع؟ او لم يطرق

٣٠ — من روفن كست[1]

14, Bedford Square. W. C.
٢٥ سبتمبر ١٩١١

حضرة الفاضل العلامة لويس شيخو المحترم

بعد اهداء واجبات التحية والاكرام اني قد اخذت مشرفة حضرة منير المطبعة رقم ٢٥ آب يتنزل فيه[2] عن التأخير في طبع النبارس الذي كنا تضررنا منه انه لو يمكن الاكتفاء باصلاح واحد وترك المقابلة يسهل الأمر وان حضرتكم تلاحظ الطبع وتعطي النصح له واجر العمل كذلك في الاوراق المصححة المعادة فيه اذ كانت التصحيحات عليها ليست كثيرة وهي واضحة فلا لزوم لمقابلتها بمعرفتي والأمل ان تتفضلوا بالاعتناء ليستتم الطبع كما ينبغي واقبلوا فائق احترامي .

الداعي لكم
A. R. Guest

مسامعه ان « المشرق » قد مضت مدة تتأتبا تحول عنه؟(راجع « المشرق » ١٠٠٩:١ ؛ ٩٩٣:٢ الخ ...).

مهما يكن من امر فانه لا يبعد ان تكون هذه الرسالة قد ساهمت في المقاربة بين صاحب « المشرق » وسروف لأنه عثر بين اوراق شيخو على كتاب وصله من القاهرة ، عن الأب جبرائيل امده البسوعي بتاريخ ٣/٧/١٩١١ ، جاء فيه ان الأب المذكور التقى بسروف عند تشف الزاوية المقابل دريدا وانه مزمع ان يزوره في بيته وانه مسرور من هذا التقارب:

« Je n'ai pas encore fait la visite au Dr Sarrouf. Je comptais le faire ce soir et j'en ai été empêché. J'irai demain matin. Je suis heureux de ce rapprochement. J'ai déjà rencontré M. Sarrouf chez Mgr Darian qui le cultive et qui me dit beaucoup de bien de lui. Il est bien meilleur que Nimr. Le plus sectaire du groupe était l'associé dont le nom ne me revient pas et qui est mort il n'y a pas longtemps. Si on peut entrer en relations on arrivera à améliorer le statut. »

(١) هذا المستشرق (Réuvon Guest) هو من موظفي المتحف البريطاني وبين الأوراق التي درسوا الكتابة العربية عن الانسخة . من مؤلفاته نشر كتاب الأمراء الولاة والقضاة للكندي . ورسائله لشيخو التي نحن بصددها تدور حول طبع هذا الكتاب . والجدير بالذكر ان سائر رسائل هذا المستشرق الى الأب شيخو هي بالعربية .

(٢) كذا في الأصل .

٢١ — من تيودور نولدكه[1]

Strassburg i. E. N. 11/12
Kalberg. 16

Hochgeehrter Herr College!

Besten Dank für die liebenswürdige Uebersendung Ihrer Ausgabe der طبقات الامم ؛ Das Werk ist wirklich in mehr als einer Hinsicht interessant. Namentlich dürfte der Abschnitt über die spanischen Gelehrten von Wichtigkeit sein, gerade weil Ihr Verfasser da auch zeitgenossen und persönliche Bekannte vorführte. Welche Bedeuntung die Genannten haben, kann ich allerdings bei weitem den Meisten nicht beurtheilen, da ich erstlich mit der astronomischen, medicinischen und philosophischen Litteratur in arabischer Sprache, die ja der Verfasser bei weitem am meistem berücksichtigt, fast gar nicht aber, richtiger gesagt, schlechthin gar nicht vertraut bin und mich andererseits auch mit dem arabischen Spanien sehr wenig beschäftigt habe. Auf alle Fälle ist aber zu constatieren, dass dort damals ein reger wissenschaftlicher Betrieb bestand.

Sollte S. ٣٤, 8 das handschriftliche المانية nicht eher in اطالية oder اتالية zu verbessern sein als in المانية ? Es wäre doch zu seltsam, Rom nach Deutschland zu verlegen, wenn auch Rom die Hauptstadt des Kaisers aus Deutschland war. Das Reich hiess doch immer das römische Reich ?.

Noch einmal herzlichen Dank!
Ihr ergebner

Th. Noldeke

(١) راجع ما قلنا عن نولدكه في الحاشية ٣ من الرسالة ١٠. اما الرسالة هذه فيشكر فيها نولدكه لشيخو ارساله اليه كتاب « طبقات الامم » لابن صاعد الاندلسي (+١٠٧٠) وقد نشره العلامة اليسوعي وذيله باخواني واخته بالروايات والفهارس في بيروت سنة ١٩١٢ ؛ ثم يثني المستشرق فيطرق المؤلف ويبدي رأيه في بعض تحريراته وينتهي بملاحظة لا تخلو من الدقة والصواب في شأن تصحيح احدى روايات التي ستوقف عندها في حينها.

(٢) لا بد من اخذ هذا المقطع بعين الاعتبار. جاء في اصل ابن صاعد (ص ٣٤ : سطر ٨) ان قاعدة مملكة الروم كانت « مدينة رومية العظمى من بلاد امانية ». فاصلح شيخو الكلمة الأخيرة وابدلها بكلمة « المانية » غير هياب هذه المناقشة المتذرة لعلمه ان روما كانت في القرون الوسطى عاصمة « الامبراطورية الجرمانية المقدسة ». فعرض نولدكه ابدال « المانية » « باتالية » او « ايطالية » لأنه « من النادر التذر ان تلحق روما بالمانيا حتى وان كانت عاصمة امبراطور المانية » ؛ وان الحقت روما بايطالية « فالامبراطورية الالمانية لن تتلك تدعى الامبراطورية الرومانية » يعني بذلك انه لا يغير الامبراطورية الألمانية اذ لا تكون روما فيها بالفعل ؛ فهي ستظل تحمل اسم الامبراطورية الالمانية. — نقل المستشرق ريجيس بلاشير

٣٢ – من محمد كرد علي[1]

ادارة المقتبس . دمشق : سوريا
دمشق : ٢١ جمادى الثانية ١٣٣٧ . ٢٣ آذار سنة ١٩١٩

حضرة الصديق الابر

اهنئك بسلامتك وراحتك وارجو لك دوام الصفاء والهناء. انا انتظر صدور المشرق بالساعات فلعل ما عاق عن اصداره[2] هو نفس السبب الذي عاقني عن اصدار المقتبس وهو غلاء اسعار الورق غلاء فاحشاً ولعل هذه الموانع تزول قريباً فيعود الاستاذ الى نشر ما عودنا من تحقيقاته وابحاثه النافعة. كتم مدة الحرب نشرتم وبعض العلماء كتاباً عن لبنان رأيته في يد احدهم واريد ان اقتني نسخة منه لخزانة كتبي فارجوك ان كان لديك نسخ منه ان تتحفني بواحدة او ان تعين لي مكان بيعه[3] ثم ان العدد ٩ من المشرق الصادر في ايلول ١٩١٣ يقتضي ارجوك ان تأمر من يلزم بارساله لي. انا الآن في صدد تأسيس متحف ودار كتب للحكومة العربية هنا وقد خصصت الحكومة مبلغاً لا يستهان به لهذا الشأن وعساني اوفق الى تحقيق الأمنية كما اوفق في مهمتي الجديدة وهي رئاسة ديوان المعارف. هذا وارجو تكليفي بما عساه يجد لك من الخدم العلمية هنا وانا احب كل حين ان استرشد برأيك العالي ودمت

لصديقك المخلص
محمد كرد علي

Régis Blachère كتاب طبقات الامم لـ الفرنسية سنة ١٨٣٥ فرقت كلمة « الثانية » (ص ٧٧) كما اوقفت نوكه ولكنه لم يتوصل لتأويل المستشرق الالماني فاكتفى بأن يلحق الكلمة المذكورة بأداة تنبه الى غرابة الأمر : (sic) .

(١) هو الكاتب والمؤرخ والصحافي المعروف . حرر جريدة « الشام » الاسبوعية ثم « المؤيد المصري » في القاهرة ثم مجلة « المقتبس » وصحائف اخرى . عين رئيساً لديوان المعارف في سورية ثم انتقل ذلك الديوان الى المجمع العلمي العربي فكان رئيسه . من مؤلفاته الكثيرة « خطط الشام » في ستة اجزاء و « الحضارة العربية » في مجلدين ، و « امراء البيان » .

(٢) توقف « المشرق » عن الصدور خمس سنوات من ١٩١٤ الى ١٩١٩ على اثر الحرب الكونية الأولى وما عقبها من اضطرابات .

(٣) صدر هذا الكتاب سنة ١٩١٨ بهمة اسماعيل حقي بك متصرف جبل لبنان وقد اشرف على تنظيم العمل الأب شيخو وزميله الأب انطون صالحاني الذي جاء ذكره آنفاً (راجع الحاشية الأخيرة من الرسالة رقم د) وكان نصيب شيخو من تحرير الابحاث في الكتاب كبيراً ، ومن الذين ساهموا في انشاء المجموعة عيسى اسكندر المعلوف واسماعيل حقي بك نفسه والمهندس يوسف افيسوس وجلال بك مدير الغابات والزراعة وغيرهم . وقد باشر الدكتور فؤاد افرام البستاني اعادة طبع هذه التحفة النادرة فصدر منها جزء اول سنة ١٩٦٩ والثاني ما زال تحت الطبع .

٢٣ — من محمد كرد علي

المجمع العلمي العربي
في دمشق

ACADÉMIE ARABE
Damas (Syrie)

سيدي الاستاذ العلامة الاب لويس شيخو المحترم

كتابي اليكم والمجمع العلمي في جلسته الثمانين المنعقدة لاثني عشر يوماً خلون من شهر تشرين الاول سنة عشرين وتسعماية والف قرر انتخابكم عضواً شرف لما يعهده فيكم من الكفاية في العلم والتمكن من آداب اللغة العربية التي نعدكم من فرسانها لما قمتم لها من الخدمات الجلى بلسانها ولذلك يرجو مجمعنا هذا الصغير باعماله الكبير بآماله ان يصل بكم حبله ويشد بمعاضدتكم عضده فيتبر بنبراس ابحاثكم سبله عسى ان يبلغ امله وامده وهو باعث اليكم بمجلته الدورية وما ينجزه من المطبوعات وان رضائي اعضاء المجمع العلمي يهدون اليكم التحيات المباركات والسلام عليكم سيدي المعظم.

٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٢٠

وزير المعارف
ورئيس المجمع العلمي
محمد كرد علي

٢٤ — من ميشيل كمينكو[1]

Budapest Budafoki ut
10/B le 2nd Mars 1922[2]

Très Révérend Père.

Il y a longtemps, 6 années, que j'avais le bonheur de vous revoir à Beyrouth pendant la guerre desastreuse. Me rappelant de l'accueil bienveillant que j'ai trouvé à votre demeure si modeste[3], si sombre à ce temps si triste j'espère, mon Père, que maintenant,

(١) Michel Kmosko (١٨٧٦ — ١٩٣١) كاهن مجري درس على المستشرق گولدتسيهر في جامعة بودابشت وخلفه فيها وقد برع في السريانية والعربية وترك مؤلفات قيمة منها «نشأة الاسلام» (١٩٢٩). اما موضوع رسالته طلب مساعدة شيخو ليحصل له على بعض المراجع تساعده في اعداد دراسة عن قبيلة الخزر يبين فيها ان السواد الاعظم من اليهود ينتمون الى هذه القبيلة الاسيوية الأصل، وهم بالتالي مشهودون عما يعمل مزاعم الصهيونية الذين يطالبون بفلسطين كوطنهم الأم وليس هم بالفعل منها.

(٢) تصح السنة بالأخلاط النفرية والفرنسية فلم نر داعياً لإصلاحها والاّ شوهنا الأصل كله.

(٣) اضطر شيخو وبعض اخوانه اليسوعيين أن يهجروا جامعة القديس يوسف خلال الحرب الكونية الأولى فسكنوا عند الرهبان اللبنانيين الموارنة بناية وثيمة.

quand tout est changé et vous, délivrés du joug des Turcs, heureux d'être les citoyens libres de votre beau Liban, vous ne me refuserez pas votre ancienne bienveillance de maître et tuteur et m'accorderez la demande suivante:

Après la chute du bolchevisme en Hongrie on s'y occupait beaucoup de la question juive. Moi aussi[1]. En le faisant j'ai pensé de rendre service à mon pays ruiné par eux. Etudiant cette question si compliquée, j'ai tourné mon attention vers l'hypothèse prononcée en 1873 par Sternberg, un juif polonais, et dernièrement par le baron autrichien Kutschera, qui derivaient les juifs orientaux, les soi-disants Aškenazim (אשכנזים شكناز) de tribu des Khazars (خزر ou آزاك) devenus juifs vers la fin du VIII siècle. J'ai ramassais une foule de dates historiques relatives à ce peuple d'historiographes et geographes arabes et syriens, mais malheureusement deux ouvrages je ne pouvais pas me comparer: مروج الذهب للمسعودي والتاريخ الكامل لابن الأثير[2].

Je sais cependant qu'un ouvrage en 12 vol. a été édité au Caire en ١٣٠٢ contenant tout les deux. Comme je n'ai aucune relation avec l'Egypte, je vous supplie, mon Très Révérend Père, ayez la bonté de faire une de vos petites promenades aux bouquins de Beyrouth; peut être vous y trouverez un examplaire antiquaire de cet ouvrage, si non, ayez la bonté de m'informer chez qui se vend ce livre au Caire. En même temps ayez la bonté de trouver un exemplaire de Tabari, Annales, ed. au Caire[3] et تمدن العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان Mais ces deux ouvrages ne me sont pas importants.

Une question assez difficile s'y posera: le transport. Quant à l'argent, j'ai de monnaie allemande; si l'on peut payer à Beyrouth en marcs je les enverai; si non, j'acheterai des francs. Il va sans dire que mes ressources sont assez épuisées; cependant j'espère que j'aurai tant que necessaire.

L'hypothèse Khazare est très importante au point de vue politique, c'ar c'est un argument très fort contre les aspirations des Cionistes et contre la Palestine juive. Si les juifs orientaux ne sont pas d'origine sémitique mais d'origine turque — et des 15 millions

(١) تبرأ الشيوعيون سنة الحكم في الفجر من ايار الى آب سنة ١٩١٩ ، وتسبب ستوضهم موجة اضطهاد لليهود عارمة . اما كوشكر فقد درس المسألة اليهودية قبل هذه الحوادث واصدر « تاريخ اليهود السياسي » في بودابشت سنة ١٩٠٦ .

(٢) يقول المسعودي في شأن الخزر انهم تهودوا في ايام هارون الرشيد ، ويقول ابن الأثير انهم ارتدوا الى الاسلام سنة ٩٦٠ . راجع في مسألة الخزر ما جاء مسهباً بقلم S.W. Baron, *Histoire d'Israël, Vie sociale et religieuse*, t. III, pp. 229-241 et 395-401.

(٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٩٢٣+) .

de juifs 14 millions sont Aškenazim, c.a.d. descendants de Khazars, — ils n'ont aucun droit revendiquer la Terre Sainte comme leur heritage. Je connais ici un jeune homme mohammédan de Dèr ez-Zôr*; je le ferai traduire en arabe mon étude sur les خزر: si vous pensez que je peux rendre un service à la nation arabe en la publiant, je vous l'enverrai. Je demande seulement un petit honoraire pour mon pauvre diable.

M. Goldziher est mort. Prof. Musil' a quitté Vienne: ou est-il maintenant, je ne le sais pas.

Toute l'Europe Centrale est balcanisée; le désordre est epouvantable. Il y aura beaucoup de surpris: خش وجب ترى عجب

ܚܠܛ ܡܢ ܒܥܕ ܚܫܫ ܡܕܡܐ ܠܗ ܐܢ ܚܕ ܚܕ
ܡܢܐ ܡܠܛܝ ܡܐܡܐ ܒܐ ܒܐ ܒܐ ܒܐ ܒܐ ܒܐ ܒܐ
ܚܫܫ ܡܕܡܐ[٤]

Michel Kmosko
Professeur d'Université à Budapest.

* Élève de M. Goldziher.

٢٥ – من اگناتي كراتشكوفسكي[٥]

15 *février* 1923

Très Révérend Père et cher Maitre

Avec un grand retard je vous envoie enfin mes remerciements

(١) راجع ما قلناه عن هذا المستشرق في الحاشية الأولى من الرسالة ١٧ .
(٢) راجع ما جاء عنه في الصفحة ٤٢٦ [٦]
(٣) هكذا في الاصل .
(٤) معنى هذه الخاتمة وقد كتبت بالسريانية : سلام سيدنا يسوع المسيح وبركته لك أيها الكاهن الوقار ولآبائه وإخوتك الاجلاء من عبدك وخادم الحقير .
(٥) نقلنا اسمه الى العربية بصورة « اگناتي » وهي طريقة نقله بالروسية ، مع العلم انه كان اذا كتب اسمه بالعربية اعطاه صيغة « اغناطيوس » (مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٩٢٥ ص ٤٦٤) . Ign. Kratchkovsky (١٨٨٣ – ١٩٥١) من اعلام المستشرقين . ما يهمنا في امره انه اقام سنتين في جامعة القديس يوسف اخذ منها العربية على الآباء لامنس وروزنثال وشيخو . انتخب عضواً في المجمع العلمي في دمشق وفي المجمع العلمي بإيران ، هذا فضلاً عن عضويته في مجمع العلوم الروسي . ذبج عدة مئات من المكتب والمقالات بين مؤلف ومترجم ومحقق فكانت له جولات بارزة في سائر ميادين العربية من تاريخ الشعر وفقده منذ اقدم العصور ، والأدب العربي لدى الأدباء النصارى ، والأدب العربي منذ بدء النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر وكان بين الأول من المستشرقين الذين طرقوا هذا الباب الاخير . – رسالته الى شيخو موضوعها اسداء الشكر من اجل كتابين ارسلهما اليه معلمه وصديقه من بيروت واعطاؤه بعض الاخبار عن الحياة الأدبية في روسيا .

pour votre carte postale et divans d' 'Amr et Ḥāriṯ[1]. Six mois j'ai passé en reclusion complète et c'est depuis un mois seulement que je peux renouveler mes travaux. Vous me demandez, où est la vie intellectuelle chez nous; cette lettre après une interruption si inattendue est la meilleure réponse...

Avec beaucoup de joie j'entends chaque fois sur vos travaux et entreprises scientifiques. Les nouvelles scientifiques d'Europe commencent peu à peu nous atteindre et c'est la seule chose qui nous soutient. Notre crise typographique et materielle ne nous permet pas de voir nos propres ouvrages imprimés depuis longtemps déjà[2].

Votre version de Calila a été traduite en russe par un de mes élèves; il est mort malheureusement l'an dernier, je tâcherai de mener sa traduction à la fin et j'espère que j'aurai l'occasion de la publier[3].

Je serais heureux d'avoir de temps en temps de vos nouvelles et je tâcherai de trouver les moyens de vous envoyer quelques-uns de mes tirages à part (bien vieillis déjà).

Mes sentiments les plus respectueux à tous les membres de l'Université[4].

Votre tout dévoué
Ign. KRATCHKOVSKY

Petrograde,
Académie des Sciences
de Russie

(١) هما ديوانا شعر عمرو بن كلثوم التغلبي والحارث بن حلزة اليشكري شرحهما في «المشرق» باستثناء المعلقتين الشهيرتين للمستشرق فرنس كرنكو ثم طبعا على حدة سنة ١٩٢٢ في المطبعة الكاثوليكية في بيروت.

(٢) ظلت روسيا تتخبط في الخروب على الحدود وفي الداخل سنين عديدة بعد اندلاع ثورة ١٩١٧ مما اخذ مظاهر الحياة العلمية والأدبية.

(٣) اصدر شيخو طبعته لكتاب «كليلة ودمنة» سنة ١٩٠٥ (راجع ص [٢٨] ؛ حاشية ١). اما مترجم هذا الكتاب الى الروسية الذي تكلم عنه كراتشكوفسكي في هذه الرسالة فهو المستشرق ا. ب. كوزمين الشرقي في شرخ شبابه في ٢٨ ايار سنة ١٩٢٢. طبعت الترجمة الروسية باشراف كراتشكوفسكي سنة ١٩٣٤ واعيد طبعها سنة ١٩٥٧ في موسكو.

(٤) جامعة القديس يوسف في بيروت.

٢٦ – من ابرهيم برياز[1]

بيت لحم ، مدرسة الحكومة ، في ٨ – ٤ – سنة ١٩٢٤

حضرة الأب لويز شيخو المحترم

عمدنا بعونه تعالى الى تأليف تاريخ يتضمن احوال الطائفة الارثوذكسية في الكرسي الاورشليمي وبعد البحث والتنقيب صعب علينا ان نجد كتاباً ومصادر باللغة العربية تفي بالمقصود فلما كان القصد من مؤلفنا اظهار حقوق الطائفة الارثوذكسية المهضومة لم نقف في المؤلفات اليونانية في تاريخ الكرسي الاورشليمي على شيء يساعدنا في مؤلفنا فرأينا في شخصكم الكفاءة فلذلك نفرع باب معارفكم راجين افادتنا عن الكرسي الاورشليمي الارثوذكسي بنبذة من تاريخ البطاركة الذين كانوا على هذا الكرسي ونرجوكم اظهار الحقوق التي كانت للطائفة الوطنية الارثوذكسية وذكر اسماء البطاركة الوطنيين كل في زمنه الى هذه الايام وتكرموا بافادتنا عن هذا كله على صفحات مجلة المشرق تابعاً واذا رأيتم ذلك يتطلب نشره وقتاً طويلاً نرجوكم اطلاعنا بتحرير خدمة للحق ونصرة لاظهار العدل ولكم الشكر[2] .

ابنكم بالروح
ابرهيم برياز
احد مشتركي مجلة المشرق

(١) لم نجد لتاريخ هذه الرسالة ذكراً في ما لدينا من الجاميع التي تعنى بسير الأدباء . ويجل ما نعرفه عنه هو ما جاء في كتابه الى شيخو . الا اننا آثرنا ان ننشر الرسالة لأنها شهادة حية على تأثير شيخو في ستر الاوساط الشرقية حتى تلك التي كان لا يخجم عن مناضلتها في مقالاته الجدلية .

(٢) لم يصدر شيخو اي مقال من هذا النوع في المشرق اما لأن « ذلك يتطلب نشره وقتاً طويلاً » او لأنه لم يتسنّ له الوقت لجمع المادة مع ما كان عليه من الانهماك بكثرة الاشغال .

٢٧ – من حبيب زيات[1]

H. & E. Zayat & Cie
Alexandrie
(Egypte)

Le 23 *Décembre* 1924

Boite Postale 435

Révérend et cher Père

Permettez-moi à la veillé de Noël et du nouvel an, de venir vous présenter mes vœux lès plus respectueux et mes souhaits les plus sincères pour vous et pour toutes les œuvres auxquelles vous vous dévouez si généreusement. Puissiez-vous rester longtemps encore si utile à l'Eglise et à la cause chrétienne.

Ci-inclus une petite note que vous voudrez peut-être publier dans votre prochain numéro du machriq[2].

J'ai cherché en vain ici la revue de l'académie arabe pour lire la critique du grand fanatique de Damas du mot بلا employé par vous ainsi qu'il ressort de l'avant-dernier numéro du machriq[3]. Au lieu d'adopter tout simplement son opinion, vous ferez bien, je crois, de lui faire comprendre que d'illustres prédécesseurs ont employé le même mot, et que vous êtes en très bonne compagnie. En effet, le fameux ثعالبي[4] auteur du يتيمة الدهر s'est servi de ce terme plus d'une fois. Voici les citations que j'ai relevées:

— page 63 du 4e volume[5]

---

(١) حبيب زيات (١٨٧٨م-١٩٤٩م) ولد في دمشق وتنقل في بلدان كثيرة ، منها مصر ، وتوفي في فرنسا . كان عارفاً بمصور الكتب يشتد في الخزائن ويؤلف الكثير . من آثاره « خزائن الكتب في الاسلام » و « شرقة شرقية » و « السيارات النصرانية في الاسلام » و « الصليب في الاسلام » – كان لسبب في انشاء هذه الرسالة ان محمداً كرد علي ونيس المجمع العربي في دمشق انتقد شيخو لاستعماله كلمة « بلا » بدلاً من طالما . فالتمس زيات بواسطة من صديق شيخو ورود له نسخة شوهد منتخبة من كبار الكتاب تنتقد مزاعم كرد علي . وفي الرسالة بعض امور طريفة .

(٢) نشر شيخو قسماً من الملاحظات التي ابداها زيات في المجلة ١٠ : ٧ من سنة « المشرق » الثالثة والعشرين .

(٣) كان محمد كرد علي ، في تعريف له عن كتاب الأب شيخو « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » (راجع « مجلة المجمع العلمي العربي » ٤ : ٤٧٢) قد اخذ على راهبنا عدداً من الأخطاء اللغوية ، منها استعماله كلمة « بلا » ، كما انه عاب عليه تخصيره شعراء لم يكن لهم في نظره اية صلة بالنصرانية ، وحرصه على ايراد مسائل دينية في ما يعتبره كرد علي من نطاق الأدب وحده .

(٤) هو ابو منصور الثعالبي النيسابوري (١٠٣٧+).

(٥) الطبعة المشتملة هي التي صدرت عن المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠٢ هـ.

ومن مُلح رجاء بن الوليد الاصبهاني قوله في باقة ريحان

وشمامة مخضرة اللون خضّة حويت منظرًا للناظرين انيقا
اذا شبّها المعشوق خلت اخضرارها ووجنته نيروزجاً وعقيقا

— page 153 volume 4

ولابي بكر الخوارزمي في باقة ريحان

وصفت ريحان اذا ما وصفته واصفُهُ قيل له زد في الصفه
دقّته صانعهُ ولطّفته كأنه وشيُ يد مطرفه
او خط ورّاق أرقّ احرفه او زغبات طائر مصفّفه
او حلة بخضرة مفوّفه

J'ai trouvé aussi dans le même ouvrage p. 123 (volume 2d)[1] ce qui suit:

ومما قرأته بخط ابي العباس الضبّي في الأوصاف والتشبيهات من شعره... قوله في الثريا

[2]حكت الثريا اذ بدت طالعة في الحندس
سنبلة من لؤلؤ او بساقة من نرجس

Voici encore un autre exemple relevé dans ارشاد الأريب لياقوت الرومي p. 241 volume 5[3]:

ومن شعر الناشئ

وليل توارى النجم من طول مكثه كما ازورّ محبوب لخوف رقيبه
كأنّ الثريا فيه باقة نرجس يجيء بها ذو حبوة لحبيبه

Encore une fois je ne sais point sur quoi se base Kurd Ali pour vous reprocher un mot que les plus grands littérateurs et poètes ont employé avant vous. Il serait donc nécessaire de lui prouver son erreur.

Le Révérend Père Lammens[4] voudrait-il rouvrir la question du massacre de 100.000 habitants de معرة النعمان par les

(١) هكذا في الأصل . والمصدر الحقيقي هو « المجلد الثالث » لا الثاني .
(٢) هكذا في الأصل . اما في النص المنبرة فنجد « حكت الثريا اذ بدت » .
(٣) هو الجزء الخامس من طبعة د. س. مرجليوث ، القاهرة ١٩١١ .
(٤) هو المستشرق اليسوعي الشهير (١٨٦٢–١٩٣٧) ، وصديق شيخو في جامعة القديس يوسف والخبير البارع في الاسلاميات وتاريخ العرب .

Croisés? Si oui je me ferai un grand plaisir de lui fournir un texte d'un grand historien d'Alep qui ferait taire à jamais le haineux et fanatique kurde[1].

Veuillez agréer, Révérend et cher Père, l'expression de mes sentiments les plus respectueux et les plus dévoués.

H. ZAYAT

(١) كان محمد كرد علي قد انتقد انتقاداً مفصلاً في « مجلة المجمع العلمي العربي » (٢ : ٢٧٨-٢٨١) كتاب الأب لامنس في تاريخ سورية المختصر ، ونبه فيه على استشراق اليسوعي فنيده اقوال مؤرخي العرب من ان الصليبيين قتلوا في سورة انتهاك مئة الف من سكانها . فعزا سبب زيادة انتقاد كرد علي الى التعصب لأن استقراءاته اصدق من ان تكون كلها على صواب . وقد كان لامنس قد دحض اقوال صاحب « المقتبس » في مقال مفصل من « المشرق » (٣٠ : ٩٦٤-٩٧٢) عنوانه « الانتقاد والدروس التاريخية في سورية » ، تساءل زيادة اذا كان بين اليسوعي مشايعة المقارنة مع كرد علي ليسفه ببعض المراجع التي بين يديه تساعده على دعم مواقفه . اما نص المؤرخ العربي الكبير الذي يريد ان يفحم به خصم لامنس . فمقتبس النص انه لابن العديم (٨٨٨-٩٦٠هـ) صاحب « زبدة الحلب في تاريخ حلب » ، وقد جاء في هذا الكتاب (الجزء الثاني من طبعة سامي الدهان ، ص ٦٦) ما مفاده ان ليس القتل والنهب والتخريب وقفاً على الصليبيين وحدهم ، فان تاج الدولة تتش ، بعد ان جاش عسكره خراباً وقتلاً واستباحة حريم واولاد في اعمال بعلبك وبوقية وقسطون وجبل السماق ، « وسار فنزل قباع سورة انتهاك الشرقية بالمنجنيقات ، ففتح ابراجها وحصنها بالسيف ، واخذ ما لا يمكن احصاؤه ، وقتل اهلها فهلك منهم خلق ... وانتقل الى على سورة انتهاك ففعل مثل ذلك وسار الى معرتلح – من بلاد كفرطاب – فتحصن اهلها في ابراجها ؛ وتعذرت عليه فأحرقها ، وهلك جميع من كان فيها » .

آدم ولقمة

في نظر كل من ابي العلاء ودانتي

بقلم الياس سعد خلي

« المطابقة تامة » في ما بين دانتي والمعري في كل ما تطرقا اليه من مواضيع في مؤلفيهما الشهيرين « رسالة الغفران » و « الكوميديا الالهية » كما قيل . وما أكثر الذين شحذوا أقلامهم في مباراة سهلة شيقة تروق الجمهور قرائنا لاثبات تهمة اقتباس اكبر شعراء الطليان دانتي من شاعرنا ابي العلاء المعري لما لذلك من تأثير سحري لذيذ وعميق في النفوس : مثير للاعجاب الشديد وداع الى الاعتزاز الكبير : وما كان ذلك منهم جميعاً من قبيل وقع الحافر على الحافر بل مجرد ترديد واقتباس حرفي لوجهة نظر اسين بلاسيوس المستشرق الاسباني وآرائه في الموضوع متناسين قول شاعرنا العربي :

لا تنـــه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

وأكثر اولئك الأدباء كتبوا ما كتبوا غير متجردين عن الهوى ولا موضوعيين بل مسوقين بدافع « التعصب » او الرغبة في ارضاء غرورهم القومي ولذا لم تتسم ابحاثهم بالميسم العلمي[1] النزيه فشطحوا كثيراً واخطأوا كثيرين ولذا ايضاً ضربت الأديبة الكبيرة « بنت الشواطئ » العربية » عائشة عبد الرحمن بآرائهم عرض الحائط وأمسكت بتلابيب رئيس الجوقة بلاسيوس منتقدة مزاعمه مبينة اخطاءه وسوء فهمه لنص الغفران وسوء قصده ايضاً ...

حبذا ان يكون الأمر كما ذكروا وقد سرنا في وقت مضى ومنذ سنين عديدة ما طالعنا من اتهام دانتي « بسرقة المعري »[2] وقد جرنا الفضول الى

(١) بنت الشاطئ — « الغفران » (مطبعة دار المعارف بمصر : ١٩٥٤) ص ٣٢٦

(٢) قسطاكي حمصي — « سبل الوراد في علم الانتقاد » ج ٣ (مطبعة العصر الجديد بحلب) ص ١٩١ و ٢١٣ .

تبيّن صحة الاتهام فاصبنا بخيبة أمل كبيرة ومريرة وراعنا ليس فقط الفارق العظيم في ما بين مواضيع كلا الشاعرين وطريقة بحثها بل الافتراء والتحامل على هذا الشاعر الفذ بين شعراء العالم ؛ والتحمس . تحمساً في غير محله . حطاً لقدر ثابغة ايطاليا دانتي الى حد اتهامه « بالتصرع والهذيان »[1] . وهالتنا الرغبة لدى ذلك الفريق من الادباء في التغرير بمثقفينا لتقبل وجهات نظر خاطئة ابتغاء تخديرهم واقناعهم باننا بلغنا « حدرة المنتهى » حتى في ميدان الأدب والشعر واقعادهم بالتالي عن التطلع الى مجاراة شعراء العالم في ما وضعوا من مؤلفات وملاحم .

لقد وقعت على قول لسينيك : « إن استئصال خطأ من رأس مواطن خير من استئصال ورم في جسده » . وقول فيلسوف سئل : « فيم يكون السرور ؟ » فأجاب : « في ايضاح حق قد التبس بباطل وازالة باطل قد جار على الحق » مما اذكى في نفسي الرغبة في درس هذه النواحي الغامضة بالرجوع الى افضل المصادر ابتداء برسالة الغفران والكوميديا الالهية وانتهاء بأهم دراسات انصار مؤيدي التيم والنافين فما في بحث تكرمت مجلة المسرة بنشره عام ١٩٤٦ ثم في كتاب ما زال مخطوطاً[2] أتمنى له الصدور ولأبناء أمتي الانتفاع به .

فالنواحي المتشابهة في ما بين رسالة الغفران والكوميديا الالهية كثيرة ومتطابقة تامة حتى في التفاصيل كما يقين بلاسيوس والذين اغترفوا من بحر علمه . وكيف لا تكون المطابقة تامة ، ما دام الحديث الذي اجراه على لسان آدم كل من المعري ودانتي مثلاً واحداً . فكلاهما رأى أبا البشر في الجنة وحادثه وسأله عن اللغة التي كان يتكلمها يوم خلقه الله[3] .

- ما من احد يظن ان دانتي بحاجة الى المعري ليعرف ان الله خلق آدم ووضعه في الفردوس الارضي . فالتوراة تكفيه كما كفت غيره من قبل ومن بعد . واما المعري فانه يعرف على الأقل من القرآن . وقد قرأه بروايات ، ومما تناقله رواة الاخبار[4] ان آدم ابو البشر وانه اول نبي وانه في الجنة التي

(١) ق. حمصي - «منهل» - ج ٣ ص ٢٠٤ و ٢٣١ و ٢٣٢ .
(٢) « دانتي بين المعري وفرجيل » .
(٣) عمر فروخ - « حكيم المعرة » (مطبعة الكشاف : بيروت عام ١٩٤٤) ص ١٠٠ - لويس جيه - « دانتي » (اميريك اديت - ريو دوجانيرو البرازيل) فلاماريون ص ٩٥ .
(٤) عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري - « ابو العلاء وما اليه » (المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٤ هـ) ، ص ٢٨٨ .

« خرج منها بذنب حقير »[1] : بعد ان عصى ربه فغوى (سورة طه / ٢٠) .

ابوكم آدم سنّ المعاصي وعلّمكم مفارقة الجنان[2]

فلا عجب اذا صادفناه هناك في رحلتها بل لا بد لكل منهما من الالتقاء به لاسباغ صفة المعقول على تلك الرحلة الخيالية .

هذا مع العلم بان المعري يميل الى الاعتقاد بان آدم ليس واحداً بمذهب العقل :

وما آدم في مذهب العقل واحداً ولكنه عند القياس اوادم
(الزوميات مطبعة التوفيق ، مصر ، ١٩٢٤ ، ج ٢ ص ٢٧٢)

وأوادم الزمن الطويل كثيرة[3] .

ويجائز ان يكون آدم هذا قبله آدم اثر آدم
(لزوميات ، ج ٢ ، ص ٢٣٦)

وما حدثني لآدم او بنيه وأشهد ان كلهم خسيس
(لـ ج ٢ ، ص ٢٦)

هذا بالنسبة الى رأي المعري في شخصية آدم ، ونحن اذا امعنا النظر في ما قاله كل من ابي العلاء وداتي بلسان آدم عن حقيقة حديث كل منهما معه ، موضوع بحثنا هذا ، نجد اولا ان ابا العلاء ما أراد في الحقيقة والواقع ان يعرف من آدم اللغة التي كان يتكلمها يوم خلقه الله فهو أحرص من ان يزج بنفسه في الجدل المحتدم : حول اصل اللغة العربية ومنشأها : بين علماء سبقوه او عاصروه كابن جني وابن فارس وابن حبيب ومن جاء بعدهم : فمنهم من يقول بان اللغة العربية بل اللغات كلها اصطلاحية من وضع الناس : ومنهم من يقول بانها توفيقية من وحي الله الذي علّم آدم ما احتاج اليه منها

---

(١) ابو العلاء المعري — « زجر النابح » — تحقيق احمد سليمي (المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٦٣) ص ٥٧ و ١١٣ و ١٠٢ .
— « رسالة الغفران » — تحقيق وشرح بنت الشاطئ ص ٢٢٥ .
— و « زجر النابح » ص ١١٣ حيث يشير ابو العلاء الى انه الف عن مصحفين والظاهر انه يعني مصحف ابي بن كعب ومصحف عبدالله بن مسعود (يرجع ايضاً الى « تاريخ القرآن » لابي عبدالله الزنجاني ص ٨٠ وما بعدها (مطبعة مؤسسة الاعلمي للمطبوعات — بيروت ١٩٦٩) .
— « زجر النابح » ص ١٠٢ .
(٢) الياس سعد غالي — « داتي بين المعري وفرجيل » ص ٧ (مخطوط) .
(٣) انعام الجندي — « دراسات في اللغة البيزنطية والعربية » (مطبعة مؤسسة الشرق الاوسط للطباعة والنشر) ص ٢٣٥ .

في زمانه . وبعد آدم علّمها الانبياء نبياً نبياً . ومنهم من يقول بجواز الامرين[١] . اما ابو العلاء فيترك لهم وجهات نظرهم المختلفة المتضاربة وتبريراتهم لتلك النظريات التي لبعضها اساس وارتكاز على الدين وما جاء في القرآن من آيات : تمسكاً من البعض بحرفية النص ، والحرف يميت والروح يحيي : « وعلّم آدم الاسماء كلها »[٢] و « علّم الانسان ما لم يعلم »[٣] و « خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم »[٤] و « ما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه »[٥] . هذا بالاضافة الى الحديث المروي عن ابي عباس وابي هريرة : « احبوا العرب لثلاث لاني عربي والقرآن عربي وكلام اهل الجنة عربي »[٦] .

---

(١) عبد الرحمن السيوطي — « المزهر في فقه اللغة » تحقيق محمد احمد جاد المولى وزميليه — دار احياء الكتب العربية : مصر ١٣٢٦ هـ ص ٤—٥ .

(٢) سورة ٢/٣١

(٣) سورة ٩٦/د

(٤) سورة ٣٠/٢٢

(٥) سورة ١٤/٤

(٦) جلال الدين السيوطي — « الجامع الصغير » ج ١ حديث ٢٢٥ ص ٣٢ (مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٢ هـ) .

فحبي الدين بن عربي يقول « لغة اهل الجنة اللغة العربي القرشي » (« الفتوحات المكية » ، بولاق ، ١٢٦٩ هـ ، ج ٤ ، ص ٢١٥) .

والجاحظ يقول في كتابه « البيان والتبيين » : « القول في انطاق الله عز وجل اسماعيل بن ابراهيم بالعربية المبينة على غير التلقين والتعريف وعلى غير التدريب والتدريج وكيف صار عربياً اعجمي الابوين .

واول من عليه ان يقر بهذا الفصل فانه لا بد من ان يكون له أب كان اول عربي من جميع بني آدم ولو لم يكن ذلك كذلك وكان لا يكون عربياً حتى يكون ابوه عربياً وكذلك جده كان ذلك موجباً لان يكون نوح عربياً وكذلك آدم .

قال بذلك ابو عبيدة : « اول من فتق لسانه بالعربية المبينة اسماعيل وهو ابن ١٤ سنة » .

وروى ليث بن أبي سليم عن بعض اشياخه عن ابن عباس : « ان الله الهم اسماعيل العربية الفصحى » . « البيان والتبيين » ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ج ٣ ، ص ٢٩٠) .

اما ابن فارس فقد قال في كتابه « الصاحبي » ما يلي : « زعم اهل العربية ان القرآن ليس فيه من كلام العرب شيء وانه كله عربي يتأولون قوله جل ثناؤه « انا جعلناه قرآناً عربياً » وقوله « بلسان عربي مبين » . قال ابو عبيدة والعراب من ذلك عندي — والله اعلم — مذهب فيه تصديق القولين جميعاً وذلك ان هذه الحروف واصولها عجمية كما قال الفقهاء الا انها سقطت الى العرب فاعربتها بالسنتها وحولتها عن الفاظ العجم الى الفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال انها عربية فهو صادق ومن قال عجمية فهو صادق .

فأبو العلاء لم يشأ ان يورط نفسه بالتحيز الى جهة من الجهات التي اشرنا اليها ، او انه كان منذ ذلك الزمن البعيد يرى في منشأ اللغة ما رآه مؤخراً الاستاذ احمد السائح[1] من ان محاولة التعرف الى اصول اللغات ، وهل هي من اصل واحد ام من اصول متعددة ، في منتهى الصعوبة وان اللغة العربية من لغات العالم التي هي من اصول غير معروفة ، وان اللغة اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم وفقاً لتعريف الجرجاني وابن جني لها ، وانها أهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها .

وقد استشهد الاستاذ السائح العالم الأزهري غير متحرج بقول جون لوتز ان اللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تصاحب سلوك الناس في كل لحظة وتراقق المجتمعات في اطوارها التاريخية المتلاحقة فيصيبها ناموس التغير الحتمي الذي يجعلها أداة صادقة للتعبير بالنقط والرمز والايحاء عن حياة المجتمعات العقلية

وقال ابن ابي شيبة في المصنف عن الضحاك وابن جرير عن ابي ميسرة عمر بن شرحبيل – نزل القرآن بكل لسان (الأب انستاس ماري الكرملي ، « نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها » ، المطبعة العصرية بمصر ، ١٩٣٨ ، ص ٣٥ و٣٦) .

ويرى ايضاً ابن فارس اذ الامر يتعلم الأنبياء استمر حتى انتهى الى محمد فتر قراره وانه لا يعلم لغة من بعده حدثت ... « حتى الصحابة ما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة او احداث لفظة لم تتقدمهم » . ومعنى هذا القول ان لغتهم لغة العرب لن يستكنوا بعد من احداث لفظة للدلالة على مدلول جديد ما دام عهد الانبياء قد انقضى وختم . ان نظرية ابن فارس هذه كان من الممكن الدفاع عنها في زمنه واما اليوم وقد ظهر بطلانها وتحتم جدواها على كل حال فيجب على العلماء المختصين ان يأخذوا برأي « اكثر اهل النظر » على ان اصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف (السيوطي ، « المزهر » ، ص ١٠ – ابن جني) ، فالمعتزلة تقول بان اللغات بأسرها ثبت اصطلاحها (السيوطي ، « المزهر » ، ص ٢٠ – ابو الفتح بن برهان) ، فأنست بذلك المجال واسعاً «لتنسيق اسماء مخترعات» والا وبينا بل فلتقي نحن بانفسنا في جمود أدى بنا الى التأخر وسيؤدي حتماً الى الهلكة وليس أدل على خطر هذا الجمود من تحدر الشيخ ابراهيم اليازجي وصف حملة حافظ ابراهيم على هذا الجمود .

(يقول حافظ ابراهيم بلسان « اللغة العربية تنعي حظها بين اهلها » ، – « الديوان » ، مطبعة الكتب المصرية ، ١٩٣٩ ، ص ٢٥٣ :

رموني بعقر في الشباب ونيتي ... عشت فلم اجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق اسماء لمخترعات
فلا تكلوني للزمان فانني ... اخاف عليكم ان تحين وفاتي
ارى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عز اقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات فقتا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات)

(١) احمد عبد الرحيم السائح ، من علماء الأزهر – (« مجلة اللسان العربي » ، الرباط ، عدد ٦ /١٩٦٩ ، ص ١٤ وما يليها) .

وخسية ومعياراً دقيقاً لرقيها او انحطاطها في ميدان الثقافة والعلم والحضارة.

وقد رأى ان الانسان الاول والجد الاول للانسانية لم يتكلم ليعبّر عن مفاهيم وافكار ولم يتكلم لانه كان له شيء يجب ان يقال بل العكس لقد فهم وفكّر وأفهم لانه تحدث.

او ان المعري وجد ان الخوض في مثل هذا البحث «لا فائدة فيه» كما يقول ابن السبكي و«عملاً قليل الجدوى ضعيف النتائج وضرباً من الافتراض والتخيل»[1] او ان هذا الامر ليس من ذوقه فحسب. او لا يهمه على ما يبدو. ولذلك لم يسأل ابو العلاء آدم عن كنه اللغة التي كان يتكلمها يوم خلقه الله، كما توهم بعضهم: بل اراد ابو العلاء ان ينفي صحة نسبة شعر الى آدم فحسب. وهذا هو الشيء الهام في نظره وهذا هو الظاهر من النص على كل حال: كما نفى في «رسالة الغفران» ذاتها ما نسب من شعر الى النابغة الذبياني والى غيره من الشعراء والى الجن ايضاً: وقد نسبت اشعار في اللغة العربية الى آدم والى الملائكة والى الشياطين ايضاً[2] بل

وقد كان ارباب الفصاحة كلما ... رأوا حسناً عدّوه من صنعة الجن[3]

حتى المعري نفسه نسب من نظمه فيما يعتقد قصيدة رائية واخرى سينية طويلة الى الجني الشيعور ابي هدرش[4] والدكتور طه حسين لا يشك ان ابا العلاء المعري هو الذي انتحل اشعار الجن[5].

ولقد وضع الشعر على السنة الجن باسم الدين لارضاء حاجات العامة الذين يطلبون المعجز والغريب ومن هنا راح القصاصون يخترعون ما شاء لهم خيالهم ان يخترعوا[6]. وبذلك تظاهر المعري الذي يعتمد على ما جاء عن

---

(١) محمد المبارك – «فقه اللغة» – الطبعة الثانية ١٩٦٤ (دار الفكر الحديث بلبنان) ص ١٧ و ١٨٦

(٢) يراجع بهذا الخصوص ص ٢٨٣ من «رسالة الغفران» للمعري الذي له ايضاً «رسالة الشياطين» المفقودة؛ و«جمهرة اشعار العرب» لابي زيد القرشي و«كتاب شياطين الشعراء» للدكتور عبد الرزاق حميدة؛ ص ٢٤٣ و ٢٤٤ و«التوابع والزوابع» لابن شهيد الذي جعل من جن الجن وبنائم شعراء (يشرف ابو عامر وصاحبه على ناد كبير الجن وبنائم وقد وقع الخلاف بينها في شعرين خمّار وبطل من العشاق)؟ ... و«المقامة الاسبوية» لبديع الزمان الهمذاني. وقد اورد ابن النديم في قائمة المرزباني كتاباً باسم «اشعار الجن».

(٣) ابو العلاء – «سقط الزند» مطبعة المعارف بمصر؛ ج ١ ص ٣٣١

(٤) «رسالة الغفران»؛ ص ٢٨٦ و ٢٩٠

(٥) الدكتور طه حسين – «تجديد ذكرى ابي العلاء» ط ٣؛ مطبعة دار المعارف ١٩٣٧ ص ٢٣٩

(٦) الدكتور طه حسين – «الشعر الجاهلي» – مجلة «الهلال» عدد شباط ١٩٢٦ ص ١٦٩

العرب من اساطير بان لكل شاعر شيطاناً دون ان يبدي رأياً صريحاً في شياطين الشعراء كالمعتزلة وبعض الفلاسفة كالنظام وابن سينا الذين ينكرون الجن . وابو العلاء يميل الى انكارهم بالتقليل مثلاً من اهمية ما جمع المرزباني من اشعارهم بقوله « ذلك حديان لا يعتمد عليه » . بل انه يأبى الايمان بالكائنات الروحانية من ملائكة وجن :

قد عشت دهراً اطويلاً ما علمت به حساً يحس لجني ولا ملك

(« المرزبانية » - ج ٢ ص ١٦٣)

ويقصد من ذلك التعريض باخبار القدماء والتشكيك بما نسبه بعض الأدباء الى الجن — والى آدم ايضاً — من شعر[1] ورسالة الغفران مملوءة بالسخرية الموجهة من الجن والملائكة جميعاً. ومع ذلك فهو يقول ان الله قادر على خلق اجسام نورانية ليست بلحم ولا دم.

مع ان كلام اهل الجنة عربي فقد روى ابو العلاء فيما روى في غفرانه ان الخازن رضوان لم يفهم شيئاً من شعر ابن القارح وان خازناً يدعى زفر قال لابن القارح الذي انشده من الشعر ما لو جمع لكان ديواناً فلم يخفل به : أحسب هذا الذي جئتني به قرآن ابليس المارد ولا ينفق على الملائكة انما هو للجان وعلّموه ولد آدم[2] والتعريض ننشه ابليس اللعين في اقليم العرب فتعلمه نساء ورجال وللجن آلاف الاوزان ما سمع بها الانس وقد نظم احدهم الخيشعور الزجز والقصيد قبل ان يخلق الله آدم وفي قدرة الخيشعور ان يملي على ابن القارح ما لا تسعه صحف الدنيا ... ثم هل يعرف البشر من النظم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الارض ؟ ومع ذلك فالنظم فضيلة العرب[3] .

ثم ان ابا العلاء وهو الولوع باللغة والشعر يقول في القصيدة التي رثا بها اباه :

تئنّ وتصبي في انينك واجب كما وجب التعب اعتراقاً على أنّ[4]

---

(١) عمر الشباع — « عبقرية الخيال في رسالة الغفران » (مطبع دار الكشاف — بيروت ١٩٥٣ ؛ ص ٧٦ — ط. حسين ؛ « تجديد ذكرى... » ، ص ٢٨٨—٢٨٩

(٢) « رسالة الغفران » ؛ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤

(٣) « رسالة الغفران » ؛ ص ٢٨٣—٢٨٤ و ٢٥٩

(٤) « سقط الزند » ، ص ٣٣٥

اني كنت تشتكي في مرضك ويتألم بذلك قلبي فكان اليك ينتضي نسبي كانتضاء ان الذي هو حرف التأكيد النصب في اسمه .

فأمور اللغة من عروض ونحو وصرف تبسه كثيراً حتى في موقف رثائه لوالده وهو في مقتبل العمر وفي مطلع حياته كشاعر . ولم تخل منها لزومياته وكتبه بها ، رسالة الملائكة » و « رسالة الغفران » مما يدل بوضوح على ان ابا العلاء اراد في الحقيقة والواقع بسؤال آدم عما روى عنه من شعر تكذيب المدعين ليس الا فخاطب آدم بلسان ابن القارح الذي لقيه وهو عائد الى جنة من الجحيم قائلاً : يا ابانا قد روي لنا عنك شعر منه قولك :

نحن بنو الارض وسكانها منها خلقنا واليها نعود
والسعد لا يبقى لاصحابه والنحس تمحوه ليالي السعود

فيقول آدم : هذا القيل حق وما نطقه الا بعض الحكماء ولكني لم اسمع به حتى الساعة . فيقول ابن القارح : فلعلك يا ابانا قلته ثم نسيت فقد علمت ان النسيان مشروع اليك وحبيك شهيداً على ذلك الآية المتلوة في فرقان محمد ، ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » . وقد زعم بعض العلماء انك انما سميت انساناً لنسيانك واحتج على ذلك بقولهم في التصغير : أنيسيان ، وفي الجمع أناسي وقد روي ان الانسان من النسيان على ابن عباس وقال الطائي :

لا تنسين تلك العهود وانما سميت انساناً لأنك ناس

وقرأ بعضهم « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » بكسر السين يريد الناسي فحذف الياء كما حذفت في قوله « سواء العاكف فيه والباد » واما البصريون فيعتقدون ان الانسان من الأنس وان قولهم في التصغير : أنيسيان شاذ ، وقولهم في الجمع : أناسيّ أصله أناسين فأبدلت الياء من النون والقول الاول احسن . وقد سبق لأبي العلاء في « زجر النابح » ان قال : اصحاب التاريخ والنقل يزعمون ان اشتقاق الانسان من النسيان ومبتدأ ذلك ان آدم نسي ما عهد اليه فسمي انساناً وهذا يوافق مذهب الكوفيين في انسان[1] .

ويجيب آدم ابن القارح بقوله : أيتم الا عقوقاً وأذية : انما كنت اتكلم وانا في الجنة بالعربية فلما هبطت الى الارض نقل لساني الى السريانية فلم انطق بغيرها الى ان هلكت فلما ردني الله الى الجنة عادت عليّ العربية .

(١) ابو العلاء — زجر النابح ، ص ١٠٠ و ١٠١

اننا نجد في هذا القول صدى لقول عبد الملك بن حبيب[1] بان لسان الاول الذي نزل به آدم من الجنة عربي الى ان بعد العهد وطال وحرّف وصار سريانياً وهو منسوب الى ارض سوري او سوريانة وهي ارض الجزيرة بها كان نوح وقومه قبل الغرق . وكان يشاكل اللسان العربي الا انه محرّف وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح الا رجلاً واحداً يقال له جرهم فكان لسانه لسان العربي الاول . فلما خرجوا من السفينة تزوج آرم بن سام بعض بناته فمنهم صار اللسان العربي في ولده عوص ابي عاد وعبيل وجاثر ابي ثمود وجديس حيث عاد باسم جرهم لانه كان جدهم من الأم وبقي اللسان السرياني في ولد ارفخشد بن سام الى ان وصل الى يشجب بن قحطان من ذريته . وكان باليمن فنزل بنو اسماعيل فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي[2] .

ويعرب بن قحطان سمي كذلك لانه اول من انعدل لسانه من السريانية الى العربية وهذا معنى قول الجوهري في «الصحاح» انه اول من تكلم العربية .

وقد اخرج فيما بعد ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس ان آدم كان لغته في الجنة العربية فلما عصى سلبه الله العربية — أكان ذلك قصاصاً ؟ ... — فتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية ولعل هذا الرأي كان معروفاً في أيام ابي العلاء شائعاً الى ان جاء ابن عساكر فدوّنه .

وقد سبق للمعري نفسه ان روى في «رسالة الملائكة»[3] ان جماعة من الأدباء قصرت اعمالهم عن دخول الجنة ولحقهم عفو الله فزحزحوا عن النار فبقوا بين الدارين وجاءوا فوقفوا عند باب الجنة واخذوا يرجون من حارسها ان يكون واسطتهم الى أهل الجنة وطلبوا اليه ان يخبر بعض العلماء الذين حصلوا في الجنة ان هؤلاء الادباء يريدون مخاطبتهم فجاءهم رضوان بالخليل بن احمد فعرضوا عليه ان يعلموا العربية الوليدان المخلدين فيقول لهم الخليل : جعل الله من يسكن الجنة ممن يتكلم بكلام العرب ناطقاً بافصح اللغات كما نطق بها يعرب بن قحطان او معد بن عدنان وابناؤه لصلبه لا يدركهم الزلل ولا

(١) عبد الملك بن حبيب (٧٩٦ — ٨٥٤ م) .
(٢) السيوطي — «المزهر» ص ٣٠ و ٣١
(٣) ابو العلاء — «رسالة الملائكة» : تحقيق سليم الجندي : مطبعة الترقي ، دمشق : ١٩٤٤ ، ص ٣٣٧

الزيغ وانما افتقر الناس في الدار الغرارة الى علم اللغة والنحو لان العربية الاولى اصابها تغيير فاما الآن فقد رفع عن اهل الجنة الخطأ والوهم فاذهبوا راشدين فيذهبون وهم مخلقون .

ونعود الآن الى آدم ابي العلاء فنراه يستنكر ما نسب اليه من شعر متسائلاً في اي حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة ام الآجلة ؟ والذي قال ذلك يجب ان يكون قائله وهو في الدار الماكرة ألا ترى قوله : منها خلقنا واليها نعود . فكيف اقول هذا المقال ولساني سرياني[1] واما الجنة قبل ان اخرج منها فلم اكن ادري بالذي فيها : وانه مما حكم على العباد صيّر كأطواق حمام بها رمى لاحد من ذمام . واما بعد رجوعي اليها فلا معنى لقولي واليها نعود لانه كذب لا محالة ونحن معاشر اهل الجنة خالدون مخلدون .

ينقل لنا ابن القارح ان بعض اهل السير يزعم ان هذا الشعر وجده يعرب في متقدم الصحف السريانية فنقله الى لسانه وهذا لا يمتنع ان يكون .

وكذلك يروون لنا قول قابيل هابيل :

تغيّرت البلاد ومن عليهـا ... فوجـه الأرض مغبّر قبيح
وأودى ربع طيبهـا فباتوا ... وغودر في الثرى الوجه المليح

وبعضهم ينشد :

وزال بشاشةُ الوجه المليـح

على الاقواء وفي حكاية : معناها ما اذكر ان رجلاً من بعض ولدك يعرف بابن دريد انشد هذا الشعر وكانت روايته :

وزال بشاشةُ الوجه المليـح

فقال اول ما قال : أقوى .

وكان في المجلس ابو سعيد السيرافي فقال : يجوز ان يكون قال :

وزال بشاشة الوجه المليحُ

بنصب بشاشة على التمييز وبحذف التنوين لالتقاء الساكنين كما قال :

---

(١) روى صاحب السيرة الحلبية ان آدم كان يتحدث بالعربية في الجنة ولكنه تحدث بالسريانية على الارض (دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ، ص ٢٧) . و(مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ٣ ، ص ٤٨٥ ، عام ١٩٦٩ (مقال كامل عياد = من تاريخ الاستشراق) .

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

قلت انا : هذا الوجه الذي قاله ابو سعيد شر من اقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة .

فيقول آدم : أعزز عليّ بكم معشر أبنيّ انكم في الضلالة متبوكون (متحيرون مضطربون) آليت ما نطقت هذا النظم ولا نطق في عصري وانما نظمه بعض الفارغين فلا حول ولا قوة الا بالله !... كذبتم على خالقكم وربكم ثم على آدم ابيكم — مشيراً الى الآية « انه ما من نبي الا وقد كذبت عليه امته وان امتي ستكذب عليّ ايضاً » (سورة الملائكة/٣) « ومن اظلم من افترى على الله كذباً » (سورة هود/١٨) — ثم كذبتم على حواء أمكم وكذب بعضكم على بعض[١] فكأنه القائل : اني مكذوب عليه كما كذب العرب على الغول[٢] فالكذب كثير جم[٣] والكذب سوق ليست للصدق[٤] وفي هذه الاقوال منتهى الصراحة في تأكيد كثرة الكذب . وكثيراً ما ناقش المعري الشعراء فيما قالوه وفي ما روى عنهم ولم يفت المعري ان يستحضر في الآخرة شاعراً ليسأله عن كلمة واحدة في بيت واحد[٥] حرفه الرواة الذين اعتادوا تغيير ما يقول الشعراء[٦] وقد وصف احد الشعراء اولئك الرواة والنساخ بقوله :

أخا العلم لا تعجل بعيب مصنف ولم تتيقن زلة منه تعرف
فكم افسد الراوي كلاماً بعقله وكم حرّف المنقول قوم وصحّفوا
وكم ناسخ اضحى لمعنى مغيّرا وجاء بشيء لم يرده المصنف[٧]

وقد بيّن ابو العلاء في مناقشاته باسلوب طريف لطيف وجه الصواب بحسب رأيه في كل ذلك كقوله لعدي : جئت بشيئين في شعرك وددت أنك لم تأت بهما[٨] . ويخاطب التابغة الذبياني بقوله لقد حفّ عليك اهل العلم من الرواة ... ويتمنى حضورهم ليسألهم بحضور التابغة كيف يروون قوله في داليته الشهيرة في المتجردة زوجة النعمان : واذا نظرت واذا

(١) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣٥٢ وما يليها .
(٢) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣٨١
(٣) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣١١ و ٣٤٥ و ٤٤٠ و ٤٤٥ و ٤٩٠
(٤) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٤٩٠
(٥) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣٣٧
(٦) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣٢٠ و ٣٣٨ و ٣٥٠
(٧) ورقة الروزنامة الهاشمية تاريخ ٢٥ /٥/ ١٩٥٣
(٨) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ١٩٢

ـــتَ وإذا ظعنت وإذا ترعت أينتج الشاء ام بقسمها ؟ فيقولون بفتحها والنابغة يختار الضم . ويذكر الذبياني قصيدة برمتها نسبت اليه ربما على سبيل الغلط والتوهم . كما انكر كل من الجعدي واعشى قيس قصيدة الى غير ذلك من المسائل النحوية والصرفية العديدة التي تطرق اليها[1] .

٥

فغاية المعري اذن من «رسالة الغفران» لا تخرج عن اظهار علمه وتوجيه النقد فيما يتعلق باخبار الشعراء في الجاهلية وبعدها مبدياً اراءه في اللغـــة والنحو[2] وغايته من الحديث الذي اجراه مع آدم بخاصة انما تكذيب تاحلي آدم الشعر فحسب .

٥

أمّا دانتي فقد لقي آدم في الملأ الأعلى قرب العذراء مريم[3] فأحب ان يعرف منه منذ متى وضعه الله في الفردوس الارضي اي تاريخ خلقه اولاً وكم دام تمتع عينيه بالفردوس ثانياً والسبب الحقيقي لغضب الله عليه وطرده منه ثالثاً واللغة التي استخدمها وقام بصياغتها[4] رابعاً وهنا شيء طبيعي ومعقول لمن يصادف آدم ... ففي ما يتعلق بالسؤال عن اللغة فقد اجابه آدم بقوله :... ان اللغة التي كنت اتكلمها اندثرت قبل ان تتصرف سلالة نمرود الى العمل الضخم الذي لم يكن من المستطاع ان ينتهي[5] اي بناء برج بابل .

ولكن هذا القول لا يفيد شيئاً في معرفة حقيقة اللغة التي كان آدم يتكلمها قبل التاريخ الذي اندثرت فيه ، الا ان دانتي في كتابه البلاغة العامية (١/٦) الذي أنشه في المنفى[6] يرى ان من المعقول التفكير بان يكون آدم الذي خلقه الله في حال النعمة والصلاح اول من تكلم معرباً بالكلمة عن

---

(١) ابو العلاء المعري — «رسالة الغفران» ص ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠١ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢٣٥ و ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٦٦ و ٢٧١ و ٢٧٣ و ٢٧٥ و ٣٠٣ و ٣٠٦ و ٣٠٧ و ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٢ و ٣١٤ و ٣١٦ و ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣٢٢ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٧ و ٣٣١ و ٣٣٢ و ٣٣٤ و ٣٤٢ و ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٨ و ٣٥١ و ٣٥٢ و ٣٥٥ و ٣٥٩ و ٣٦٠ و ...

(٢) عمر فروخ — «عبقرية الخيال في رسالة الغفران» ص ٢٠ و ٢١

(٣) دانتي «الكوميديا الالهية» ف ن ٣٢ /١٢١

(٤) حسن عثمان — «ترجمة الفردوس» دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ص ٤٥٢ و ٤٥٩ و ٤٦٠

(٥) دانتي — «الكوميديا الالهية» ف ن ٢٦ و م ن ١٢ /٣٤

(٦) لافونت بويبلي — «معجم المؤلفات» ، باريس ١٩٥٤ : ج ٤ ، ص ٥٩٧

سروره وعرفانه الجميل نحو خالقه وان تمجيده لله استمر في لغة الشعب العبري الذي بقي الشعب الوحيد بين شعوب الارض محافظاً على ايمانه بالله قبل محمد وقبل المسيح . ولكن البشر لما عصوا الله تحطّمت الوحدة الروحية لدى الاسرة البشرية الاولى وكان ذلك عندما أصبح بانو برج بابل لا يفهم بعضهم بعضاً ومنذ ذلك الحين اخذت الألسن تختلف وتتباعد في المكان والزمان[1] حتى لم تبق لغة وحيدة على الارض[2] .

وداتي يرى ان اللغة من صنع الانسان على اعتبار انها أثر عقلي وما من أثر عقلي يبقى دائماً ما دام ذوق الانسان يتغيّر أبداً ولذا فهي عرضة للتغيير والتطور . فداتي يقول بلسان آدم : اذا تكلم الانسان فذلك امر طبيعي اما ان يتكلم بشكل او بآخر فالطبيعة تترك ذلك لكم حسب رغبتكم[3] ولهذا يعتبر داتي من روّاد علم اللغة وفلسفتها[4] متشياً مع الكتاب المقدس حيث جاء : « جبل الرب من الارض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها فكل ما سماه به آدم عن نفس حية فهو اسمه[5] فآدم اذن هو الذي اطلق على الحيوانات اسماءها ولم يتعلمها او يتلقنها فهو الذي صاغ اللغة التي كان يتكلمها[6] . لكن داتي جنح في انكوميديا عن كنه لغة آدم فصمته وعدم ترديده ما ذكره في كتابه « البلاغة العامية » لدليل على انه لم يقصد في الكوميديا سوى التلميح الصريح الى ما ورد في سفر التكوين واستشهد به « قال الرب هوذا بنو آدم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة ... هلمّ نهبط ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض ... فبدّدهم الرب وكفوا عن بناء المدينة ولذلك سميت بابل لان الرب هناك بلبل لغة الارض كلها »[7] .

وقد روى ابن عساكر في تاريخه عن كيفية تبلبل ألسن البشر حديثاً عن انس بن مالك قريباً من نص التوراة هذا : قال : لما حشر الله الخلائق الى بابل بعث اليهم ريحاً فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا فنادى منادٍ من جعل الغرب عن يمينه والشرق عن يساره واقتصد البيت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء . فقام يعرب بن قحطان فقيل له : يا يعرب بن

(١) لانزيث بيبياني — « معجم المؤلفات » ج ٤ ، ص ٥٩٧

(٢) « سفر التكوين » الفصل ١١

(٣) حسن عثمان — « ترجمة الفردوس » ص ٤٥٢ و ٤٦٠ و ٤٥٩

(٤) « سفر التكوين » ، الفصل ٢ /١٩ و ٢٠

(٥) داتي — « انكوميديا الالهية » ف ن ٣٢ /١٢١

قحطان بن هود . أنت هو ؟ فكان اول من تكلم العربية المبينة . ولم يزل المنادي ينادي من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين لساناً وانقطع النسوت وتبلبلت الالسن فسميت بابل وكان اللسان يومئذ بابلياً[1] .

ذاشارة داتي في «الكوميديا» الى ان اللغة التي كان يتكلمها آدم قد اندثرت قبل ان تبني سلالة نمرود بناءها برج بابل تزييد فقط لما ورد في الكتاب المقدس . و«الكوميديا» مكتظة بالتلميحات الى ما ورد فيه والاستشهادات به كما ان «رسالة الغفران» مشحونة بالآيات والاحاديث .

فلداتي الهام عظيم وعميق بالعهدين القديم والجديد كالمام المعري بالقرآن والاحاديث . والأدلة على ذلك كثيرة جداً ولا سيما في «زجر النابح» حيث يرد ابو العلاء : بالاستناد الى الآيات القرآنية خاصة والأحاديث . على الطاعن عليه في معتقده . وهذا نرى رغم التقاء ابن القارح وداتي بآدم ان موضوع حديث المعري مع آدم : الشبيه بموضوعات احاديثه مع اكثر وافهم من تقيم في الدار الآخرة . يختلف جداً عن موضوع حديث داتي معه وبالتالي فان برهان فروخ الذي مررنا به اولى من ان يتخذ حجة لتبرير او دعم ما ذهب اليه : فلو صح الاقتباس لكان المعري وداتي اتفقا على لغة واحدة لآدميها مثلاً او اتفقا على الغاية من حديثيهما معه . او ليس غريباً الا يتطرق داتي الى اللغة السريانية وكلام اهل الجنة . ويقال انه اطلع على «رسالة الغفران» . وتهمل التوراة التي منها استمد كل فكرته ؟...

ان ابن عساكر لم يحدد ماهية اللسان البابلي الذي تبلبل الى اثنين وسبعين لساناً وداتي لم يسمّ في «الكوميديا» . هذا المؤلف الجدّي الرفيع : اللغة التي بلبلها الله . فهو ايضاً يرى كغيره من العلماء ان البحث لمعرفة منشأ اللغة واصلها حتى عهده والى يومنا هذا : ضرب من الافتراض والتخيّل ويستند الى حد كبير الى التقدير والتخمين[2] ولذلك لم يردّد في كوميدياه رأيه الذي أعرب عنه في «البلاغة العامية» لأنه مجرد رأي او فكرة هو نفسه غير مقتنع بها ربما ولا يعلق عليها كبير اهمية بل مجرد افتراض ولكنه افتراض واقع مترن على كل حال : من المعقول ان يكون تمجيد آدم لله قد استمر بلغة الشعب الذي بقي محافظاً على ايمانه به ...

(١) عبد الرحمن السيوطي – «المزهر في علوم اللغة وانواعها» ص ٣٢

(٢) محمد مبارك – «فقه اللغة وخصائص العربية» ص ١٨٦ و ٢٤

يوسف بك كرم

(١٨٢٣ – ١٨٨٩)

تمثيلية ذات اربعة فصول

تأليف الخوري حنا طنوس †

يحتل الخوري حنا طنوس في تاريخ الادب العربي عامة ، وفي تراثه المسرحي خاصة ، صفحات مشرقة ، وهو الذي خدم النشء طوال جيلين كاملين ، كاهناً يؤدي رسالة سيده بالايمان والتضحية والمحبة ، واعظاً يوقظ ويرشد ويهدي ، خطيباً تترنح لنبرة صوته اعطاف المنابر ، شاعراً يلهب الاحاسيس والعواطف ، ومؤلفاً مسرحياً اتحف ادب الضاد من المسرحيات بما قد يعز لها نظير . فكان بما خلف للمسرح ، من حيث العدد ومن حيث النوع ، احد ابرز رواد الادب التمثيلي ، واشرقهم وجهاً ، واوسعهم علماً باصوله وفنونه ، واصيغهم في ميدانه ، وارصنهم مذاهيك في عاليات قبابه .

حسبه انه وهب المسرح العربي ما لا يقل عن سبع وثلاثين رائعة كانت وما تزال مدرسة بطولات ومروءات ، واخلاق وفضائل . فاذا لم نذكر منها الا « البطل المجهول » و « النعمان الخامس » ، و « داحس والغبراء » ، و « العمرين » ، و « شهداء نجران » ، و « العقل اللبناني والدهاء العثماني » ، و « سيدة قنوبين » و « البطريرك حجولا » و « امير الارز » ، و « يوسف بك كرم » ، و « امير لبنان وكسرى » ، و « رجل الغابة السوداء » ، و « البطل الاخرس » ، و « الاعمى البصير » ، و « ملك الديماس » ، و « الدنانير الحمر » ، فانما نشير بذلك الى امجاد ادبية أحيا فيها من مثاوي التاريخ اعلاماً من ابطاله المغاوير وافذاذاً من رجاله المشاهير ، بعثهم في مسرحياته احياء من لحم ودم .

ولما كان المطبوع من آثاره لا يتعدى عددها الأربعة وهي « النعمان الخامس » ، و « امير الارز » ، و « البطريرك حجولا » ، و « البطل المجهول » ، فقد نشرت « المشرق » مساهمة منها في تقييم فضله ، مسرحيتي « العمرين » ، و « شهداء نجران » ، كما خصصت

عدداً خاصاً نشرت فيه دراسة للاديب اميل ابي نادر عنوانها « الخوري حنا طنوس : رائد الادب المسرحي في الشرق العربي » .

واليوم ، اذ تنشر مسرحية « يوسف بك كرم » التي هي في رأي مؤلفها — على حد ما صرح به قبيل وفاته — اكثر مسرحياته شعبية : فانما لنا غاية وامل . اما الغاية فان نذكر بالخوري حنا طنوس من عرفوه ، ونشوق من لم يعرفوه الى التعرف اليه في آثاره . واما الامل فان يطل يوم ترى فيه اديبنا الكبير يتصدر في مناهجنا التربوية مركزه بين رسل الكلمة وكهان الحرف . وفرسان الادب المسرحي العربي .

المشرق

الاشخاص

يوسف بك كرم	:	بطل لبنان
عمون بك	:	معتمد داود
بطرس توما		
جمعان عقل		
جمعان صالح		
اسعد بولس		رجال كرم
ابو حسون		
الشمتوم		
ابن دحدح		
ضابط تركي		
خمسة جنود لبنانيين		
داود باشا	:	اول متصرف على لبنان ارمني الاصل
المتطلب	:	شيخ لبناني
الطاب	:	افرنسي . قائد الجيش اللبناني
الياس موراد المعادي		
اربعة اعيان		
امين باشا	:	بلجكي . قائد الجيش التركي
خمسة ضباط اتراك		
البطريرك بولس مسعد		
القنصل الفرنساوي		(ديزسار) ، او (اوتري)
شماس		

الفصل الاول

المشهد الاول

(يوسف كرم — معتمد داود)

كرم قلتُ لك ، لو انطبقت هذه السماء على هذه الارض ، لا يرضى ابن كرم بما يمسّ كرامة لبنان .

المعتمد ارفض صداقة الحاكم الاكبر ؟

كرم انما ارفضُ ظلماً يلحق بوطني .

المعتمد اذا اذعنتَ لمشيئة المتصرف الشريفة ، شاطرتَه الاحكام فتصبح حاكماً على جميع النصارى من نهر الكلب الى جبل الشيخ .

كرم لا اقبل ملك الدنيا ، ولبنان مظلوم .

المعتمد وما ذنبُ المتصرف ، والدول العظام سنّت نظام الجبل الجديد .

كرم لستُ احتج على النظام الجديد ، وان كان فيه مدعاة للاحتجاج ، انما على الاقلام الستة احتجاجي . اما كفاهم الجرح حتى ذروا عليه الملح ؟ اما كفاهم ان نزعوا استقلالنا القديم ، وخفضوا رأس لبنان الشامخ ، وخلعوا عنه حلّة مجده الباذخ ، حتى طرحوا عليه قميص التقتر والعار ، وجلببوه بجلباب المسكنة والشنار . وطالما رفل ببرد العزّ والفخار ، وتوّج بمروج الخصب والاقبال ؟

المعتمد ان المتصرف يرغبُ في اعلاء شأن الجبل ، ورفع مناره ، وهو يسعى جهده بما يؤول الى الاصلاح ، ويزيد البلاد ثروة وحياة .

كرم ان كان ذلك صحيحاً . فما باله يضربُ ضرائب تنوء تحتها ظهور الناس ؟ ان كان ذلك حقاً ، فما باله لا يرجع عن عناده ، ولا يحيد عن تشبثه بالاقلام الستة . فقد افهمتُه أنها سم زعاف ، قتال ، تجمّدُ حركة الدم في عروق الزراعة ، وتلاشي موارد الارتزاق من البلاد ، وتخنق حياة الثروة في قلب لبنان .

المعتمد الا تعرفُ ان داود مستبد برأيه ، فهو لا يثني عن مرامه ، ولا يتحول عن قصده ، ولو كان دونه خرق القتاد ، والسيف الحداد ؟

كرم وهو لا يعلم ، ان كرماً مستبد بعزمه ، متشبث بحزمه ، وهو لا ينكص على عقبه ، ولو كان تحت قدميه اعماق الهاوية ، ونيران حامية ؟

المعتمد — بماذا اجيب مولاي ؟

كرم — امض وقل للمتصرف : لا يخلعُ كرم السلاح . حتى يخلعَ الليلُ النهار . او يرفعَ داود الاقلام . عن عاتق الانام . وان بقي مصرًّا على عناده . فليتأهب للاقاة الابطال . وتكبد الاهوال . بحرب تشيب ذوائب الاطفال .

المعتمد — تربّص للامر يا كرم . وتروّ بالعواقب . فاني لك من الاصدقاء المخلصين . والاولياء الناصحين . فلا طاقة لك قبل المتصرف . فإن جيوشاً تنصره . وانت لا ناصر لك . الا بعض الرجال .

كرم — الرب يعضدني . فلا ارهب ربوات الشعوب . اني عن الحق ادافع . وللمظلوم انتصر . وما خذل الله المتصرين للمظلومين . فانا واثق بالله . ورجالي . واللبنانيين .

المعتمد — ثق بالله ورجالك ما استطعت . لكن على اللبنانيين لا تعتمد . فهم احزاب . متشعبون بكلمتهم . مختلفون برأيهم . متزعزعون بعزمهم . وحياتك يعزّ عليّ ان اراك . وانت وحيد البلاد . وفخر العباد ؛ هدفاً لسهام اصحاب الاغراض . وذوي الغايات .

كرم — لا سبيل لاصحاب الاغراض ان تستهدفني . ولا طاقة لذوي الغايات ان تستخدمني . فما انا الا رجل رأى المظالم تغشى بني وطنه . فوقف في وجه الظالمين . وهو يصيح ، ردوا المظالم لحقها والا ...

المعتمد — ان لم تذعن . يصبح مالك : وحياتك وشرفك في خطر ...

كرم — مالي وحياتي . غبطتي وهنائي . عزي وشرفي فدى عنك يا لبنان . أن اذل انا ؛ وتعز انت . ان اشقى انا . وتسعد انت : انم اموت انا ؛ وتحيا انت ؛ هذا كل مناي .

المعتمد — افتحب مقابلة المتصرف ؟ فلعل بالمقابلة يزول سوء التفاهم .

كرم — ارضى بمقابلته ؛ على شرط ان لا تمس كرامتي بخفرته .

المعتمد — لا يمس احد كرامتك يا اكرم الناس . فيا اني اتصرف لافاوض المتصرف بالمقابلة ؛ فلعل الله يلطف بلبنان (يخرج) .

المشهد الثاني (كرم وحده)

(يظهر كل ما يقلبه من حب الوطن)

كرم
لبنانُ يا جنة الفردوس لبنانُ ... يا روضةً بناها الكونُ يزدانُ
لبنان يا بهجة الدنيا وزينتها ... شمسُ النهار وبدرُ الليل لبنان
لبنان يا مهبطَ العز الرفيع علىً ... فخرُ الزمان ومجدُ الارض لبنان
وصورة الحسن تسمو في محاسنها ... نور بهي لعين الحسن انسان
من رأوا انه الفردوس ما غلطوا ... كل البدائع فيه وهو بستان
بستان حسنٍ به الانهار جارية ... ومياهُ الشهد والخضراء مرجان
فيه الينابيعُ ما احلى عذوبتها ... فيه من الزهر اشكال والوان
نسيمه ينعش المدفون في جدث ... تحيا به عند لفظ الروح ابدان
اشجاره تملأ الدنيا بشهرتها ... الارز والسرو والشربين والبان
ثمار اشجاره فاقت بلذتها ... تين ولوز وتفاح ورمان
فهيكل الله كل الناس تعرفه ... بناه من ارز لبنان سليمان
وخمره قد غدا بين الورى مثلاً ... وقول توراتنا للناس برهان
هواؤه العذب يحيي الناس من عدم ... لذاك ينشا به للحرب فرسان
تنمو الرجال اسوداً في عرائنها ... وترضع اليأس ابطال وشجعان
مياهُه في ليالي الصيف صافية ... وبدرها حارس في الليل سهران
يرعى النجوم يطوف الليل مرتقباً ... شمس النهار كما يشتاق ولهان
ما اجمل الشمس في لبنان طالعة ... فوق الجبال بها الافلاك تزدان
ربيع لبنان باهي الحسن منظره ... شهر الخماسن في لبنان نيسان
وكل اشهره في الحسن باهرة ... تنأى بها عن قلوب الناس احزان
ان قيل : اي بلاد الله قد سبقت ... في الحسن . قلنا على الاطلاق لبنان
لبنان يا مهجتي . لبنان يا وطني ... تفديك لبنان اقطار وبلدان
كل المنى انت يا عزي ويا طربي ... تفديك لبنان ارواح وابدان
حالي ومالي ، حياتي كلها شرفي ... فداك . تفديك اقران وخلان
ما اسعد الحظ حظي لو سفكت دمي ... حباً بمن حبه في القلب نيران
اما تسودُ كما قد كنت من قدم ، ... اما اموت فدًى والقلب جزلان
لقد دحاك الله العرش مرتفعاً ... حتى السحاب فلا يعروك خذلان
ان رام خضعك اقوام فقل لهمُ : ... وراء لبنان آساد وثبان .

إلا اني في حيرة من امري . فقد وجيتُ بطرس توما ليجس لي نبض الانكار : ولم يرجع بعد . وان بعضاً من الاعيان ولج فؤادهم الحسد : وخامرهم ريب بعنائه نيتي : وهم يحسبون اني انما اصنع ما انا صانع : طمعاً بالسيادة عليهم : لا حباً بلبنان . ربي : انت عالم بسريرتي : عارف بطويتي . فلا مأرب لي في الدنيا سوى رضاك . ولا منية الا خير وطني . انعمت عليَّ بإملاك طائلة وانا وقفتُها لخدمتك ونفع بلادي . منّت عليَّ بالبأس والبسالة : وانا رهنت كل قوتي للذود عن شرف الدين : وحقوق الوطن . وفوق ذلك : فقد نذرتُ لك عفتي طول الحياة : وعاهدتُ عيني الا تنظر الى وجه عذراء : لئلا يعوقني عن خدمتك عائق : ويمنعني عن نفع عبادك مانع . ربي كن ناصري : فلا اخشى ريبات الشعوب . اني اسمع وقع اقدام (يتطلع الى الخارج) هذا بطرس توما (يدخل بطرس توما) .

المشهد الثالث

(كرم — توما)

كرم اهلاً : ومرحباً ! فما وراءك يا سبع الغاب ؟

توما يسلم رأسك يا سيدي . رأيتُ على الرصيف عساكر تموج كموج البحار .

رأيتُ بأم العين بحرين . واحد ... يموج بماء مزبد يثلج الصخرا
يثير جبالاً ترتقي صهوة الفضا ... وتهبط فوق الرمل تجعله تبرا
يحاول خرقاً للحدود تمرداً . ... فتردعه عن غيه قوة كبرى
فيرجع مذعوراً يعج مولولاً . ... فيحدث عند الشاطئ المد والجزرا
وآخر بحر من رجال تماوجوا ... على الرمل : في تعدادهم جاوزوا الحصرا
ترى الصارم البتار يسطع لامعاً . ... بأيديهم . في عينهم تنظر الجمرا
وخلفهم موج : وصوت ضجيجهم : ... كعاصفة هاجت فهيجت البحرا

كرم اما ارهبك منظرهم ؟

توما وهل ترهب الكلاب سبع الغاب ؟ وهل يخاف القمر من حنين الشجر ؟

كرم اما غمك عددهم ؟ اما همك هديرهم ؟

توما ما غم الباشق من كثرة العصافير ؟ وما هم جونية من هدير البحر ؟ !

كرم عشت يا سبع الغاب . لو كان لي الف من امثالك لافتتحن الارض كلها : مشارقها ومغاربها .

توما وانا بعشرة من امثال سيدي افتح السماء .

كرم دع عنك هذا . وقل لي كيف رأيت حركة الأفكار ؟

توما مثل تبريج النورية : اناس يحبونك . اناس يسبونك . غزير منقسمة الى حزبين والقسم الاكبر بجانبنا . غوسطا كلها من حزبنا . وقد تألبت جماهير في غوسطا من سائر القرى المجاورة . ولا تلبث ان تأتينا النجدات من كل الانحاء .

كرم ان الحزب المعارض في غزير يربيني .

توما لا يهمنا الحزب المعارض . لان الحزب الاقوى بجانب الحق . ولا إخال المعارضين يتعرضون لنا . بل جل ما يصنعون : انهم يتقاعدون عن نصرتنا ثم ان جمهوراً من غزير سوف يتألب وينقض على عسكر داود وهو يحدو باسم سيدي البك .

كرم ورجالي الأشداء ؟

توما على اتم ما يرام . وهم مجتمعون في سهل البوار : تحت قيادة الشيخ مخايل طربيه ، منتظرين اشارة من عميدهم : لينقضوا على الاعداء ، كما تنقض البواشق على العصافير . والنسور على الزرازير . وقد عبل صبرهم . وتاقت نفوسهم لقطع الرقاب . وحز الحلوق . وشرب الدماء . وقد التقوا وفداً من خمسة ابطال : ليبعثوا بهم اليك . ليلحوا عليك . لترخي لهم العنان وتفتح لهم الميدان .

كرم ومن الخمسة ؟

توما رجالك : سمعان عقل ، وسمعان صالح : واسعد بولس . والمعلوم : وابو حسون .

كرم رجال ؟ بل ابطال ؛ بل سباع . آه ما كان احناً البلاد . وما كان اسعد العباد . لو كثر في لبنان نظير هؤلاء العناديد .

اذا عُدت رجال الحرب يوماً فواحدهم يقوم مقام الف

فليأتوا . فاني مستعد ان انيلهم مرغوبهم . واجبهم مطلوبهم . (يسمع غناء من الخارج)

توما لبّيك . لبّيك . فعبيدك بين يديك . فها هم مقبلون ينشدون الأناشيد .

(تدخل رجال كرم وهم ينشدون) :

المشهد الرابع

الجميع الحرب حياة الابطال والسلم للمجد العالي.
سمعان عقل الفخر بنصال العسال والعز بمتن الصهال
والسكر بأحمر سيال من جرح دام هطال
الحرب دواء العدّال.
الجميع الحرب حياة الابطال والسلم للمجد العالي.
سمعان صالح ان هز الكف البتارا ارعبنا القوم الجبارا
ورجعنا الجو الدوّارا وجرونا الينا الاقدارا
فالحرب شفاء الجهال
الجميع الحرب حياة الابطال والسلم للمجد العالي.
ابو حسون الحرب محك الفرسان ومجال تباهي الاقران
وبحط رحال العربان ما احلى الموت بميدان
في الحرب مماتي احلى لي
الجميع الحرب حياة الابطال والسلم للمجد العالي.
الشمّوم الحرب مدام الشجعان ما احلى خمر الميدان
كم نشوان كم سكران استيت الموت واستاني
سيفي من خمر الابطال
الجميع الحرب حياة الابطال والسلم للمجد العالي.
توما تهتز الارض لبطوتنا يرتج الجو لعزتنا
ويريع الاسد بقوتنا ويهاب الموت لهيبتنا
ويبيد خنوف الانذال
الجميع الحرب حياة الابطال والسلم للمجد العالي.
اسعد بولس ما امر مهري في الحرب ما امضى سيفي للضرب
تخشاني فرسان العرب صيتي مشهور في الغرب
في وسحي هول الاهوال
الجميع الحرب حياة الابطال والسلم للمجد العالي.
سمعان عقل في قلبي نار تتلهب في صدري قد فار الغضب
سيحل بأخصامي العطب ما اعدانا الا حطب
نستخدمها للاشعال

الجميع الحرب حيـاة الابطال والسلم للمجد العالي .
ابن دحدح نحن الابطال الشجعان في يوم الهيجا فرسان
فتيـان مرد شبان فينـا تعتز الاوطان
وتقـول رجـالي آمـالي

كرم اني اشكر لكم حميتكم ، يا ابطال الحرب . ويا رجال الطعن والضرب .
سمعان عتل نحن رجالك يا بطل الدنيا . وما حيتنا الا شرارة من لهيب نارك ...
اسعد بولس نحن عبيدك يا كوكب الشرق ، وما حماتنا الا حرارة من اشعة شمسك ...
توما نحن اشبالك يا اسد العرين . وما بسالتنا الا صدى زئيرك ...
سمعان صالح نحن جنودك يا فارس الوغى ، وما هوسنا الا صليل سيفك ...
ابو حسون ما نحن الا اسرى ، فمنك قيودنا ، واطلق لنا العنان لنكر على الفرسان ، ونريهم كيف يكون الطعان ...
الشبوم نريد الحرب . نريد الحرب . نريد الطعن والضرب في لجة القلب ...
الجميع نريد الحرب . نريد الحرب ...
كرم قليلاً ، وانيلكم مرغوبكم . اما الآن فامضوا الى الرجال وقولوا لهم ، ليكونوا على اهبة القتال . (يخرجون وهم ينشدون : الحرب حياة)

المشهد الخامس

(كرم — اسعد بولس)

بولس ما بالُ سيدي مضطرب البال ، وما عهدته يقلق لشيء ؟
كرم ان موقف اللبنانيين تجاهي يقلق افكاري . فان لي اخصاماً واقفين لي بالمرصاد .
بولس اذا كانت البلاد برمتها في قبضتك ، فما عليك اذا قام على مرجل الحسد في صدور بعض الوجوه ؟
كرم انت لا تعرف اهل لبنان نظيري ، فقد عجمت عودهم . وسبرت غورهم . فوجدتهم ثلاث فرق : فرقة المتوطنين لا يهمهم الا ارضاء الحاكم ليثبتوا في وظيفتهم . وخراب لبنان ، او عمارته عندهم سيان . فيهمهم الوحيد بقاؤهم في منصبهم . وفرقة المتطلين الساعين وراء الوظائف والمناصب . فهؤلاء يبيعون اهلهم واملاكهم ودينهم ووطنهم بمنصب . ولو كان المنصب وتداً . فهؤلاء يضحون بمصالح لبنان على مذابح مطامعهم الفارغة . فهؤلاء يسفكون دماء بنيهم على اقدام المتصرف ليبتسم لهم ابتسامة . آه ، ما يجر

لبنان الى قعر هاوية الشقاء ؛ الا حب الوظائف والمناصب . فلا تقوم لبنان قائمة ما زالت هذه الآفة ضاربة اطنابها في جوّنا . وفرقة المستيقرين الواقفين على الحياد ؛ فيؤلاء . همهم راحتهم ؛ وهم اشبه بالاجانب الغرباء . انما آفة لبنان الكبرى التحاسد . قد فشا في الوجوه والكبراء في المشائخ والامراء . وسرى الى الآمنين والفقراء . فالويل للبنان من سم هذا الافعوان . فما نجح بلد ساد بين اهليه الحسد .

بولس اني ارى سيدي ابيك قد سها عن فرقة المتهوسين وعددهم كثير .

كرم ان عدد المتهوسين كثير الآن . لكن اكثرهم تخمد نيران هوسهم لاول بلاء يدهمهم .

بولس ورجالك ؟ أقليلوا أقوياء اشداء ؟

كرم رجالي اسود بقوتهم . واخصامي ثعالب بدهائهم وحيلهم . والدهاء يغلب القوة .

بولس ما سمعنا قط ان الثعالب تقوى على الاسود .

كرم ان البعوضة تُدمي مقلة الاسد .

بولس الا اسد لبنان !

كرم أجميع رجالي والقين بأنفسهم نظيرك ؟

بولس اما رأيتهم ؟ اما سمعتهم ؟ اما عرفتهم ؟

كرم نعم رأيتهم . سمعتهم . عرفتهم . فالنصر للواثنا معقود . والظفر فوق رؤوسنا ممدود . وانا سوف نقهر وبوات الجنود . (يسمع قرع الجرس) . ها ان جرس القداس يقرع . فاني داخل الى الكنيسة . وانت ماذا تصنع ؟

بولس فيما يصنع سيدي اصنعه (يخرج كرم ويدخل توما) .

المشهد السادس

توما اين سيدي ابيك ؟

بولس في الكنيسة يسمع القداس .

توما ان فرقة من جنود المتصرف آتية للقبض عليه . بادر اليه ونبهه .

بولس انا مبادر على جناح الطير (يخرج) .

المشهد السابع

(توما وحده)

توما ما اغدر بني البشر . وما امكر داود . من جهة . يراسلنا للمسالمة ؛ ومن جهة ؛ يرسل العساكر للقبض علينا . آه . قد وصلت جنود الباشا وكاد بطل لبنان يقع في ايديهم . (يدخل اسعد بولس)

المشهد الثامن

توما (لاسعد عند دخوله) اين سيدي البك ؟

بولس لا يخرج قبل نهاية القداس .

توما اما قلت له : إن الجنود كادت تحيط بالكنيسة ؟

بولس قلت له ذلك ؛ فأجابني : لا ابالي بالالوف ؛ فالرب عضدي وناصري .

توما فلنبادر اليه . فلنبادر اليه . والا هلك . (يخرجان)

المشهد التاسع

(يدخل رجال داود)

الضابط اين كرم ؟ فقد كان في هذا المكان ؟

جندي اول رأيت رجلين داخلين الى الكنيسة . فقد يكون كرم احدهما .

الضابط ادخل الى الكنيسة وانظر ؛ اما انتم فكونوا على حذر . فقد احاطت العساكر بالكنيسة من كل جانب . فلا مناص لكرم من ايدينا .

جندي أول (يرجع) رأيت يوسف كرم ؛ يصلي في الكنيسة ؛ جاثياً خاشعاً ؛ كأنه ملاك . وحوله رجلان . بل جبلان . بل اسدان . يسرّان اليه كلاماً بحدة واخاح . وهو لا يلتفت اليهما . ولا يحول انظاره عن المذبح .

الضابط فليصنع ما يشاء ؛ فان الله قد دفعه الينا .

جندي اول ان له هيبة تلقي الرهبة في القلوب .

الضابط ان كانت هيبته ترهب الاسود في غابها ، فأنا لا أخشاه .

ثان اذا كان جليات الجبار ؛ فلسوف يقطع رأسه سيف داود .

ثالث اذا كان فرعون مصر . فسوف تغرقه عصا موسى في بحر الدم الأحمر .

رابع اذا كان قيصر الروماني . فانا بروتوس ولسوف يطعن صدره خنجري .
خامس اذا كان نابليون الاول : فانا القائد الانكليزي : فلسوف اقبض عليه وآخذه اسيراً الى جزيرة الشيطان .
اول ما اسهل الحرب بالنظارات . وما اهون القتال بالكلام . فاني لا إخالكم إلاّ مولّين الادبار : من امام وجهه ، كما تفرّ الغزلان من امام الاسد .
الجنود صهْ . واسكت يا جبان !
اول انتم الجبناء .
الجنود سوف ترى فعلنا وبسالتنا .
اول يا لها من بسالة : مائة على واحد !
الضابط تأهبوا : واستعدوا ايها الرجال . فكرم خارج من الكنيسة .
الجنود مستعدون : متأهبون (يستل الجميع سيوفهم) الويل ثم الويل ليوسف كرم .

المشهد العاشر

(كرم يظهر في طرف الكواليس)

كرم (يستل سيفه ويقول) : وسّعوا المجال . يا انذال . افتحوا الدرب : لفارس الحرب .
(ترتجف ايدي الجنود . وتسقط سيوفهم على الارض فيمر يوسف كرم بينهم ، ثم يتبعه بطرس ترما . واسعد بولس ساحبين سيوفهم)
توما (بتهكم) لله درهم من فرسان اشجع من الغزلان !
الضابط ما اجبنكم !
جندي اول واتت : ما اشجعك . فأول ما شاهدته . ارتجفت يداك .
جندي ثان ان البرق يلمع من عينيه .
جندي ثالث ان صوته كالرعد .
جندي رابع ان هيبته كالأسد .
جندي خامس ان سطوته كملاك الموت .
جندي ثان ان هذا الا جن . فما هذا بشراً .
جندي ثالث هذا هو الشيطان الرجيم .
(يظهر كرم وترما واسعد وبولس)
توما بل هذا ملاك من السماء ، ظهر بصورة بطل في لبنان ليقهرَ الظالمين وينصر المظلومين .
بولس فويل للظالمين ، وويح للخائنين .

توما على الخائنين ... على الخائنين (تهرب الجنود)
(يريد ان يلحقهم توما وبولس فيمنعها كرم)

كرم اغمد سيفك يا بطرس . امهل يا اسعد . فلم تأتِ الساعة بعد .

توما وبولس دعنا نخز الخلوق. ونشرب الدماء .

بولس (هنا يقال اشعار)

توما

كرم عن قريب تنالان ما ترغبان . اما الآن ، فلنجتمع بالرجال ونذهب لتدبير الشؤون والاحوال .

ستار

الفصل الثاني

المشهد الاول

(داود — المعتمد — المطلب)

داود ما رأيت من كرم؟

المعتمد رأيت منه رجلاً جواداً كريماً ، يبسط كفه للندى . توسمت فيه سمات بطل شجاع ، يزدري الموت ، ولا يرهب الردى . رأيته وطنياً غيوراً على مصالح البلاد ، يتهالك في اعلاء شأنها ، ورفع منارها . رأيته ، مع ما عليه من الثروة الطائلة والغنى المفرط ، رجلاً عابداً ، لا يكترث لخيرات الأرض ، فهو اعفّ من الرهبان ، وازهد في خيرات الدنيا من الزهّاد .

داود ما رأيك فيه ؟

المعتمد رأيي ان تسترضيه ، تقربه اليك ، فيكون اعظم مساعد على انجاح لبنان . فهو نافذ الرأي . مسموع الكلمة . له السيطرة الكبرى على اللبنانيين . فهو في اعينهم بطل الشرق الوحيد .

داود كيف استرضيه فوق ما استرضيته ؟ فقد قلمت له ان يشاطرني الحكم . أفلم يرضَ ؟

المعتمد لم يرضَ .

داود ولماذا ؟ أفيريد ان انتزل له ؟

المعتمد انه يحسب الاذعان الى ارادة مولاي ، وقبوله المنصب ، اجحافاً بمصالح الجبل ، وهضماً لحقوقه .

داود اذن ، انا خائن ، مجحف بمصالح البلاد ، هاضم لحقوق العباد ؟ انما كفى ابن كرم ، انه افسد عليّ ابناء رعيتي ، حتى يظهرني بمظهر الخادع ؟

المعتمد مولاي ، ليست هذه نية كرم هنا .

داود وما نيته . وما يطلب اذن ؟

المعتمد يطلب رفع الاقلام الستة .

داود رفع هامتي عن عاتقي اهون من رفع هذا الاقلام . أفيحسبني قصبةً في مهب الارياح . تحركها كيف شاءت ؟ أفلست انا المتصرف الوحيد ، المطلق التصرف في الاحكام ؟ اوَلست محباً لبنان ؟

المعتمد لا ينكر احد عليك حق التصرف المطلق في الأحكام ، ولا حسن نيتك في رفع شأن لبنان . انما ننكر على مولانا سوء ظنه بكرم ، كما اننا ننكر على كرم سوء ظنه بمولانا .

داود تعجبني فيك حرية ضميرك ، وهذه الجرأة على التصريح بأفكارك . لكني اراك مخدوعاً بكرم . فهو يبغضني اشد البغض .

المتطلب لا عاش من يكره مولانا ، ولحى الله كرماً . فانه يمقته اشد المقت .

المعتمد لا يليق بمثلك نظير هذا الكلام ، ولا يسوغ لك الطعن على افضل رجل في لبنان .

المتطلب لك ان تعتقد ما تشاء ، ولي ان اعتقد ما اشاء . فمن حرصي على مصلحة مولاي وبلادي ، قلت ما قلت . فليس كرم كما يتوهم الناس ، رجلاً يتقد قلبه بنار الغيرة على الوطن ، فما هو الا رجل ذو مطامع ، تطمح نفسه الى السيادة ، ويتوق قلبه الى المعالي .

المعتمد كرم اكبر من ان يناله لسانك السفيه يا رجل اجاهل انت ام تتجاهل ؟ مَن اظهر غيرة في (الحوادث) نظير كرم ؟ من رهن املاكه الطائلة ، واستدان عليها ، وانفق ما استدان في سبيل اخوانه ، نظير كرم ؟ من بسط يده للاحسان على المنكوبين مثل كرم ؟ من هب لمساعدة دير القمر وزحلة قبل كرم ؟ فانه جمع الفي رجل ، وسار بهم لمساعدة اخوانه ، وعلى جميعهم كان ينفق من امواله ، ليس هكذا يكون الطمع . هذا التهالك بنفسه . والتجرد بعينه . حرام انكار الفضل ، حرام غمط النعمة .

داود　فؤاد باشا ، على ما اظن . يدفعه الى اثارة الثورة وتهييج الخواطر علي لأغراض سياسية .

المعتمد　لا يندفع كرم الا حبّاً بالوطن . وما علاقته مع فؤاد باشا ، سوى صداقة شخصية . ليس كرم صبياً جاهلاً فانه رجل ذو ذكاء وفهم . كيف يثيره فؤاد باشا ، ويرسل عليه النجدات لتقتله وتقتل رجاله ؟

داود　ما لنا وهذا ، فتى يأتي لمقابلتي ؟

المعتمد　لا أدري . ولا أحبه يأتي بعد ان حاول جنودك القبض عليه ، وأفلت من ايديهم .

المتطلب　اما انا ، فلا احبه الا آتياً ، فهو متغطرس يحب التظاهر بالبأس والشجاعة .

المعتمد　ما اقبح الحسد ، فانه يري الفضيلة رذيلة .

داود　ها ان الطاب قادم بشرذمة من الجنود ينبئنا بما جرى .

المشهد الثاني

(الطاب وجنوده وداود . والمعتمد . والمتطلب)

الطاب　السلام على مولانا .

داود　وعليك السلام . ما فعلت بكرم ؟

الطاب　أفلت من ايدينا .

داود　اما قلت لك لتحضره اليّ كرهاً ام جبراً ؟

الطاب　ما وقع نظره على رجالنا . حتى صرخ بهم صرخة هائلة : و افتحوا الدرب لفارس الحرب و . فزجت ايديهم ، وسقطت سيوفهم على الارض .

داود　يا لقوم الجبناء ! !

الطاب　هذه المرة لا يفلت من ايدينا ، وان صعد الى السماء السابعة .

المتطلب　على مولانا ان يلقي عليه القبض ، ويعاقبه اشد عقاب . ليعتبر كل من كان على شاكلته ، ويرتدع عن غيه كل من تجرأ ورفع عصا العصيان على مولانا .

المعتمد　بئس ما تثيره ايها الشيخ ، ان الناس في هياج عظيم ، ومعظم اللبنانيين من حزب كرم ، فمن الرأي والحكمة ان يلاطف مولانا كرماً كل الملاطفة ، ويجامله كل المجاملة ، ليستميله اليه ، فيستميل معه كل اهل لبنان . فيتسنى له اذ ذاك كل اصلاح يريده .

المطلب لا يحسن بمولانا الا ان يشدد الوطأة على كرم . لئلا يحسب الحلم جبناً . والرفق رهباً .

داود اني آتيه من كل وجه فان نجحت المجاملة والملاطفة ؛ والاّ فبالعنف والشدة آخذه .

المعتمد فليذكر مولانا اني عن لسانه امنته .

المطلب للسيلي المطلق ان يصنع كل ما يعتقده موافقاً ؛ ويراه مناسباً .

المعتمد ان لم يكن الشرف حائلاً بينه وبين معتقده .

الطاب ان كرماً آت مع رجل من رجاله .

داود (يقف) كنْ مستعداً عند الاشارة .

الطاب انا مستعد لاول اشارة .

المطلب فليجلس مولانا . واذا دخل كرم . لا يحتفل به ؛ مكترثاً له ؛ ولا ينهض اجلالاً وتكرمة . وانا صانع مثله . (يجلس داود والمطلب)

داود صدقت سابقى جالساً .

المشهد الثالث

(كرم – بطرس نونا)

(اول ما يدخل كرم ينهض داود متعباً على قدميه ويضع يده على جبينه كالسلام التركي . وكذا يصنع المطلب)

المعتمد (على حدة) يا لشدة هيبتك يا ابن كرم .

داود السلام على البطل كرم .

كرم وعلى مولانا المعظم افضل سلام .

داود اني دعوتك ايها البطل لأعرض عليك ما تشاء من الوظائف .

كرم اني اشكر مولانا فضله . فأنا في غنى عن كل وظيفة .

داود ما بالي اتقرب اليك ؛ وانت تتباعد عني ؟ اتودد اليك . وانت تنفر مني ؟ اظهر اليك الحب ؛ وانت تظهر لي البغض ؟

كرم اني لا أتباعد عنك ؛ ولا انفر منك . ولا اظهر لك حقداً .

داود ان كان ذلك الامر كذلك ، فلمَ تثير عليّ الجماهير ؟ ولم أتيت إليّ بألف رجل مدجج بالسلاح لتحاربني ؟

كرم انا ما أثرت الجماهير . هم هاجوا من تلقاء انفسهم ، لما حاقهم من المظالم ، ودعوني لأكون رئيساً عليهم فلبيت دعوتهم . وما اتينا لنشهر عليك حرباً ؛ انما

اتينا نقول لك : قد أثقلت عاتق اللبنانيين بضرائب لا يطيقون حملها . خفف من الضرائب يا داود فتريح نفسك وتريحنا . ارفع الاقلام الستة . فترتفع من لبنان كل ثورة ويعود السلم . حرام خنق البلاد . حرام قهر العباد . حرام قتل الثلاح .

(اصوات من الخارج) فليحيَ كرم . فليحيَ كرم .

داود (يقترب من يوسف كرم ويضع يده على كتفه) فليطب خاطرك يا كرم .

(علامة للقبض عليه) (يهم الطاب ويجذوه بسحب سيوفهم . يسل كرم سيفه قبل ما يضع داود عليه يده)

كرم دسيسة ومكيدة (يبتعد الى طرف الكواليس . يتبعه المعتمد والمتطلب)

داود اقبضوا عليه (يخرج)

توما (يسل سيفه) من يحسب نفسه رجلاً فليتقدم .

كرم الويل لمن يخطو خطوة .

(اصوات من الخارج) فليعش كرم . فليعش كرم .

المشهد الرابع

(تدخل رجال كرم وتخرج رجال داود)

الجميع دعنا نضرب الطاغية . دعنا نحظى بالظفر .

توما امهنـــدي يـــا منيتي فتى يبلغني المـــرام
بمضاء نصلك بغيتي في حدك الموت الزؤام

الجميع امهندي نلت المنى فاليوم يوم الانتقام

سمعان عقل يا من يخمّد جمرتي ولهيب نار في اضطرام
يـــا من يسكّن لوعتي وشديد بغض في احتدام

الجميع امهنـــدي نلت المنى فاليوم يوم الانتقـــام

اسعد بولس فلكم ستبتلك دمعتي من عين حقد لا تنام
فعليك انقي عهدتي في اخذ ثأريَ والـــلام

(يسمع اطلاق بارود)

كرم ما هذا ؟ ما هذا ؟

النمنوم (يدخل) ان فرسان الدرغون اطلقوا النار على رجالك ونشب القتال .

كرم على الاعداء ايها الابطال على الاعداء . (يخرج)

الجميع عليهم يا رجال ، عليهم يا ابطال . (يخرجون وهم ينشدون) :
يا ما حلا ، يا مـــا حلا ، شرب الدما ، يا ما حلا .

المشهد الخامس

(يدخل المعتمد والمطلب)

المعتمد يا لها ورطةً اشبها في لبنان عسكر الدرغوث . ما كان اغنانا عن هذه الحرب . آه لو اصغيت الى نصائحي يا داود ؛ وتروبت ؛ وخففت الضرائب . آه لو وضعت الى اقوالي . يا كرم . وتأنيت .

المطلب آه ....

المشهد السادس

(جنود داود فارة في المسرح)

جندي اول بدار ؛ بدار ؛ الى الفرار . فان وراءنا اسد مغوار !

جندي ثان عينه تقدح شرار النار . وفي سيفه حكم الاقدار !

جندي ثالث يا له من جبار ؛ ان هزّ بكفه البتار ؛ لبّاه الانتصار !

جندي رابع بدار ؛ بدار ؛ الى الفرار . وان خفنا الذل والعار !

الجندي خامس العار والشنار ، خير لنا من الهلاك والدمار !

المشهد السابع

(كرم يظهر في المسرح لابساً عباءة وعليها زنار .
وعلى رأسه عقال حاملاً بندقية ويطلق الرصاص على الأعداء)

كرم خطوة الى الامام ؛ يا شباب ؛ ولنا الظفر .

اسعد بولس (من وراله) لبيك يا بطل الابطال .

كرم خطوة الى الامام ؛ يا شباب ؛ ولنا الظفر .

توما (يظهر على المسرح) لبيك ؛ لبيك يا رجالك حواليك !

كرم عليهم ! عليهم ! فان الله ينصرنا (تظهر رجال كرم)

الجميع عليهم عليهم فان الله ينصرنا .

المشهد الثامن

(تحوريب) الله تعـالى ينصرنا بجميع الاعدا يظفرنا
بطل مغوار يأمرنـا ما من انسان يقهرنا
من يقهر رب الابطـال !

المشهد التاسع

(المعتمد والمتطلب يرجعان الى المرسح يعبثان القتال)

المعتمد اسد كرم ؛ واعداؤه ارانب .
اسد اراه في اشتبـاك مع الارانب في عراك
وزئيره رعـد السما في برق عينيه افلاك
ورصاصـه كشواظ تنقض من دون انفكاك
ودخانه سحب ؛ علت في الجوّ ، فاسود السماك
فانهال سيل من دم وغدا الفوارس في ارتباك
فرسان يوسف كالاسود اذا عراهـا الاحتكاك
وجيوش داود غدت في شر خزي وانتهاك
فالبعض ولّى هارباً والبعض صار بلا حراك
ولقـد تبدد شملهم كالغيم بدد في سماك
مـا النار تفعل فعلها المعروف في حطب الأراك
كفعال يوسف في العدى واسـوده بالاشـتراك
يا ويح جيش قد حكى سمكاً تعلق في شباك
ما منجل الحصاد تخلب السنـابـل بـانهماك
كحسام يوسف ضارباً اعنـاق ابطال العراك

المتطلب (سرًا) اين النجدة ؟ ما بالها قد ابطأت . لقد نفد صبري وضاقت انفاسي .

المعتمد دارت الدوائر على عسكر داود .

(يسمع حداء في الخارج باسم يوسف كرم)

(تحوريب) يا يوسف السامي المقام يا ابن الاماجد والكرام
حكّم رماحك والحسام في رأس داود الظلام

المعتمد ما هذا الغناء ؟ هذه نجدة جديدة تنجد كرماً .
المتطلب سقياً لك يا قلبي . ما هذه الا نجدة وافت تنجد داود .
المعتمد اما تسمع الغناء والاناشيد باسم كرم ؟
المتطلب هذه دسيسة !
المعتمد أبلغ الخداع في لبنان الى هذا الحد ؟
المتطلب انظر . فانها تطلق البنادق على رجال كرم . وقد احاطوا بهم كما تحيط السوار بالمعصم .
المعتمد قبحاً لخونة ! هذا ما كنت اخشاه .
المتطلب لا شئت يمينهم ؛ هذا ما كنت اتمناه .
المعتمد ما هكذا تكون حرب الابطال .
المتطلب ما كرم الا متمرد . وكل وسيلة لأخذه حلال .
المعتمد اني ارى فارساً في طليعة كرم قد وقع صريعاً على الحشيش .
المتطلب هذا فارس فارس في لبنان . هذا عنتر ابن شداد . هذا ابن زي يزن . هذا اسد العرين . هذا الشيخ خليل ابي طربيه .
المعتمد وآسفي عليه !
المتطلب وقد سقط فارس ثان .
المعتمد اتعرفه ؟
المتطلب هو بولس العشي ابن اخت يوسف كرم .
المعتمد يا لوعة قلب خاله !
المتطلب فليذب قلبه بنيران الكمد . عساه يخفض شيئاً من كبريائه .
المعتمد لا شماتة في الموت ؛ فاني لا احتمل مثل هذه الدناءة .
المتطلب ان كرماً ينادي رجاله : كفوا عن القتال .
المعتمد بقيقرت رجال كرم !
المتطلب انها آتية من هذه الناحية . فلنتصرف (يخرجان)

المشهد العاشر

(يدخل كرم ورجاله)

كرم اجمع الرجال يا ابا حسون . وارجع بهم الى البترون .
سمعان عقل أتفر من وجه العدو ؟ !
كرم انما من وجه الخيانة افر . كان قصدي اسعاد البلاد . ليس اتلاف العباد .

واحر قلباه على الاسدين . وددت لو فقدت حياتي ، وخسرت اموالي ، واملاكي ، ولا نظرت البطلين ، صريعين على الحضيض ، مخضبين بالدم .
يا ليتني سفكت دمي فدًى عنهما . كم من مرة توسلت الى الله قائلاً : ربي ، خذ حياتي ، وحسن حياة رجالي (يسكت حزيناً ويضبط نفسه عن البكاء)

اسعد بولس واحسرتاه على اوس وغسان لبنان !
سمعان عقل لو كانا يفديان لافتديتهما بنفسي وعيني .
سمعان صالح لو كانت النفوس تباع وتشترى ، لاشتريتُهما بنفوس الناس اجمعين .
ابو حسون لو كان يقبل الموت فدية ، لفديتُهما بامي وابي وبني .
النسنوم لو فداهما الموت لفديتهما بجميع اخوتي .

اسعدبولس والرعشاه على الابطال واحزني يا ليث اذ ادرجوك اليوم في الكفن
سمعان عقل من للاعادي اذا ماحربنا اشتبكت ، يا فارس الخيل بل يا فارس الزمن
سمعان صالح حتام يا موتُ تأتي عند غفلتنا كاللص تسرق منا غالي الزمن
ابن دحدح لقد رهنتَ لدى الايام انفسنا وانت تأخذ منها خير مرتهن
النسنوم لو كان من فدية جدنا باجمعنا بالمال والاهل ثم الروح والبدن
توما بطلا المعارك بالملا اشتهرا حازا المحامد والعدى قهرا
رفضا المظالم والردى احتقرا وذلا الظلوم وظلمه دحرا
كرها حياة الضيم والقهر

(اسعدبولس والجميع معاً) (بصوت محزن)

قتل الظلوم شبابنا حسدا ضرب القنابل مزّق الجسدا
موت الاسود ببيع الاسدا هجنا وثرنا ايها الشهدا
حزناً على من مات بالغدر
طاغي البلاد طغى على الشرفا قبحاً لـه قبحاً لما اقترفا
جعل الفوارس للردى هدفا سقطوا وصوت في الملا هتفا
نوحوا على من مات بالمكر

ستار

الفصل الثالث

المشهد الاول

(في دير مار يعقوب كرمـده)

المتطلب (يجده يتطلع الى خارج من النافذة)
ما لكواكب تلحظني شذرا؟ وترمي الي عيونها الخزرا؟ ما للافق محمرّا؟ ما لي لا ارى في الفلك الدوار . الا شرارًا وجمرا؟ كان الاتفاق يحدث امرا . وليس الامر الا شرا . ما للغربان تحوم في الجو من اليمنى الى اليسرى .

(يسمع صوت كصوت الغربان والبوم)
ان صوت البوم الأبح . يشرم الآذان . ونعاق الغربان الاشج يبشر بالاشجان . وما للبوم يتصور منها كالاكفان؟ ماذا تلد لنا الليالي الحبالى؟ ماذا يعدّ لنا الزمان؟ فان في السماء الدليل والبرهان على شر الحدثان . (غناء من الخارج تنشد بيوت عتابا حماسية في يوسف كرم)

(لازمة) بيكنـا يا بيكنا يا بيكنا تقهر الاعدا وتبقى بانيا
قاهر الفرسان في يوم الوغى فارس الميدان سفاك الدما
واهب الاحسان في هذا الحمى ربنا اعطاك غايـات المنى
(عتابا) ايوسف بك يا سيفاً ماضي وفي حسام العدا والنحر ماضي
تفوق الناس من حاضر وماضي بيوم الحرب تحز الرقاب

المتطلب تغنوا بالاغاني . اهزجوا بالاناشيد . والله لأجعلنّ يومكم اشد سوادًا من وجه العبيد . ارفعوا يوسف كرم الى اوج المجد . فاني بكيدي احطه الى اسفل دركات الذل . فانـا الذي دبرت مكيدة الرصيف . ذ بثت روح الخيانة في قلوب بعض البنانيين . وانا الذي اشرت عليهم ليحدوا باسم كرم . وانا الذي اوعزت الى داود : ليبث الجند على طريق غزير ، ليمنع عن كرم النجدات . وهكذا كسرته لاول مرة . ولسوف اقهره بكيدي الف مرة . وذلك ارواء لغليل حسدي . فاني ابغضه . لان جميع الناس تحبه . احتقره لان الانام تتقدم له ارفع المناصب . فيرفض . لا احتقارًا للوظائف . ولا حبًا بلبنان ، لكن بغضًا بداود . وطمعًا بمنصبه

الرفيع . وانا اتذلل جانياً على الاقدام . متذرعاً بكل واسطة : من رشوة وسياسة ؛ ولا احصل على ما يرفضه كرم . لذلك اكرهه ؛ واعمل جهد استطاعتي لاحمل اللبنانيين على بغضه .

(غناء عتابا من الخارج)

المتطلب آه كدت اختنق غيظاً ؛ واموت حنقاً ؛ آه اني صرت احب خراب لبنان . بغضاً لكرم ، واسعى وراء اهلاك اللبنانيين ، لاهلاك كرم . وفي هذا الليل ، سوف ارى الدم يجري في كل الاودية ، وتطيب نفسي : اذ ارى يوسف كرم مذللاً ، مكبلاً كآخر المجرمين .

وافى ضيفي اهلاً بالضيف : ضيفي موت ذبح بالسيف .
خرّق ؛ حرّق . اضرم نارك . هدّد بدّد . ادرك ثارك .
انحر واسكر . واسبح بالدم . ارتع واشبع . كرعاً او شم .
فدم الاعدا خمر احمر . اسكب منه ؛ واشرب واسكر .
ودم الاعدا عطر الأنف . فاشمم منه القي الف .
ودم الاعدا يجري نهرا . منه الدنيا تمسي بحرا .

اما الآن ، فعليّ ان اجتمع بدرويش باشا ، وانصب المكايد لكرم ، بدون ان يشعر احد بشديد بغضي . وكما اشربت داود بغضه ، هكذا ابث سم بغضي في قلب درويش . فقد استدعى يوسف كرم ليصلح حاله مع الدولة ؛ وهو لا يلبث ان يصل الى دير مار يعقوب (يخرج) .

(يدخل الياس مورا واربعة صبيان يتابعون الغناء)

المشهد الثاني

الصبيان يكنا يا يكنا يا يكنا تنهر الاعدا وتبقى بالهنا .
الياس مورا طيب الله انفاسكم !
صبي اول اصحيح ان يوسف بك كرم ، يأتي الى دير مار يعقوب في هذا الليل ؟
مورا نعم وفي هذه الساعة .
صبي ثان فاذا وصل ماذا نصنع ؟
مورا نظمت له قصيدة في التهليل العامي ، انا انشد القصيدة وانتم تراجعون ورائي .
صبي ثالث آه ان قلبي ذاب بمحبة يوسف بك كرم !
صبي رابع من لا يحب يوسف بك كرم ؟

صبي اول ابليس لا يحبه .
صبي ثان والحسود يبغضه .
صبي ثالث وداود باشا لا يطيقه .
صبي رابع لانه احسن منه وأقوى .
صبي اول اصحيح ان يوسف بك كرم لا يؤثر فيه الرصاص ؟
صبي ثان الرصاص لا يصيبه . فكيف يؤثر فيه ؟
صبي ثالث كيف يصيبه الرصاص وهو حامل ذخيرة عود الصليب .
صبي رابع كنا نزل مرة الى الحرب : تحضر مريم العذرا ، وتقف حوله . وتبعد عنه الرصاص بيديها .
صبي اول لاي سبب تحبه البتول ، عليها السلام : بهذا المقدار ؟
صبي ثان لانه سمّي يوسف البتول : خطيب مريم العذراء .
صبي ثالث لا . لا . بل لانه اطهر من الملاك . وهو بتول .
صبي رابع تقول الناس : ان كل حياته ما نظر الى وجه امرأة .
صبي اول انا اريد ان ابقى بتولاً حتى اصير شجاعاً مثله .
صبي ثان تصير مثله : فهو اشجع من عنتر .
صبي ثالث واقوى من الاسكندر .
صبي رابع واقوى من كل قيصر .
مورا اسكتوا فها هو داخل .

المشهد الثالث

(يدخل يوسف كرم وبطرس توما . واسعد يونس . ويبقى الياس مورا والاربعة صبيان . ويركض الصبيان ويقبّل يد كرم)

مورا آيأذن لي مولاي ببيت قصيد ؟
كرم قل فانا احب الشعراء .
(هنا الياس يقول والاولاد ترد عليه)

الياس تهلل لبنان وترنم بتشريف يوسف بك كرم
جبل لبنان كان متعوب اما اليوم نال المرام .
الصبيان اما اليوم نال المرام
الياس جبل لبنان كان متعوب ولحد هالغاية منضاق
صبرنا اكثر من ايوب وذقنا من مرار العلق

لرؤيا نور وجه المحبوب كل منا كان مشتاق
انفرج يا قلب المكروب الله يهنيك بالسلام.

الصبيان الله يهنيك بالسلام.

الياس اليوم المتضاق انفرج وزلغطت الحزينة
ونزلت على سوق حرج تشتري صيغه ثمينة
الاعدا تجي وتتفرج على فرحتنا والزينة
الحزن من لبنان خرج وقبلاً كان بعده معتم

الصبيان وقبلاً كان بعده معتم

الياس وقبلاً كان بعده ظلام واشرقت فيه الشموس
وبشرت الحمامه ببيان جنة الفردوس
قد زالت الغمامة عن الاجساد والنفوس
اليوم عيد القيامه اما سنين المضيو صيام.

الصبيان اما سنين المضيو صيام.

الياس وسنين المضيو علينا كانت اجهاد واضطار
بفراقك يا افتدينا خاطر لبنان انكسر
برجوعك يا فادينا خاطر بلدنا انجبر
فديت ذاتك تا تفدينا من الشدة والظلام.

الصبيان من الشدة والظلام.

الياس من الشدة والبلا فديت البلاد المبلية
قمرنا المقمر انجلى واتسورت البرية
صوت صارخ بالعلى ابتهجوا يا لبنانية
وقدموا شكرًا وعلا للبتولية مريم.

الصبيان للبتولية مريم.

الياس للبتول ام الرحمان شفيعتنا سيدة النور
التي ردتنه بأمان من خطر لج البحور
زيدي سرورًا يا اهدن لانه اشرق فيك النور.
انشدوا ايها الصبيان بصوت عال ومترنم.

الصبيان بصوت عال ومترنم.

الياس بصوت مرتفع حنون وجبالنا الفرح فيك
افرحي يا ابنة صهيون في تشريف افنديك
وليفرح قلب المحزون ويشترك بتهانيك

فاحفظه يا رب الكون سيد مطلق في لبنان

النصيبان فاحفظه يا رب الكون سيد مطلق في لبنان

كرم طيّب الله انفاسكم : يا اقمار . اعط يا اسعد ؛ كل واحد منهم ليرة .

النصيبان (بصوت واحد) لا ! لا ! نحن لا نريد سوى رضى افندينا .

كرم الا تريدون مالاً ؟

النصيبان لا . لا . يا افندينا .

كرم وماذا تريدون ؟

النصيبان نريد نحارب معك . ليعرف كل انسان : ان النصيبان في لبنان شجعان .

كرم (يبتسم) لله دركم : ما اشجعكم ! ابشر يا لبنان بالنجاح . ان كان صبيانك هكذا . فكيف ابطالك . انتم صغار يا اولادي .

مورا ان كان هؤلاء صغاراً . فانا لست صغيراً .

كرم ما اسمك ؟

مورا اسمي الياس مورا المعادي .

كرم اي ربيع من عمرك بلغت ؟

مورا بلغت الربيع الخامس عشر .

كرم انك لا تزال صغير السن : قليل الدراية .

مورا بسالتي تعوّض عن صغر سني . وقوتي تقوم مقام درايتي . وكم من فتى امرد : لم تنبت حواشيه ادرى من شيخ كبير : شابت نواصيه .

كرم شاعر انت وباسل وفصيح : وعمرك كما ذكرت ؟

مورا الديك الفصيح من بيضه يصيح . والزهرة الزكية تفوح رائحتها العطرية قبل ان تتفتح .

كرم اني اخشى عليك من غدر الزمان وطوارق الحدثان .

مورا فليرمقني مولاي بنظره السامي : ولا يخشى عليّ سوءًا . جربني ترَ فعلي . وحسبي من الدهر غبطة . ان يكون حظي حظ مولاي .

كرم يعجبني من الناس الفصاحة والبسالة والفتوة . لقد قبلتك في حاشيتي يا فتى . فانت تكون من رجالي ومن اعزهم . ومن الآن استخدمك . امشِ واعلم امين باشا بخصوصي .

مورا تلك نعمة اقدرها قدرها : وسوف يرى مني مولاي ما يرضيه .

(يخرج الياس مورا والنصيبان منشدين)

المشهد الرابع

(كرم – توما – بولس)

توما ما يعتع مولاي ازاء امين باشا ؟

كرم اني اخلع سلاحي واسلمه سيفي . واستسلم اليه .

توما ولماذا ؟

كرم لاني سوّدت وجهي مع الدول : حباً بلبنان . ولم ارَ من اهليه سوى الخيانة والخداع . كفروا بجميلي . غمطوا نعمتي . جحدوا احساني .

توما لا تقل هكذا مولاي . فان الجميع يعبدونك كإله . ويحبونك كالمسيح . اما حسادك واخصامك فيعدون على الأصابع .

كرم ما يهم قلة عددهم ، ولهم السيطرة على الشعب ، والنفوذ على الدّجّ . فصوروني في اعينهم بصورة رجل ذي مطامع ، تمرد على الدولة ؛ ويمثلوني امام ممثلي الدول العظام : بهيئة رجل احمق متكبر . قصده طرد داود من لبنان ، ليستبد هو بالاحكام ، والله يعلم ان لا غاية لي الا رفع المظالم عن عاتق المساكين .

بولس كل لبناني يعرف حميد نياتك ، مولاي ، والكل يحلف بحياتك .

كرم والذين خانوا في موقعة الرصيف ، فأوقعوا ببطلين من ابطالي ، وشبلين من اشبالي ، غدراً ومكراً ؟

بولس قومٌ اغرار اغراهم بعض حسادك ، فاغترّوا ، وخدعوهم فانخدعوا ، وقد عضّوا الاصابع ندماً . لكن ما بال مولاي يذكرنا كل حين بموقعة الرصيف والخيانة ، وهو لا يذكر ان كل كسروان كان زاحفاً لنجدتنا ، وقطعت عليهم عساكر داود طريق غزير .

كرم اذكر ذلك . واذكر ايضاً ان رجالي الذين كنت اعتمد عليهم ، فرّوا من وجه الاعداء ، كما تفرّ الغزلان من وجه الصيادين . وبطرس توما كان اول الخائفين غمارها واول المنهزمين .

توما مولانا امر بكف القتال . اذ رأى الخداع ، فانكففت .

كرم انهزمت انت ، يا بطرس ، قبل ان امرت انا .

توما فرّوت حيلةً لأعيد الكرّة .

كرم بل فررت جبناً واشفاقاً على نفسك . وجزعاً من ورود حتفك .

توما اراك جهلتني وحقرت شأني وما قدّرت يا مولاي قدري
يعيّرني الكريم بجبن قلبي وقلبي قدّ من جلمود صخر
فقد علم الفوارس عظم بطشي وقد عرف الملا بالحرب كري
ايعرو فارس الهيجاء روع غداة الروع في كرّ وفرّ
شهدت مواقفاً دهراً طويلاً اليف بسالة وحنين نصر
فلم أخشَ الطعان لضعف قلبي ولكن قد خشيت وقوع غدر
وعاهدت القضا عبداً وثيقاً . فلا يجري القضاء بدون امري
رغمت الدهر حتى خلت اني يراني الله تأديباً للدهري .

ولسوف يرى مولاي فعلي في هذا الليل .

بولس ولسوف يرى فعل اسعد حين يرعد :

فما شأن الفوارس مثل شأني ولا فخر الملوك نظير فخري
فضلي شامل كل البرايا وسر الجو يفتات ببرّي
يحسدني الفارس المغوار سيفي وترس ثم درع ماه نحسر
وترسي الصبر والبتار زندي ودرعي كان في الهيجاء صدري
تهاب الاسد في الآجام كيدي وحوت البحر يرهب موج شري

كرم لا يزيّن القول الا الفعل .

اسعد وبطرس عند الامتحان يكرم المرء او يهان .

توما يظن داود باشا انه يخيفنا اذ ارسل علينا عشرة آلاف مقاتل مع امين باشا .

بولس وقد اصدر امره مشدداً بالقبض على مولانا : حياً ام ميتاً . لقد ساء ظنه . والله . اننا لنموتنّ الف ميتة . ولا تسقط شعرة من رأس مولانا .

توما تخترق سيوف الاعداء صدورنا ، قبل ان تبلغ اليه يد .

كرم اني اشكر لكما هذه الحمية وما ذكرت موقعة الرصيف الا لأختبر حماستكم ومروءتكم . فاذا هي هي كما كانت .

المشهد الخامس

الياس مورا (يدخل) ان امين باشا واتباعه داخلون .

كرم اهلاً بهم .

(يدخل امين باشا ومعه خمسة ضباط مع المتطلب والطاب)

(يتقدم كرم ويصافح يد امين باشا)

كرم اهلاً بالوزير الخطير ، والقائد الكبير .

امين باشا السلام على بطل لبنان الشهير .

كرم دعوتني فلبيت دعوتك . كتبت لي فبادرت على جناح السرعة اليك . فما يأمر المولى الكريم ؟

امين باشا قد كان لك ، يا كرم ، المنزلة الكبرى لدى دولتنا العلية وسائر الدول المتحابة . فأقاموك حاكماً على لبنان ، ثم اتفقت الدولة العلية مع الدول على ان يكون حاكم الجبل اجنبياً . فساءك ذلك ، فحركت السماء والارض ، واثرت الناس وهيجت الخواطر على داود .

كرم ليس ما بلغ المولى العظيم صحيحاً . لم انشأ من تعيين داود باشا حاكماً على الجبل ، ولم اهيج الخواطر على داود . انما ساء الجميع ظلم داود بزيادة الضرائب . فهاج عليه الناس . ولجأوا الي لأنصرهم على الظالم ، فنصرتهم .

امين باشا لا يليق بمثلك ، يا ابن كرم ، ان تنشر راية العصيان على الدولة العلية .

كرم اني احتج بكل قوتي على هذه التهمة الفظيعة . فانا من اصدق رعايا الدولة واخلصهم عبيدها . فحالما وصلت العساكر الشاهانية الى طرابلس ، اخليت لها زغرتا ، لئلا يبلغ اذاها الى احد . ثم لأعلن على رؤوس الملا اني لست متمرداً على الدولة ، كما يذيع اخصامي : انما نشأ شقاق بيني وبين داود . شكيته عن الظلم فلم ينته . فعمد الى قهري وتذليلي ، وهو لا يدري ان خراب الكون اهون من تذليل كرم وقهره .

امين باشا اما من سبيل الى المساواة بينك وبين داود .

كرم لا اهون من ذلك .

امين باشا شروطك ؟

كرم يلاشي الاقلام الستة ، ويلغي الضرائب التي زادها . يسير بالعدل والانصاف في الرعية . ولا يمسني انا ورجالي بضرر .

امين باشا وانت ما تبتغي لنفسك ؟

كرم لا ابتغي سوى رضى الدولة . وان اثار عليها الاعداء حرباً اسهل ان تجعلني في طليعة المقاتلة لاذود عن حرقيها ، واحمي رايتها ، واسفك دمي في سبيلها .

امين باشا حبذا البطل انت ، يا كرم ، ونعم الفارس . فانزع السلاح تصديقاً لما تقول .

كرم حباً وكرامة ايها المولى السامي (ينزع السيف) هذا الحسام ، ظالما تعود ضرب الهام ، اجعله رهناً بين يديك (يسمع صوت الشير)

كرم صوت نفير . ما هذا ؟

نعيما مولاي ، ان عساكر الدولة تفرقت الى اربع فرق ، وهي زاحفة علينا .

كرم حسامي (يستل حسامه الموضوع على الارض)
خديعة ، ويا لها من خديعة ! دونكم الخيالة يا رجال ! فلا ينفلت احد منهم .

اصوات (اصوات من الخارج) لبّيك . لبّيك ! عبيدك بين يديك !

امين باشا عليك الامان يا كرم . عليك الامان .

كرم انت عليك الامان . اذهب بسلام .
(الى الخارج) دعوا دولة الباشا ينصرف مع رجاله بأمان . ولا يلتحق بأحد منهم اذىً .

(اصوات من الخارج) دعنا نذبحهم . دعنا نقتلهم .

كرم (من الداخل) خلّوا سبيلهم ، فنحن أكرم منهم .
(من الخارج) حباً وكرامة . يا بطل لبنان .

المطلب (يقول لطاب على حدة) بعد ساعة . وافني الى هنا برجل من رجالك .
(تدخل رجال كرم)

المشهد السادس

(كرم ورجاله وإلياس موزا)

كرم قد نصب لنا الاعداء الحبائل ، واحاطونا من كل جانب . فلا تهابوهم . فان الله قد دفعهم الينا ، كما دفع اعداء بني اسرائيل ليد جدعون ورجاله الثلاثمائة . يا ابطال جدعون المختارين ، انتم ثلاثمائة ، واعداؤكم عشرة آلاف . افهل تخشونهم ؟ اهتفوا بصوت واحد : لا نخشى ربوات الجنود ، والرب معنا .

الجميع لا نخشى ربوات الجنود ، والرب معنا .

كرم يا رجال جدعون ، يا قلوب الحديد ، يا ابطال الوغى الصناديد . انتم اجنحتي ، بدونكم لا استطيع ان اطير في سماء المعالي . انتم انصار لبنان ، فان اخذلتم ، اخذل لبنان الى الابد . انتم اعمدة الوطن . فان سقطتم تهدم البناء ، وتهور في قعر هاوية الشقاء . من بين الالوف اخترتكم . وعلى الكثيرين فضلتكم . والى مثل هذه الساعة اعددتكم . على الله وعليكم جعلت اتكالي . فهل تخيبون آمالي ؟

اسعد بولس دماؤنا فداك ؛ وسيوفنا في صدر عداك .
الجميع دماؤنا فداك ؛ وسيوفنا في صدر عداك . (تسل السيوف)
كرم حلف داود ان يذلني ويذللكم ، وان يقهرني ويقهركم ؛ افترضون بذلك .
بولس النار ؛ ولا العار ؛ الموت ؛ ولا الذل .
الجميع النار ؛ ولا العار ؛ الموت ؛ ولا الذل .
كرم نهضنا نهضة الاسود للذود عن حقوق الوطن المهضومة . شهرنا البواتر للمدافعة عن الايامى والارامل والباشين . اما الآن ، فوقتنا احرج من كل المواقف . والباعث على استقتالنا في ساحة الوغى ، اقوى من كل البواعث . ليس موقفنا الآن للمناضلة عن حقوق لبنان ، ولا لنصرة المظلومين . نحن هنا ، للمناضلة عن اقدس الاشياء . فان وليتم الادبار . جعلتم عفاف بنيكم ، وشرف نسائكم في اشد الاخطار . فان انهزمتم من امام هؤلاء الكلاب ، دخلوا كل البيوت ، وانقضوا كالذئاب على النساء والبنات والصبيان وفعلوا ما ترتعد له الفرائص وتقشعر له الأبدان . دافعوا اذن عن حياتكم ، وحاموا عن شرفكم وشرف بيوتكم ، ناضلوا عن عرضكم وعرض عيالكم .
توما يا للحمية المارونية ! ويا للنخوة اللبنانية !

قد صاح سيفي هاتفاً في غمده ... اني ظمئت وموردي شرب الدما
اني صديت وصار لوني اغبرا . ... يا آل ودي فاصبغوني عندما
ان لم تنلني مأربي يا ضاربي ... هام العدا عند الكفاح فتندما
بولس مهري يصيح احبتي حال الوفا . ... قد حال دهري من ظروف الازمنة
يا فارسي فك اللجام وحله . ... واركب على متني وقل ما امته
ان كان يرهبكم عديد عداتكم ... ردوا علي في الكفاح الميمنة
سمعان صاح لا تثنني مولاي من بين الملا ... اني انا سمعان قهار العدى
يشتاق قلبي خوض ساحات الوغى ... كي اقهر الفرسان في يوم الردى
واعود من بين الالوف مظفرا
سمعان عقل فكأنكم لا تحسبوني فارساً ... مهري يسابق في المعامع داهما
كم شدت في علم الحروب مدارسا ... قلمي حسام لا يزال مماريا
خطا جميلاً بالنهى مسطرا
النسوم اني انا النسوم ، صيتي قد نما ... بين الفوارس لا يزال معظما
فخاصمي من ضربتي لن يسلما ... قد صاح سيفي في الغلاف ودمدما
قتل العدى بالحرب ليس محرما

ابوحسون اني ابو حسون ، في الهيجا بطل بسالتي يوم الوغى نلت الامل
فاذا دنوت من العدى حل الوجل واذا ضربت بصارمي يدنو الاجل
اسد انا في الحرب والخصم الحمل

كرم اني اشكر لكم هذه الحمية . واني واثق بتمام النصر والظفر ! فلا خوف من الخداع هنا ولا خطر . فليذهب كل واحد منكم الى رجاله . واما انت يا الياس فابق الآن في هذا المكان .
(يطرس تيما . يخورب ... تخرج يحان كرم معه وتخورب يا ما حلا ...)

المشهد السابع

الياس موزا (يحدد) ما اتعس حظي ! كأن مولاي كرماً لا يعتمد على شدة بأسي وهو لم يجرب مراسي . وانا اشعر من نفسي ، اني باسل . فهل ادع هذه الفرصة تفوتني ولا اظهر للناس بسالتي . (يسمع اطلاق بارود من الخارج) قد نشب القتال . دارت برأس كرم ورجاله حمية الشجاعة والبسالة . لله درهم . ما اقواهم . وما اشجعهم . مثلهم تكون الرجال . فانني لا اكون اقل شجاعة منهم بل اختلط بجموعهم واقاتل معهم (يخرج)

المشهد الثامن

(المتطلب . الطاب . الضابط الاول)

الطاب بئس ما فعل عسكر الدرغون . فانهم اسعروا نار الحرب . ولم ينبهوا احداً . فرجالي في زغرتا وقد بعثت اليهم ضابطاً ليوافوني الى وادي بنشعي . على اني لا افهم سياسة امين باشا وقواده .

المتطلب امين باشا معتمد على كثرة جنوده وقلة عدد خصمه . عشرة آلاف على ثلاثمائة .

الطاب ما لنا وهذا . قلت لي حتى اوافيك بعد ساعة الى هذا المكان فما بغيتك ؟

المتطلب عرفت ان داود باشا هدر دم كرم . وقد وعد بالف ليرة لمن يسلمه اليه حياً ام ميتاً . وانا جئت لاضيف عليها الف ليرة غيرها اذا كنت تسلمه ميتاً .

الطاب اني حلفت ان اسلمه الى داود حياً .

الضابط الاول ليس من الممكن تسليم كرم لا حياً ولا ميتاً . فهو اسد لا يهاب . وساحر يسحر الالباب . وما من حيلة لأخذه . فيد الرب معه .

الطاب انا لا اخذه بالحيلة بل بالقهر والقوة فأين يفرّ من امامي . فقد حلفت ان اكون اتبع له من ظلّه فاين يهرب الذئب من وجه الشمس (يسمع دق نفير) . هذا نفير العسكر الشاهاني يدق الانكسار . يا للعار ؛ يدار يدار ؛ الى العسكر اللبناني (يخرج مع الضابط)

المطلب قد انتصر كرم . فذب يا قلبي كمداً . واحترقي يا كبدي حسداً . ليس الحريق في الزرع اليابس ؛ يشبه ما يشبع رجال كرم بالعسكر الشاهاني ؛ فانهم كسروهم اي انكسار . ودحروهم اي اندحار . ولا يزالون يعملون السيف في رقابهم . ويتبعونهم في ورائهم . وهم يصيحون « امان جانم » « امان جانم » . (يسمع تهاليل من الخارج وتحويب) هذا كرم وبعض رجاله . (يدخل كرم واسعد بولس وسمعان صالح مسلولين السيوف)

بولس وصالح الحمد لله نلنا العز والوطرا يوم الكفاح وحزنا النصر والظفرا

النعوم وابو حسون وسمعان عقل (يدخلون بعد الاشعار وينشدون)

الحمد لله نلنا العز والوطرا يوم الكفاح وحزنا النصر والظفرا

كرم قد فعلتم فعل الابطال ايها الرجال . فما خاب من وضع عليكم اعظم الآمال . فيكم يحق الافتخار والمباهاة . فهل مات احد من رجالكم ؟

سمعان صالح ثلاثة شهدا لا غير . وقعوا في ساحة الوغى .

كرم رحمهم الله ، وجزاهم خير جزاء في السماء . وما حل بالأعداء ؟

سمعان صالح اما عن الاعداء فلا تسل . فقد قتل منهم اكثر من الف رجل واسر عدد وافر . وغنمنا منهم ذخائر لا تحصى من سيوف وبنادق ومدافع وجبخانة وخيل ومؤونة . وهلم جرا ...

كرم عشتم يا ابطال الحرب ويا رجال الطعن والضرب .

سمعان عقل اسد غضنفر . وسمعان صالح ابن شداد عنتر . اسعد بولس سيف علي الاعداء مشهر . لنعوم سطوة الاسكندر الاكبر . ولابي حسون بطش قيصر . لكن اين بطرس توما ليث العرين وسبع الغاب ؟

اسعد بولس انه فعل في هذا اليوم ؛ الفعل العجاب : فانه شد في اثر العساكر المنهزمة وهي تصيح : « امان جانم . امان جانم » وهو يجيب : انا المنتصر انا الغانم . وكان يدق البوق فتأتيه فرقة من العسكر فتحسب قائدها يدق النفير فتجتمع حوله ، فيشرع في ذبحها . كما يذبح الجزار الغنم .

سمعان صالح وعندما يفرغ من ذبحها يعود فيدق بالنافور فتأتيه فرقة اخرى فيصنع بها ما صنع بالاولى .

كرم رب صنه من كل اذى . واحفظه من كل شر .

سمعان عقل ها انه آت وهو حامل على كتفه مدفعاً .

(يدخل بطرس توما ويدخل وراءه الياس مورا)

توما. مورا الحمد لله نلنا العز والوطرا يوم الكفاح وحزنا النصر والظفرا.

كرم اهلاً بسبع الغاب .

الجميع مرحباً ببطل المعامع .

كرم ما الذي تحمله على كتفك يا أسد العرين ؟

توما هذا مدفع غنمته من المدفعية . هجمت عليها وحدي وحملت هذا المدفع على كتفي واتيت به الى سيدي (يضع المدفع على الارض)

كرم وما فعلت بالعساكر ؟

توما اثخنتها جراحاً . وبعثت اكثرهم الى مقر اجدادهم وما بقي منهم شتتهم شذر مذر . فما زلت اتبعهم الى طرابلس وهم يهتفون « آمان جاتم » وانا اصيح : انا الظافر انا الغانم .

كرم (يقترب اليه ليعانقه) تسلم ، تسلم ، يا سبع الغاب . (ثم يدنو منه اكثر من الاول ويقول) : ما هذا الدم على صدرك ؟

(تصرخ كل رجال كرم) دم على صدره !

توما لا شيء . فعندما كنت هاجماً لآخذ المدفع اطلقوا عليّ القنابل من كل صوب . فأصابت قنبلة صدري فجرحتني .

كرم ألا تؤلمك ؟

توما لا تؤلمني شديداً .

الجميع اما تؤلمك ؟ اما من خطر عليك ؟

توما مسألتي طفيفة . لا تهتموا بي ، بل اهتموا بأمركم مع داود . فما رأيك مولاي ؟

كرم اسمعوا ، ايها الابطال ، نصرنا الله على الاعداء هذه المرة . ولسوف ينصرنا الف مرة . لكن داود لا يزال يستنجد علينا عساكر الدولة ، فنقتلهم . وحرام نقتل رجال دولتنا . ناهيكم عما يسوّد وجهنا لدى المتبوع الاعظم ، بما يتهمنا من التهم الباطلة .

توما ما نحن قصدناهم . هم قصدونا . اتوا الينا ليقتلونا فدافعنا عن انفسنا . وقتلناهم .

كرم قلت ان داود استنجد علينا ثمانية آلاف الآن . ولسوف يستنجد الالوف المؤلفة فيقطعون عنا المؤن والذخائر ويضايقوننا .

سمعان عقل فما رأي مولانا اذن ؟

كرم رأيي ان أذهب الى بيت الدين شاهراً سيفي فاقبض على داود باشا فأخيّره . إما تنزّل . إما تقتل . يهلك واحد ولا يهلك الشعب كله .

الجميع حبذا الرأي . حبذا الرأي ! الى بيت الدين ! الى بيت الدين ! يهلك واحد ولا يهلك الشعب كله ! (يسحبون سيوفهم)

ستار

الفصل الرابع

المشهد الاول

المعتمد والمتطلب

المعتمد كيف رأيت كرماً . ايها الشيخ ؟

المتطلب لا تذكرني بكرم .

المعتمد ألا تصدق الآن ما كنت اقوله لك عنه . انه اشجع من عنتر . واقوى من قيصر . وابطش من الاسكندر . وادرى بمواقع الحرب من نابليون الاكبر .

آه لو كانت دولتنا تستخدم النصارى في الجندية . وتقلدهم الوظائف العالية . لكان اصبح اعظم قائد في هذا العصر . بل اشهر بطل وأكرم فارس ظهر في الدهر . ولكان اخضع لها ممالك الدنيا مشارقها ومغاربها فحربه لم يسبق لها نظير في تاريخ الحروب . فيد الرب كانت مبسوطة فوق رأسه . والمدد السماوي كان ظاهراً في كل مواقعه . ما هكذا تكون قوات البشر .

المتطلب اراك تطرئه مطنباً . وتثني عليه مغالياً .

المعتمد ثلاثماية بطل من رجال كرم فتكوا في موقعة بنشعي بثمانية آلاف جندي بقيادة امين باشا . وتقول اني اطنب باطرائي بسالة كرم ورجاله . اربعة فارس من فرسان الوغى قهروا اثني عشر الفاً في سبعل . ودحروهم دحرهم مع زعيمهم درويش باشا ، ومزّقوهم كل ممزّق . وبددوهم ايدي سبا

ولو لم يحتموا بمدينة طرابلس لابادوهم على بكرة أبيهم . وتقول اني اغالي بالثناء على شجاعة كرم وابطاله ؟

المتطلب ان كان كما ذكرت ، فلم عمد الى الاختباء بعد وقعة سبعل . وهو الاسد الغضنفر ؛ فدخل داود باشا احدث . فأحرق داره ونهب كل ما بها من الآنية الثمينة والاثاث الفاخر ؟

المعتمد لم يكن ذلك جبناً من كرم ، بل خوفاً برجاله . فلما سدت اعداؤه في وجهه سبيل المواصلات من كل جانب ، انقطعت عنه الذخائر ولم يبق لرجاله بارود فصرف جمهورًا منهم . ولم يُبق معه الا العدد اليسير .

المتطلب لذلك اختبأ من وجه العساكر . فلجأ الى البترون ومنها الى اهدن جبيل . فبشرى . فحدث . فأهدن ؛ فالعاقورة ؛ فعيناتا ؛ فالقبية فقرن ايطو . وكانت رجال الحكومة تطارده وهو يفر من امام وجهها .

المعتمد وفيما كان مختبئاً . اظهر بسالة تدهش الألباب ؛ وتسحر العقول . في الهجم كسر الطاب ورجاله بخمسة وثلاثين فارساً . في وادي القنور في منعطف لبنان من جهة بعلبك ؛ هزم الف رجل مع قائمقام بعلبك . بسبعة رجال . بسبعة رجال دحر خمسمائة رجل مع عجل يقين الكردي في عيناتا . في القبية . مزّق شمل علي اغاري ؛ وكان فرسان كرم ثلاثين ؛ وعدد الاعداء اربعماية . في قرن ايطو القت رجاله الرعب في قلوب عساكر خسرو بك وانصاره . وكان عددهم الفاً . ورجال كرم لم يتجاوزوا الاربعين .

المتطلب ذلك ضرب من السحر !

المعتمد قل ما شئت ، اما انا ، فاني أقول : ذلك مدد من السماء . ونصر من العلاء . كل ذلك عجيب غريب . انما اعجب العجب فيما جرى له في نبع جوعيت . فقد احاطه الف رجل فانحدر امامهم في وادي النهر ؛ فأقاموا له كميناً على الطريق التي بين سبعل وزيارة واتبعه الرجال على ضفتي الوادي ؛ ولما بلغ الكمين وايقن ان لا مناص له صاح بأصحابه ؛ وكانوا نحو خمسة عشر رجلاً : سيوفكم يا ابطال ! واستل سيفه ومشى على القوم المشتبكين في الطريق ؛ وحوله رجاله . فارتاع الكامنون وانحسروا من طريقه واجتاز من بينهم ومضى . وهكذا تملص من بين الف رجل سالماً ظافرًا . وفي كل مواقعه لم يفقد سوى ثلاثين رجلاً ، وقد قتل من اعدائه ثلاثة الاف رجل . اسمعت في مواقع العرب والعجم وفي حروب الغرب والشرق مثل هذه الحرب ؟ وهل رأيت بين الناس بطلاً مثل هذا البطل ؟

المتطلب كل هذا يزيدني بغضاً له وحسداً . لا طرباً له وعجباً :
المعتمد لست الوحيد في لبنان . فآفة اللبنانيين الحسد .
المتطلب ما لنا ولهذا ؛ فأين بلغت من قصة كرم ؟
المعتمد لما شمت نفس كرم الاختفاء ، هب متظاهراً على تبع جوعيت ؛ وتألب اليه نحو ثلاثماية شاب من نخبة رجاله ؛ فسار بهم في وسط البلاد. لا يعترضه احد ؛ بل رحب به الجم الغفير مارًا ببجة بشري . وبلاد البترون ؛ وجبيل ؛ وكسروان ، قاصداً داود باشا في بيت الدين . الى ان بلغ يكفيا بالف فارس وكان العسكر اللبناني يتبعه عن بعد . ولم ينحرش لقتاله الا في الوادي الفاصل بين كسروان وانقاطع المعروف باسم ميزان. بينما كان القتال مشتبكاً اي اشتباك وكادت تدور الدائرة على الطلب ورجاله .
المتطلب غبطة البطريرك ؛ وسعادة القنصل الفرنساوي وداود باشا . ونعوم افندي .

المشهد الثاني

(المعتمد . المتطلب . القنصل . البطريرك . الباشا)

(يتقدم المتطلب والمعتمد ويقبلان يد البطريرك جالسين على ركبتيهما)
(يجلس البطريرك في الوسط وداود عن اليمين والقنصل عن الشمال)

داود ما رأيك يا صاحب الغبطة في فض هذه المشاكل ؛ فقد اتسع الخرق على الراقع ؟
البطرك دولتكم ابصر وادرى .
داود فلتتنازل غبطتكم وتمدني برأيها الثاقب .
البطرك قد كتبت الى كرم ليكف عن القتال . ويحضر الى المقر البطريركي عاجلاً ، وهو لم يخالف لي امرًا قط .
داود وقد توسلت الى سعادة القنصل ليكتب له ويستميله من كل وجه .
القنصل وانا قد كتبت له ملحاً السيد الالحاح باسم دولتي وقد بعثت اليه بالعلم الفرنساوي ليخفق فوق رأسه دلالة على حماية فرنسا له .
داود ما العمل اذا لم يُذعن ؟ ما الرأي اذا لم يكف عن القتال ؟ لم يعد بوسعي احتمال هذه الحال . فان بقيت على هذا المنوال فانا مستعد ان انتزل . ان كرماً اعتد رجل عرفته . فاني لا اخاله يحضر .
القنصل انه سيحضر .

داود آه لو التفت لنصائحك يا عمون بك .

المعتمد لك يعلم يا مولانا . اني لم اشر عليك الا بما رأيته الرأي المناسب . ولكني لم اجد بك وبكرم عيباً . سوى انكما لم تتفاهما .

داود (يدل على المتطلب) لقد اغراني هذا الشيخ الخادع . فاغتررت . وخدعني . فانخدعت .

المتطلب مولاي . اتأذن لي ؟

داود صه . واصت يا مخادع . حسدت كرماً . وخدعتني . فحررت على بلادك اعظم البلايا . وسفكت دم الابرياء . فلسوف اقتص منك ؛ بمن امثالك . اشد اقتصاص . فانصرف مخذولاً .

المتطلب (يهم خارج) آه . كدت اختنق غيظاً وحنقاً .
(يدخل الشماس ويناول المتصل كتاباً)
(يفضه المتصل ويقرأ)

المتصل شرفني كتابكم الكريم . وانا حسب امركم حاضر اليكم باسرع من البرق . (كرم)

المتصل اما قلت لك يا دولة المتصرف انه يحضر .

داود عرفت انه كان قاصداً مركز الحكومة في بيت الدين ليفتك بي . فانصرافي من هنا أولى .

المتصل هذا الرأي الصواب . فان رؤية الخصم تثير كامن الحقد .

داود ابذلوا جهدكم في اقناعه بالابتعاد عن لبنان . ولو موقتاً . واجيبوه على كل مطالبه . بشرط ان يبتعد . آه . ماذا يقول عني التاريخ في مستقبل الأيام ؟ ان داود باشا . اول متصرف على جبل لبنان ؛ كان علة خرابه . وقتل اهليه والله . والله . ما كان قصدي الا خيرك يا لبنان ؛ ونجاحك . فما التفت لنصائح المخلصين ؛ بل انخدعت لمستطيبين الخادعين . اما الآن فلا يصلح الحال الا ابعاد كرم . فعلى الله وعلى غيظكم ، وعلى سعادتكم ، التي كل الاتكال .
(يخرج مع المعتمد بعد ان يخر ويقبل يد البطرك ثم يصافح المتصل يده)

المشهد الثالث

(القنصل . البطرك)

القنصل ما ترى غبطتكم كرماً صانعاً ؟

البطرك وما تراه سعادتكم ؟

القنصل اذا كان في قلبه يسود الطمع ، وتطمح نفسه الى المعالي ، فلا يرضى . واذا كان حب الوطن متغلباً على حب الذات فانه يرضى .

البطرك انك لا تجد رجلاً ، تمكن من قلبه حب الوطن ، نظير كرم ؛ كما انك لا تجد من تأصل في نفسه حب الدين والتقوى والشهامة والشرف ، وعزة النفس ، نظير كرم . فهو اعظم ماروني . وافضل لبناني ، واكرم شرقي في القرن التاسع عشر .

القنصل كبير هذا الثناء من فم غبطتكم على كرم ؛ ولقد عظم اعتباره عندي .

البطرك هو جدير بكل اعتبار .

القنصل ما قولك فيما فعل ؟

البطرك كل هفوة مصدرها حب الوطن تعذر . وكل زلة تغتفر .

القنصل ما رأيك في ابعاده عن لبنان ؟

البطرك لا ابدي رأياً بذلك البتة . فاني لا أرغب في ابعاده ولا احتج .

القنصل وما يمنعك عن ابداء رأيك ، وانت كوكب الشرق . وكل ضياء من نورك يستمد . وكل حكمة من اصابة رأيك تقتبس ؟

البطرك ان المقام حرج . والمركز البطريركي محفوف بالمصاعب . فان ادنى كلمة يزل بها لساني ، تتناقلها الالسنة ، وتضيف عليها الشروح والتأويلات فتلحق مغبتها كل طائفتي لذلك تراني اقول قليلاً .

القنصل وتفعل كثيراً .

(اصوات من الخارج فليحي كرم . فليحيّ بطل لبنان)

(اطلاق بارود بكثرة) .

البطرك ان كرماً قد وصل .!

(اصوات من الخارج) فليحي كرم ، فليحي بطل لبنان !

(يدخل كرم واسعد عقل عن شماله مستلاً سيفه ووراءه سمعان صالح وابو حسون والمنعوم وابن دحدح والياس مورا)

(اول ما يدخل كرم ينهض البطرك والقنصل)

المشهد الرابع

البطرك اهلاً باعز الناس : مرحباً بكرم .
(كرم يقبل الصليب ويقبل يد البطرك ثم يصافح القنصل وكذلك يصنع رجاله . اما من الخارج فحداء باسم كرم) .

القنصل مر رجالك ليسكتوا : يا كرم : لنتفاوض في مهمات الامور . بمشكلات المسائل .

كرم قل لهم يا سمعان ليسكتوا .

سمعان عقل ان الناس كتلة لحم . وتل رمل من المعاملتين الى بكركي . ومن بكركي الى جونية : ومن جونيه الى نهر الكلب . فلا يسمعون صوتي .

كرم قل لهم : يقول لكم يوسف كرم : اسكتوا : فيسكتوا .
(يظل سمعان عقل ويصيح بصوت عالي) .

سمعان عقل اسكتوا عن امر مولانا يوسف بك كرم .
(اصوات من الخارج : فليعش كرم . فليحي بطل لبنان) .
(اطلاق بارود بكثرة)

القنصل يا رجال لبنان : ان الدولة الفرنسية والطائفة المارونية متحابتان منذ اجيال . فقد ساعد الموارنة لويس التاسع ملك فرنسا القديس في حربه الصليبية . كما ساعدوا الفرنسيين في جميع تلك الحروب : لذلك لم تنس فرنسا المنة . فاتخذت هذه الطائفة العزيزة تحت حمايتها . وكم من مرة بسطت تلك الحماية فوق رأسها .

البطرك والطائفة مقرة بفضل فرنسة . حافظة لها الجميل . فمن عهد لويس التاسع الملك القديس : وفرنسا تغمرنا بالعوارف والنعم . فالملك لويس الرابع عشر جدد هذه الحماية واثبتها خطاً : بالكتابة والمواثيق . واعظم دليل على حب فرنسا للموارنة حمايتها لنا في المذابح الستينية : اذ ارسلت اسطولها وعساكرها الينا فوق لبنان واهليه من الموت والهلاك .

كرم فلا عجب في هذا الحب المتبادل . فنرنسا تسمي الموارنة فرنساوي الشرق . والموارنة يسمون الفرنساويين : موارنة الغرب . وذلك لان الفرنساويين مكثوا في الشرق اثناء الحروب الصليبية زهاء مائتي سنة . فاختلطوا بالموارنة بالزواج فامتزج الدم الماروني بالدم الفرنساوي . فاصبح الشعبان شعباً واحداً .

القنصل على ان فرنسة تحب بنوع خاص كل ماروني انفرد بمزاياه نظير كرم .

كيف لا تحب من اشتهر بغيرته على مصالحها في الشرق ومصالح طائفته .
كيف لا تحب من نصبته حاكماً على نصارى الجبل ؛ كيف لا تحب من يفتخر بكون عرّابه احد ملوك فرنسة العظام لويس الثامن عشر المشهور باسم لويس فيليب ؟ واظهاراً لحبها اياه قد اتخذته تحت حمايتها وأرسلت رايتها تخفق فوق رأسه كانها تقول للملا : إن كرماً فرنساوي ومن يمس كرماً فقد مس فرنسة برمتها .

كرم اني اقدر هذا الاكرام قدره ، مولاي .
التنصل احب فرنسة ، يا كرم .
كرم الله يعلم مقدار حبي .
التنصل كم مقدار حبك لفرنسة ، يا كرم ؟
كرم بعد لبنان ، احب فرنسة اكثر من نفسي .
التنصل اذا كنت تحب فرنسا ، فلم عملت عن غير رضى منها ؟
كرم لاني بعد الله احب لبنان . رأيت الظلم يحيق بوطني فرفعت صوتي . فنهض داود يريد أسري وقهري . ثم تذليلي وقتلي . والنفس الحرّة تأبى التعود على الذل ، والقيام على الضيم .
التنصل اذا كنت تحب فرنسة لا ترفض رغبتها .
كرم اذا كانت فرنسة ترغب في بذل حياتي فاني ابذلها رخيصة في سبيلها .
التنصل يا كرم ، ترغب اليك فرنسا ان تتنحى مدة عن جبل لبنان ، وتذهب اليها ، فتقبلك بكل تجلة واكرام .
كرم (على انفراد) اذن تدس لي الدسائس وتنصب لي الحبائل بكل لطف واحترام .
التنصل ما بك لا تجيب شيئاً ، أفلا ترضى ؟
كرم ان رضي الشعب اللبناني ارضى .
سمعان عقل لا ترضى ولو صارت السماء ارضاً .
رجال كرم لا ترضى ولو صارت السماء ارضاً .
(اصوات من الخارج) : لا نرضى ولو صارت السماء ارضاً .
فليحي كرم ، فليحي كرم .
كرم وان رضي غبطة البطريرك ؛ اعزه الله ، ارضى .
البطرك لا تحملني فوق طاقتي يا كرم . فمقامي يقضي علي بلزوم السكوت والحياد .
كرم ان رضي واحد من الجمهور الحاضر ارضى .

المشهد الخامس

(يدخل المتطلب بسرعة)

المتطلب انا ارضى ، واغلب اعيان لبنان ترضى .

سمعان عقل اسدد فاك . ايها الشيخ السفيه .

المتطلب ان وجود كرم في لبنان ضربة قاضية على البلاد . والطامة الكبرى على العباد . فيجب ابعاده وبنفي نفيه .

عقل وصالح صهْ . يا سفيه ، واسكت يا خائن .

المتطلب انتما السفيهان الخائنان .

عقل وصالح (يسلان السيف) ويل للسفيه . ويح للخائن .
(المتطلب يهرب) .

البطرك وكرم لا يا سمعان ، لا يا سمعان . لا تقتلاه .
(اصوات من الخارج) ويل للسفيه . ويح للخائن .

كرم (الى الخارج) لا تقتلوه ، لا تقتلوه ، حياً بالمسيح . لا تقتلوه .

سمعان صالح فليسلم رأس مولانا . فقد تناولتهم رؤوس السيوف ولم يبق له من اثر ولا خبر .

النسوم قد نال ما جنت يداه . وحصل على ما استحق .

ابو حسون هكذا فليمت كل عدو حاسد .

المشهد السادس

(المتطلب . كرم . البطرك)

المتطلب قل يا كرم . فيما تسأل ، يكن لك .

كرم اسأل عزل داود ، لانه جلب على لبنان شراً . اطلب بالحاح الغاء الاقلام الستة . وتخفيض الضرائب . وارجاعها الى ما كانت عليه . لانها ان بقيت على ما هي تفقر البلاد . وتكره الناس على مهاجرة الوطن ، وهناك الطامة الكبرى .
اطلب بالحاح ان لا يمس احد من رجالي بأدنى اذى فكفى اني فقدت منهم ثلاثين كان عزمهم امضى من السيف ، وقلبهم اقوى من الحديد .

كفى اني فقدت بطل الابطال وفارس الفرسان بطرس توما الاسد الغضنفر، وكان احب الي ان افقد حياتي واخسر اموالي ولا تفقد شعرة من رأسه .

القنصل رجالك ، رحمهم الله . ماتوا كراماً شهداء حبهم للوطن ؛ وسوف ينالون جزاءهم في السماء .
وكلما طلبت تناله . سوف نسعى بعزل داود . وتلغي الاقلام الستة . ولا تمس شعرة من رؤوس رجالك . بل يعيشون معززين .

كرم اشكر لسعادتكم همتها العالية وغيرتها السامية .

القنصل وانت يا كرم اما ترضى بالتنحي عن لبنان مدة يسيرة ، مراعاة للظروف الحاضرة ، وملافاة للشر ؟

كرم مهما يقل غبطته افعل .

البطرك لا اقول لك اذهب ، ولا اقول لك لا تذهب . فانت ادرى بما يناسب. على اني اشملك ببركتي حيثما وجدت .

القنصل قل . يا كرم ، فان رضيت ترضى عنك فرنسة والدولة العلية ، وتشملانك بالالتفات السامي ، وتغمرانك بالانعام ، وترجع عن قريب معززاً مكرماً الى لبنان .

سمعان صالح رضيت فرنسا ام لم ترض . غضبت الدولة ام لم تغضب . بارك البطرك ام لم يبارك . فكرم لا يفارق لبنان ..

كرم لا تقل هكذا ، يا سمعان . فما نحن الا عبيد مخلصون ، وشرفنا بالخضوع لاوامر الدولة ، نصرها الله ، ولمشيئة غبطته ، أيده الله ولرغائب فرنسا اعزها الله .

سمعان صالح ان خطوت من لبنان خطوة . يسير وراءك مائة الف حيثما توجهت ، فان خمسين الف نسمة من شيوخ وصبيان وشبان وبنات ونساء منتشرون من جسر المعاملتين الى جسر بيروت ، وهم يفدونك بارواحهم ، ولا تصل اليك يد قبل ان تطأ الارجل جثثهم الباردة .

سمعان عتل كنا مذهبون لأن نذبح على اقدام كرم . ولا ندع احداً يمس كرامته. فان كان لا بد من ابعاده . فاننا نبتعد معه ونتخلى لكم عن لبنان ، فاسرحوا فيه وامرحوا .

القنصل يبتعد ثم لا يلبث ان يعود . يتنحى برهة يسيرة ، برضاه ورضاكم ، ثم يعود اليكم سالماً غانماً .

المنتدبون وان كنتم تحسبونا رجال حرب وضرب ليس الا . فاننا نعلم سياسة الدول . تمرحون علينا بالمواعيد الفارغة ، لتنالوا بغيتكم . ثم تخلفون بوعدكم ، وتقولون هكذا قضت الظروف . ومتى طالبناكم بالوفاء تعلقون برجينا ابوابكم ، وتسدون آذانكم . فاننا لا نرضى بذهاب كرم وفينا رمق ...

(اصوات من الخارج) لا نرضى بذهاب كرم وفينا رمق .

ابو حسون ان كان لا بد من المنفى . فانفونا . وان كان لا بد من الابتعاد . فابعدونا . خذوا اموالنا واملاكنا واولادنا ، وابقوا لنا كرماً . احبسونا واذبحونا وليبق كرم في لبنان .

الجميع احبسونا واذبحونا وليبق كرم في لبنان .

(يتقدم كرم ويجثو امام البطرك ويتسارران مدة وجيزة . ثم يجثو ويقول له وهو يضم يديه) :

كرم بارك ولدك ، يا غبطة البطريرك المحبوب .

(ينهض ويقول) :

كرم اني اخضع لاوامر الدولة العلية ، ورغائب فرنسة ، ورضا غبطته . وابتعد عن لبنان .

الجميع ان خضعت انت ، فنحن لا نخضع ، وان رضيت ، فنحن لا نرضى .

المتصل طب نفساً يا كرم . فالمنفى يشملك ويشمل رجالك رضا الدولة وفرنسة .

كرم اني استحلفك بالشرف الفرنساوي ، ان تقوم بمواعيدك فتلغي الضرائب وتعزل داود . وتصدر العفو العام عن كل رجالي .

المتصل اني احلف بشرف فرنسا .

(الى الخارج) .

ان كرماً رضي عن طيبة خاطر بالابتعاد عن لبنان ، الى حين . ولكم ان ترافقوه الى بيروت للوداع لا كالرجل المنفي عن بلاده ، بل كالقائد المنتصر .

(اصوات من الخارج) ان رضي كرم بالابتعاد فنحن لا نرضى . لا نرضى .

كرم (الى الخارج) ابناء وطني ، واحبة قلبي ، اني اغادركم الى حين ، واعود اليكم . فاني اذهب عن لبنان راضياً لا مكرهاً ، فبحق محبتكم لي ، ومحبتي لكم ، لا تعارضوا اوامر الدولة .

احيائي اوصيكم بتمام الخضوع والطاعة وحفظ الهدوء والسكينة ، ومحبة بعضكم بعضاً ، والاتحاد التام ، فيما بينكم . لان بالاتحاد القوة . اما انتم ،

يا رجالي الكرام ، فقد اوصيت بكم غبطته : اعزه الله. وهذه وصيتي : ربع املاكي لرجالي ، والربع الآخر لاهالي اهدن . والنصف الباقي لمشروع خيري في سبيل الطائفة جمعاء . واراني الله وجبكم بخير .

الجميع　آه ، ما اكرمك ، يا ابن كرم ، وما اشرفك يا بطل لبنان !
(ينهض البطرك والقنصل) .

كرم　(يجثو امام البطرك) زودني البركة الاخيرة .

البطرك　(بكل تأثير) فلتحل عليك البركة الالهية ، حيثما وجدت يا اكرم الناس .
(ينهض ويعانقه) .

القنصل　(يصافح) أودعك يا كرم ، على امل المشاهدة في بيروت .
(يخرج البطرك والقنصل) .

المشهد السابع

(كرم ورجاله)

(مشهد عواطف)

قضى الزمان بهجر الاهل والوطن ، وبدّد الشمل والاصحاب واحزني .
قضيت بالعز عمري والهنا فرحاً ، فجاءني الدهر بعد العز بالمحن .
وهكذا الدهر لا يبقي على احد ، حتى يجرعه من حنظل الاحن .
فان بكيت ، فلا خوفاً ولا جزعاً ، لكن لحزني على الاصحاب والوطن .
حزني على وطن قدّيته بدمي ، حزني على بلد بالحب جنني .
قربت عنه حياتي كي احرره ، وما رضيت ذوو الشحناء والفتن .
لقد عشقتك ، يا لبنان ، من صغري فزاد حبك في قلبي مع الزمن .
فكنت عندي عزيزاً لا يعادله اعز ما يقتني من فاخر الثمن .
فلا ازال بنار الحب مستعراً ، اني احبك حتى ساعة الوهن .
فلست انساك طول العمر يا وطني ، ولست اسلو ولو ادرجت في كفني .
فان رجعت تعد للارز رفعته وان امت فاجعلوا لبنان مندفني .
وان امت فاجلبوا من غربتي جسدي ولو عظاماً تعرت من عرى البدن .
وحركوها ، تناديكم بقعقعة ، جيموا بلبنانكم بالسر والعلن .
احباب قلبي قضى دهري يفرقنا يا ويح دهر بغدر الناس مُفتتن .

ان غبت عنكم بجسم مضنه اسف ؛ تبقوا بقلب بمحض الحب مقترن .
الا اذكروني اذا ما شمسكم طلعت ؛ عند الصباح ، باعلى قمة الفنن .
الا اذكروني اذا ما شمسكم افلت عند الغروب بمرأى باهر حسن .
الا اذكروني اذا اسيافكم لمعت يوم الوغى فوق هام الصانعي الفتن .
قولوا السلام على من هام منشغفاً ؛ في حب لبنان ، طول العمر والزمن .
مني السلام على لبنان في وجعي ؛ مني السلام على لبنان في كفني .

متسار

حول ما كتبه اللبنانيون في ديار الاغتراب

بقلم الدكتور جميل جبر

توطئة مغامرة الاغتراب اللبناني لم تكتب بعد في فصول متلاحمة . انما هنا انعكاسات مشرقة في آثار اخوان لنا انتشروا منذ فجر التاريخ . تحت كل سماء : منها ما جاء سرداً طريفاً لتجربة حية ، ومنها ما تجسد في شعر رقيق يعبر عن امل ولوعة وذكرى ومنها ما اتخذ صيغة التزام لقضايانا الوطنية ، ومنها ما تجاوز التجربة الفردية الى قضايا كل انسان في كل عصر وزمن .

ويعنينا من هذه الآثار ، في بحثنا الموجز ، ابرز ما خطه القلم في كل موضوع ولغة ولون ادبي .

ولكن لا بدّ لنا في البدء من تحديد و المغترب » . انه حسب العرف الدولي ، كل شخص ترك بلاده واقام خارجها ، اما بشكل دائم واما لمدة طويلة ، تلبية لحاجات رآها ضرورية .

والمغترب اللبناني هو امين قصده هذا التعريف وكل متحدر من صلبه حتى ولو اكتسب جنسية جديدة .

وهكذا اعتبرنا امين الريحاني مغترباً رغم انه قضى عمره موزّعاً بين لبنان والخارج ، وجورج شحاده مقيماً مع ان نتاجه ظهر بالفرنسية وفي باريس لان اقامته في الخارج موسمية قصيرة . على اننا نظرنا في الحالة الاولى الى النتاج الذي وضع او استوحي في طور الاغتراب .

دراستنا هذه لا هي احصائية شاملة ولا هي اطروحة ضخمة تستنفد الموضوع اللامتناهي الابعاد ، بل هي نظرة عامة على اهم ما كتبه المغتربون منذ ابعد العصور حتى اليوم وقد توقفنا بنوع خاص عند المئة سنة الاخيرة لاتصال نتاجها بواقعنا .

وقد راعينا في تنسيم البحث مناطق الاغتراب بقطع النظر عن لغة التعبير وعن التسلسل التاريخي فبدأنا بالهجرة الى اوروبا وهي الاولى زمنياً . ثم الى مصر ثم الى العالم الجديد وسائر الاقطار البعيدة .

عسى بحثنا هذا يكون مدخلاً ، سهل المنال ، الى دراسة نقدية مفصلة جامعة ومفهرسة ومبوبة وحافلة بالمراجع والمصادر والتواريخ .

في اوروبة

اللبناني ميّال بفطرته الى السفر ، الى المغامرة ، الى ريادة المجهول ، فكأنه ، وقد خلق على رقعة صغيرة من الارض ، يأبى ، انتقاماً من قدره ، ان يكون مقره حدود غير حدود المعمور ولطموحه عنان الا المستحيل . وما اكتشافه اختراف وترويضه البحر للملاحة وتوسله النجوم لتوجيه الا تلبية لهذه النزعة . وما ابتداعه الابجدية سبيل حوار بين البشر الا ليذلل بعض اخطار مغامرته الكبرى . وهكذا كانت الهجرة الفينيقية اولى هجرة سجلها التاريخ . واستمر السفر بالنسبة للبناني من مستلزمات الحياة ، على تعلقه بارض الجدود .

لا شك ان الشأن الاقتصادي كان من الدوافع الرئيسية الى الهجرة اللبنانية منذ فجر التاريخ لكنه قلما انفصل عن الشأن الثقافي الاطلاعي تلبية لحاجتي الجسم والعقل . ويذكر المؤرخون ان الفينيقيين في العهد الهلنستي ، اي بين فتح الاسكندر والفتح الروماني ، اسهموا اسهاماً بارزاً في الفلسفة اليونانية ، لا سيما في مذهبيها الرئيسيين : الرواقي والابيقوري . ومؤسس المدرسة الاولى نفسه زينون ، هو فينيقي الاصل ، قبرصي الولادة ، (٣٣٥ — ٢٦٤ ق. م.)[1] وقد كتب باليونانية واللاتينية شارحاً نظريات افلاطون في السعي الى الاخوة الشاملة والسلام العالمي في ظل الدولة المثالية . وكان يولي في مذهبه الفضيلة والحقيقة المقام الاول فيرى ان من واجب الانسان ان يتحرر من نوازع طبيعته البدائية ليسمو الى الكمال . وكان زينون نفسه مثالياً في تصرفه فانعكست شخصيته على تفكيره .

لقد كان على حد قول اسماعيل مظهر « فيلسوفاً يونانياً بالواسطة وذا مزاج فينيقي » ويقول عثمان امين : « ان كان مضمون تعاليمه يونانياً الا ان نغمة صوته اقرب الى نغمة الانبياء » . كان يشعر انه مكلف برسالة يريد ان يؤديها وان يأخذ الناس بها كاملة . فكان لا بدّ له ان يساير العقلية اليونانية المولعة بالاستدلال والجدل والاقناع .

قال مثلاً : « العقل والحكمة يقتضيان ان تمجد الآلهة وليس من الحكمة ان تمجد اشياء ليست موجودة » . وهذا رأي الناقد الفرنسي ارنيم واكثر دارسي الرواقية .

(١) لم نشر هنا الا الى الكتاب الذين يثبت نسبهم الفينيقي . ان الذين ما زال نسبهم موضع شك واقتراض مثل هيرودوس فقد اهملنا ذكرهم رغم ان بعض المؤلفين مثل برار يردون اصلهم الى فينيقية .

قسم زينون الفلسفة الى فروع ثلاثة متكاملة هي : المنطق . علم الطبيعة والماورائيات . ومن تعاليمه ان الله هو مبدأ الكون الفاعل وان النفس نفحة منه . اما الشهوات فهي في النفس امراض ان لم تتغلب عليها فقدت ذاتيتها وحريتها . وكان لافكاره هذه اثرها في تاج ديوجين وسينيك .

واشهر ما كتبه زينون « المبادئ الجمهورية » ، « الحياة في الطبيعة » ، « الواجبات والجنس البشري » ، و « الشهوات »[1] .

ونهج بيوثس الصيدوني (القرن الثاني ق. م.) نهج سلفه فطوّر الرواقية ورفض الاعتراف بنظرية حلول الله في كل اجزاء الوجود بل في بعضها .

وفي سنة ١٥٠ ق. م. ولد في صيدا زينون اخر تولى المدرسة الابيقورية في اثينا واثار اعجاب شيشرون .

وفي سنة ١١٠ ق. م. قاد ديودورس الصوري المدرسة المشائية في أثينا وحاول ان يوفق بين الرواقية والابيقورية . كان يرى ان الخير الاعظم هو في الجمع بين التفضيلة وعدم الالم في اطار الحرية الخلاقة وقد تميّز ادبه بالتنوع على غنى الصور والاحاسيس .

وجلّى الكثيرون من الأدباء الفينيقيّي الاصل في الخطابة المرتجلة وفي الادب الساخر وفي الشعر الاخلاقي كما تدل هذه المقطوعة الشعرية على ضريح قديم نظمها انتيباتر الصيدوني المولود في اواخر القرن الثاني قبل الميلاد :

« لماذا يبكي اولادنا ؟ الآلهة ذاتها لا تنجي اولادها من سنّة الموت » .

وكان انتيباتر هذا ابيقوري المذهب . ومن مأثور اقواله : « دعنا نشرب فالحق الحق هو ان الخمر مطية الطريق . والسائرون على اقدامهم انما يختصرون الطريق الى جهنم » . ولعله اول من ذكر عجائب الدنيا السبع . وقد انطوت مجموعة الروائع اليونانية (الانتولوجيا) على بعض مختارات من شعره . اما سميّه الصوري ، معلم كاتون ، فقد انصرف الى الفلسفة في خط رواقية زينون .

ومن جبيل اشتهر المؤرخ واللغوي فيلو (٦٤–١٦١) ببحوثه في اليونانية . الا ان آثاره ضاع بعضها ولم يبق منها الا نزر اشار اليه بومبيوس في بحثه في تاريخ الكنيسة المسيحية . ويبدو ان فيلو استند الى بحوث مواطنه سنكونياتون في الميثولوجيا وعلم نظام الكون والدين وتاريخ المدن الفينيقية . ومما يقوله هذا في نشأة الكون :

(١) بنى له اهل اثينا ، اقراراً بفضله ، ضريحاً من السيراميك ونصبوا عليه تمثالاً من ذهب .

« كانت في البدء ريح قائمة كدرة عاصفة منتشرة في كل مكان . وبعد حقب من الدهر شغفت تلك الريح بروح الحياة فيها . فاقترنت بها حباً برصاخا ، فنشأ عن ذلك الاقتران مادة هلامية . او سائل كدر . ومن هذا السائل الكدر ولدت جرثومة الحياة ، ونشأ الكون » .

اما فيلو فقد كتب عن الدين الجبيلي وذكر انه كان قائماً على اساس البعث والفداء وبما قاله في هذا الصدد :

« من عادة الاقدمين انهم كانوا في نكباتهم يقدمون الاطفال قرباناً للآلهة يسترضونها ويسترحمونها فلا تهلك النكبة الواحدة جميع الناس » .

وفي حقل البحث العلمي اشتهر عيدئذ مارينوس الصوري مؤسس الجغرافيا الرياضية ويعتبر اول من وضع خطوط العرض والطول لتحديد الموقع الجغرافي الدقيق ممهداً السبيل امام بطليموس .

وبرز في الأدب اليوناني كذلك دوروثيوس الصيدوني (القرن الثاني) . ومن اهم آثاره ملحمة حول اسرار الكواكب وعجائبها . ومكسيموس الصوري (القرن الثاني) معلم مارك اوريليوس وصاحب البحوث الماورائية المبتكرة . كان يقول بالله اعلى غير منظور وبالوهة النفس ويعتقد بان الشياطين وسائل تستخدمها العناية الالهية لفرض حيبتها على البشر . ولونجينوس (٢٢٠–٢٧٧) وزير زنوبيا ملكة تدمر ، ومؤلف « بحث في الرائع » (وقد شك بعضهم في نسبته اليه) وواضع اسس النقد الادبي الاصولي . وموخوس الشاعر الغزلي وفرفوريوس (٣٢٤–٣٠٥) واسمه الحقيقي « مالك » وقد تعلم على مواطنيه ابولونيوس ولونجينوس الغراماطيق والبيان . واقام في رومة يلازم افلوطين ويشرح مذهب الافلاطونية المستحدثة التي تولى قيادة مدرستها بعد موت المؤسس . ومن آثاره بحوث خاصة بافلوطين وقد نشر له « التاسوعات » ودرس في صور الآلهة وبحث في عودة النفس الى الله و « بحث في الزهد » وسيرة فيثاغوروس « ومقدمة للمقولات » . وهو صاحب اول تعليق افلاطوني مستحدث على فلسفة ارسطو .

من العهد الروماني الى الصليبي

في بداية حكم اغسطس قيصر نزحت جماعات من اللبنانيين الى الولايات اللاتينية الغربية . فكان منها وكلاء تجارة ومنظمو حفلات وكينة وجنود وبلغت هذه الهجرة ذروتها ايام الاباطرة المتحدرين من الاسر اللبنانية السورية (١٩٣–٢٣٥) . فازداد انتشارهم واتسع نفوذهم الى حد جعل الكاتب

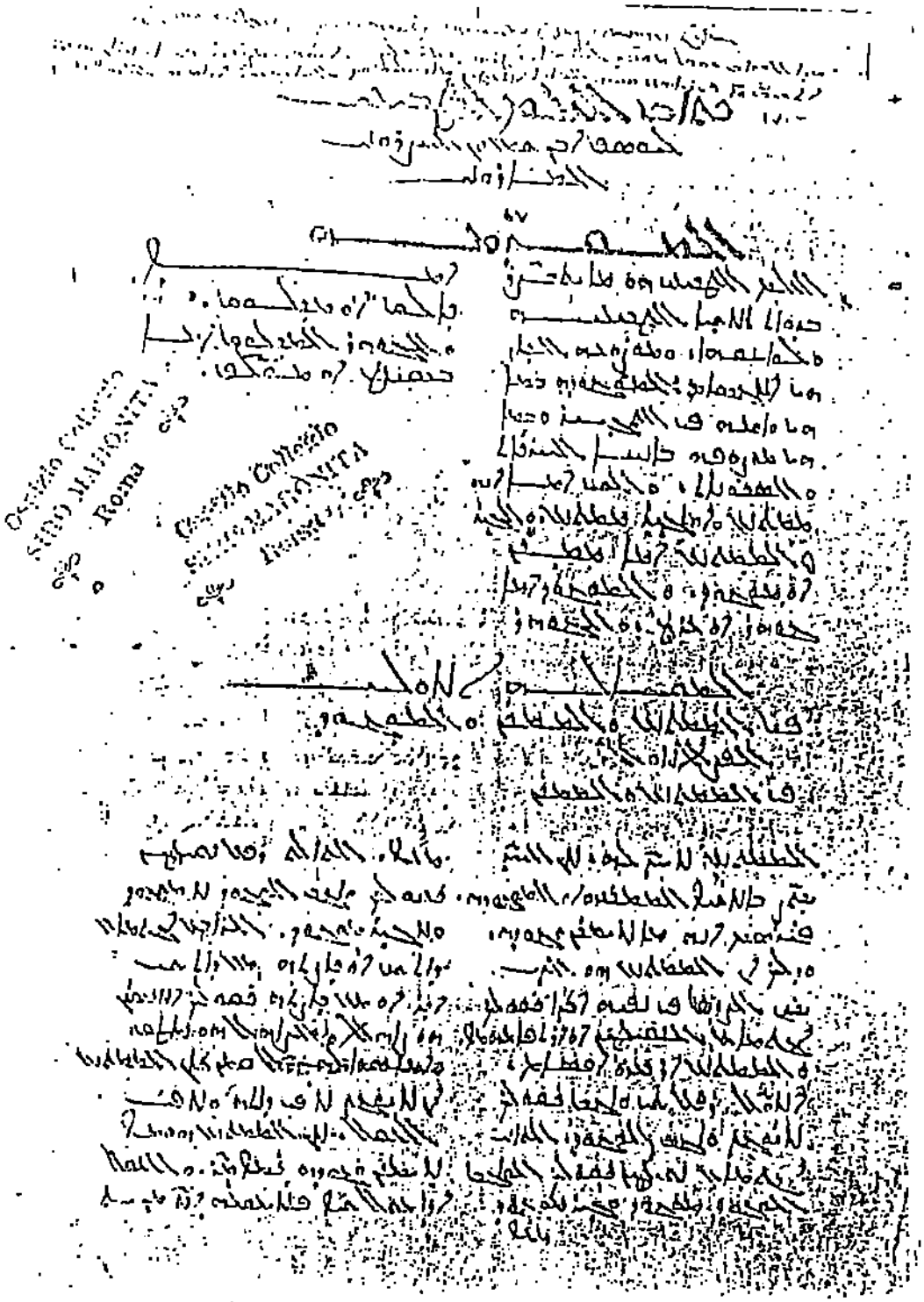

الصفحة الأولى من مخطوط مكتبة الرهبان الحلبيين الموارنة في روما

الصفحة العشرون من المخطوط

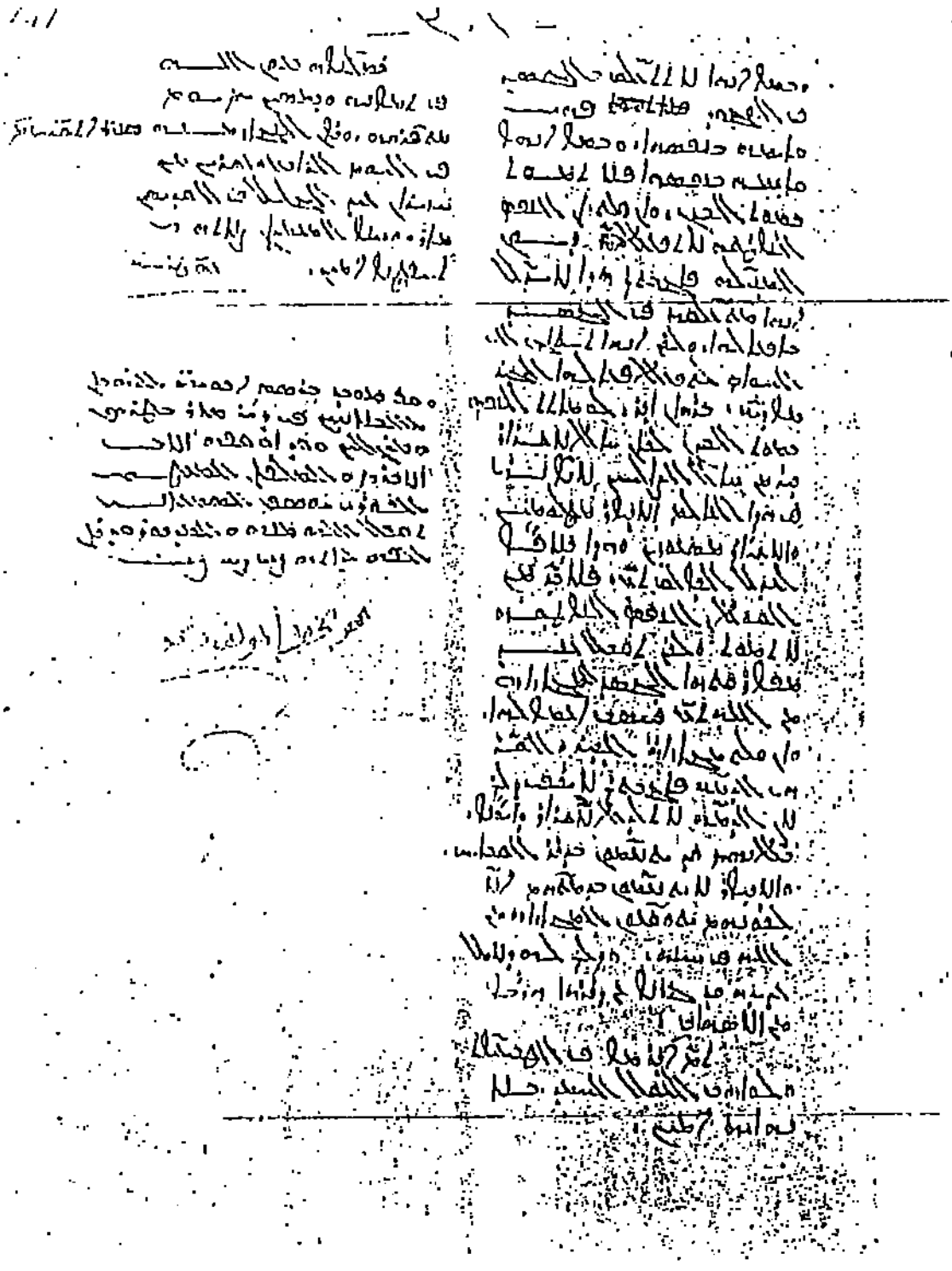

الصفحة الأخيرة من المخطوط عينه

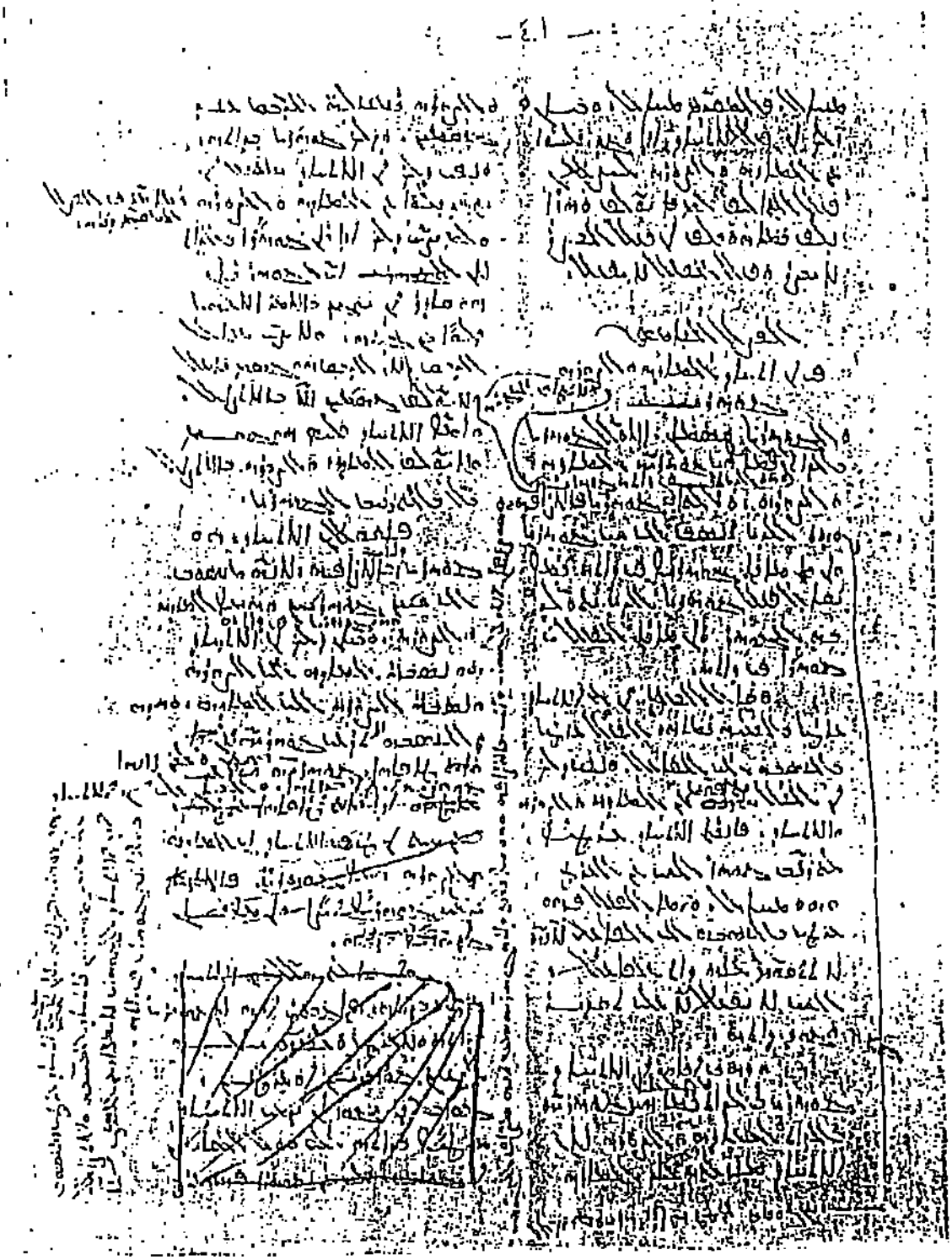

الصفحة الحادية والأربعون من المخطوط عينه

الروماني جوفنال يقول : « ان نهر العاصي (النابع قرب رأس بعلبك والمار بسوريا) يصب منذ امد بعيد في نهر التيبر جالباً معه لغته وعاداته والتيثارة واوتارها » ولا عجب فقد كانت المدن الفينيقية ، على حد قول سترابو ، اعظم مدخر للمعرفة . وقد تميزت صيدا بنوع خاص : كموطن الفلاسفة في علمي الفلك والرياضيات .

وللبرزت بيروت « بريتوس » كجزيرة لاتينية في بحر اغلينية الشرقية في القرن الاول بعد المسيح تألق بريوس في الأدب اللاتيني في روما فتصدى لنقد كبار الشعراء كفرجيل وهوراس واسهم في تركيز الادب الكلاسيكي على اسس ثابتة . وانطلق من منابر مدرسة الحقوق البيروتية فيما بعد رهط من علماء القانون وبينهم بابنيان واولبيان الشهيران اللذان اسهما في ادارة الامبراطورية الرومانية واغنيا الفقه الروماني ببحوثهما الحقوقية الاصيلة .

اما النازحون من قرطاجة (ابنة صور) فعددهم كبير حسبنا ان نذكر منهم تيرنس (١٩٠–١٥٧ ق. م.) الشاعر الهزلي الذي حذا حذو كبار المؤلفين الاغريق في مسرحياته الست واهمها « الاخوان » « والخصيان » وتميز بدقة الوصف والتحليل النفساني في اسلوب انيق ؛ والقديس اغوسطينوس ، اشهر آباء الكنيسة اللاتينية (٣٥٤–٤٣٠) ومن روائعه « الاعترافات » و « التأملات » و « النعمة » و « حرية التخمير » وقد حاول ان يوفق بين الافلاطونية والسر المسيحي وبين العقل والايمان على اعلى مستويات البحث المنطقي والفكر اللاهوتي .

ولئن لم نتبسط في درس هؤلاء الكتاب فلأننا لسنا على يقين تام من تحدرهم اللبناني مع ان المغتربين من الشاطئ الفينيقي الجنوبي كانوا كثرة واستمروا متعلقين بفينيقية حتى اصبحوا ، على حد قول سالوست : « عضد الوطن الام وموضوع اعتزازه » وكانت العلائق الدينية اشد ما يربطهم بها فكانوا يجزلون النذور والعطايا حتى ان ما كان يرسل منها الى هيكل ملقرت في صور كان يبلغ سنوياً عشر دخل قرطاجة الحكومي كما يؤكد س. جسل .

وهنيبعل نفسه بعد اموقعة زاما سعى الى التحالف مع ابناء عمومته الفينيقيين على حد ما يروي دوزي في تاريخه عن الرومان .

اما في العهد التالي : فيقول الدكتور حتي في «تاريخ لبنان » ما خلاصته : « ان اللبنانيين الرومانيين كتبوا فصلاً مجيداً في تاريخ الهجرة يليق بهم كاحفاد الفينيقيين واجداد الاجيال الحديثة فازدهرت جالياتهم في روما .

وكانت مواطن الهجرة التي تلقت الموجات الاولى الموانئ الرومانية ولا سيما بوتيولي واوستيا وسيراكوز في صقلية وبيرايوس وغيرها من موانئ اليونان وجزر الارخبيل الاغريقي. ومن هناك تغلغل المهاجرون في داخل اوروبة متبعين مجاري الانهر والطرق التجارية العمومية. وفي وادي الدانوب اوغلوا حتى سرميوم في الشمال الشرقي من يوغوسلافيا؛ وفي وادي الجيروند وصلوا الى بوردو وفي وادي الرون وصلوا الى ليون. وعثر على مزهريات تحمل توقيع صيدونية في جنوبي روسيا وعلى نقوش في مالقا (اسبانيا). وفي عام ٨١ه انتخبت الجالية اللبنانية السورية في باريس احد اعضائها اسقفاً على المدينة». وكان من نتيجة هذا الاتصال تكاثف في التبادل الفكري بين لبنان والغرب واسهام فعال في نشأة الحضارة الاوروبية في بدء القرون الوسطى على حد قول البروفسور بريبيه في دراسة له عن الهجرة السورية ـ اللبنانية الى اوروبة:

«ان التجار غير المعروفين الذين جاؤوا، بهدى الفطرة الغريقة، يسعون وراء الثروة في البلدان البربرية في الغرب قاموا بعمل خصب. حين كانت الحياة تزداد خشونة والاخلاق شراسة تحت تأثير البربرية كانت الحضارة التي اتوا بها الى اوروبة اللاتينية مبدأ رفيعاً. بفضلهم تقلص اثر البربرية في اوروبة وبتأثيرهم نما الميل الى الترف الذهني والفن والأدب هذا الميل الذي مهد للنهضة الكارولنجية. ولا يجوز ان تدرس الحضارة الاوروبية دون ان يذكر اسهام السوريين واللبنانيين فيها في بداية القرون الوسطى».

ولكن لم يبق شيء يذكر من آثار هؤلاء المغتربين الادبية.

لما انتشرت السريانية في لبنان اعتمدها الكتاب وسيلة تعبير ثم لكن اشهر من كتبوا فيها كانوا من المقيمين وقد تأثر بعض المهاجرين الى انطاكية بالتقديس اقرام السرياني وشعره الصوفي.

وفي العهد الصليبي برز كتّاب لبنانيون باللاتينية كان من اهمهم بين المغتربين وليم الصوري (توفي سنة ١١٩٠) وزير المملكة في القدس ورئيس اساقفة صور ومؤلف التاريخ النموذجي لمآثر الفرنج. واستمر نتاج اللبنانيين في مختلف الوان الأدب ممتزجاً باداب البلدان التي عاشوا فيها واصبحوا من مواطنيها على تقادم العهد وانقطاع الصلة مع الوطن الام في عهد المماليك. الى ان كانت صفحة جديدة من الاغتراب اللبناني الاطلاعي في التاريخ الحديث.

في التاريخ الحديث

اسس البابا غريغوريوس الثالث عشر الكلية المارونية في رومة سنة ١٥٨٤ فتخرج منها الكثيرون وعادوا الى لبنان واستقر بعضهم في رومة او انتقل الى ميلانو ومدريد وباريس وغير مدن فكان لهم دور بارز في ادخال الدراسات الشرقية الى معاهدها وفي نشر الثقافة الشرقية. وكانوا كما يؤكد الدكتور فؤاد افرام البستاني في اساس حركة الاستشراق.

من الرعيل الاول الذي بقي في رومة جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧–١٦٤٠) الذي اصبح ترجمان لويس الثالث عشر واسهم في تصنيف التوراة الباريسية المتعددة اللغات وكانت اول توراة ضمت ترجمات سريانية وعربية. وترجم بعض الآثار العربية التي لها علاقة بالمذهب الماروني وتاريخ لبنان الى الفرنسية والايطالية[1]. وقد شاركه في معظم اعماله ابراهيم الحاقلاني (١٥٩٤–١٦٦٤) الذي خلفه سنة ١٦٤٦ في كرسي استاذ اللغات السامية في «الكوليج رويال» الذي صار فيما بعد «الكوليج دي فرانس».

وبين الذين لمعوا في رومة يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧–١٧٦٨) الذي تولى ادارة مكتبة الفاتيكان فجعل منها اغنى مكتبات العالم بالمخطوطات الشرقية وقد خصص مضمون هذه المخطوطات، ولا سيما السريانية والعربية والعبرية والتركية والارمنية والفارسية والحبشية والملابارية في مؤلف ضخم عنوانه «المكتبة الشرقية» او الكليمانتيا الفاتيكانية باللاتينية. وترجم آثار القديس افرام الى اللاتينية وكتب فيها تاريخ مملكة تابولي وايطاليا في اربعة مجلدات ومجموعة المؤرخين الايطاليين وساعده ابن اخته اسطفان عواد السمعاني (١٧٠٩–١٧٨٢) في بعض اعماله ووضع بالايطالية كتاب اغاماة عن القديس يوحنا مارون وترجم الى اللاتينية التاريخ السرياني لابن العبري.

وفي منتصف القرن التاسع عشر اشتهر في عالم الاستشراق الفرنسي ناصيف المعلوف (١٨٢٣–١٨٦٥) استاذ اللغات الشرقية وعضو الجمعية الاسيوية في باريس وصاحب البحوث في التركية والفارسية والفرنسية ومؤلف المعجم الفرنسي التركي. ولم يقتصر اسهام اللبنانيين على الاستشراق الفرنسي والايطالي بل تعداه الى الاستشراق الاسباني والانكليزي والالماني والروسي.

وقد قام اللبنانيون خريجو مدرسة رومة بدراسات في التاريخ واللغات

(١) حفر اسمه على سبيل التقدير فوق مدخل «الكوليج دي فرانس».

الشرقية اثناء تدريسهم في معاهد باريس وروما وبالامانكا والاسكوريال واكسفورد ولشبونه ووضعوا بحوثاً عدة تناولت تاريخ الموارنة وفخر الدين واسهموا في ترجمات الى اللاتينية تتسم بالطابع اللاهوتي او بالطابع التاريخي نذكر منهم على سبيل المثال الخصروني ومرهج الباني المعروف بأسم فوستوس نيرون واضع اول دراسة جدية عن ابن وخصائصه والمطران نعمة الله ابي كرم والاب بولس مسعد .

وفي اسبانيا كان خليل الغزيري[1] والياس الشدياق وخوان سوزا يد في نشر وتحقيق وترجمة بعض المخطوطات العربية القديمة .

ومن ابرز الذين اسهموا في الاستشراق الانكليزي في هذه المرحلة التاريخية . اسعد الخياط الذي عرف بكتابه « صوت من لبنان » (بالانكليزية) وهو مجموعة مذكرات او بالاحرى سيرة ذاتية وصف فيها حياته ومغامراته بين سنتي ١٨١١ و ١٨٤٧ والاجواء الشرقية والعادات والتقاليد ودون انطباعاته بالنسبة لاتصالاته الكثيرة بمختلف الشعوب الاوروبية والعربية وقد تميز كتابه الظريف بالاسلوب المرح على عفوية وطلاقة وصراحة قال مثلاً في وصف العادات الشرقية ونقاب النساء :

« عزمت على تنفيذ العمل لاطلاق حرية السيدات بالسماح لهن ان يسهمن مع الرجال في المجتمع وقررت ان تكون عائلتي المثل الاول .

« من التقاليد الواجبة في الشرق ان يكون موعد حفلات الاعراس في الليل . فالسيدات وينقطن » العروس والرجال «ينقطون» العريس ويسيرون جميعاً امامه بالشموع . ويرافق السيدات ازواجهن مسدلات اثنية كبيرة من الشيت : قياس واحدها خمسة عشر يرداً . فتستقبلهن ام العروس وتقودهن الى مخدعها . اما الرجال فيذهبون الى ديوان العريس .

« ولما كنت قد تزوجت في الجبال في احوال شاذة ولم تكن ثمة مناسبة لمراعاة التقاليد المعروفة . قرر اصدقائي ان يطبقوها علي ولو بعد حين .

« فاجتمع جمهور من اصدقائي واتوا مع زوجاتهم ليقوموا بواجب التهنئة . فلما وصلوا الى البستان اخذ احدهم يواصل السعال تنبيهاً باقترابهم . لان السعال المصطنع عندنا هو بمثابة الأجراس الصغيرة التي يستعملها الانكليز لهذه الغاية وهو كذلك اشارة تنبيه لنساء العائلة لينسحبن الى الحجرات الداخلية عند قدوم الرجال . عندئذ اوصيت زوجتي ان تكون جريئة لاني لن احجر عليها لتستقبل صديقاتها على انفراد فقبلت على مضض وبقيت الى جانبي .

(١) وضع قاموساً بخمس لغات : العربية والاسبانية والانكليزية واللاتينية والفرنسية .

« سمعت سعادتكم للمرة الاولى فلم افتح فمي . ثم احوا وسعلوا للمرة الثانية وانا لا اتحرك ولما عيل صبرهم نادوا عالياً فاطلت عليهم من النافذة وقلت : اهلاً وسهلاً . اني متأثر جداً لحالتكم اذ يبدو لي انكم جميعاً مصابون بنزلة صدرية . ادخلوا فلعلي اتمكن من شفائكم » . وعلى هذا النحو التهكمي يستمر في سرد انطباعاته وذكرياته .

احمد الشدياق

وصرف احمد فارس الشدياق (١٨٠٤–١٨٨٧) بعض نشاطه في خدمة الاستشراق . فهو بعد رحيله من لبنان اقام في مصر تسع سنوات دارساً ، مؤلفاً ؛ ثم انتقل الى مالطة تلبية لطلب المرسلين الاميركيين ؛ فصحح مطبوعاتهم فيها طوال ١٤ سنة سافر بعدها الى انكلترا حيث صرف سنوات في ضبط عبارة الكتاب المقدس لجمعية التوراة ثم سافر الى باريس ومنها الى تونس حيث تولى تحرير جريدة الحكومة الرسمية « الرائد التونسي » . واستدعاه بعد حين السلطان عبد المجيد الى تركية فاصدر فيها مجلة « الجوائب » بمساعدة ابنه سليم ومات هناك[1] .

لقد وفرت له رحلاته هذه مادة غنية لقلمه فوصف الاوروبيين بدقة في كتابيه « الواسطة في معرفة مالطة » و « كشف المخبا » وباسلوب ساخر لاذع . ومما قاله في وصف الانكليز : « لا يكاد احدهم يضحك ضحكاً طبيعياً وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكم والعبوس ، فكأن الضحك منهم قوة من القوى فهم يكتمونه ما امكن مخافة ان تخرج منهم تلك القوة » .

واتاحت له رحلاته الى الغرب فرصة الاطلاع على التطور فيه . فعز عليه ان يبقى الشرق راتعاً في الجهل والتقليد الاعمى : « صار اكثرنا كالقبور المكلسة بيضاء الظاهر وليس في باطنها غير الدود » . ويعزو تأخر الشرق « الى جهل عامته واستبداد خاصته وخيانة زعمائه وتعصب رؤسائه » .

بيد ان اهم آثاره هو « الساق على الساق في ما هو الفارياق » وهو سيرة ذاتية وصف فيها حداثته في لبنان ومدرسته الاولى ورحلاته العجيبة الغريبة على الطريقة الجاحظية ؛ ليس فقط من حيث التهكم بل كذلك من حيث الاستطراد للبحث اللغوي او للوصف او للنكتة . وقد قال في مقدمة الكتاب انه جمع فيه بين امرين : احدهما ابراز غرائب اللغة ونوادرها

(١) اوصى بان ينقل جثمانه الى لبنان .

والثاني ذكر محامد النساء ومذامهن . وبطلا الكتاب هما الفارياق (المؤلف نفسه وقد اشتق اسمه من فارس الشدياق) والفارياقية زوجته . ومن خلال الجدل حول مدح المرأة وذمها يعبر الشدياق عن آرائه في المرأة الشرقية والغربية وكان بعد المعلم بطرس البستاني من اول الداعين الى تعليم المرأة .

ودلالة على اسلوبه البارع نورد هذا الاستشهاد للفارياق بالنبي سليمان في افضلية الرجل على المرأة :

« قد وجدت بين الف من الرجال صالحاً . فاما بين النساء فلم اجد صالحة . فردت عليه الفارياقية بقولها : وان سيدنا سليمان وان يكن قد اوتي من الحكمة ما لم يؤته غيره . الا ان افراطه في النساء شوّش عليه الصالحة منهن من غير الصالحة . الا ترى ان بائع المسك لطول اتلافه بالرائحة الذكية تضعف منه حاسة الشم بحيث لا يعود يشم الرائحة النطيفة » .

وهذا النكتة البديعة نجد في هذا المقطع نموذجاً من اسلوب الشدياق الذي تميز بسلاسة التعبير على بساطة وبقدرة على اختيار الالفاظ التي تناسب المعنى .

وللشدياق في اللغة بحوث كثيرة منها في نقد المعاجم ومنها في البحث النحوي او البياني . وكانت مناظرته الشهيرة مع ابرهيم اليازجي مرجعاً وثيقاً في هذا الباب . وله في الشعر ديوان سار فيه على النهج التقليدي مبنى ومعنى .

الصحافة العربية

اما « الجوائب » مجلة الشدياق فقد تضمنت عدا حقولها السياسية في خدمة السلطان منبراً لاقلام معاصريه في البحوث والحكايات والمقامات والشعر وسائر الوان الأدب .

ولم تكن « الجوائب » الصحيفة العربية الوحيدة التي تولاها اللبنانيون في اوروبة : ولا « الرائد التونسي » في افريقيا الشمالية . فقد اصدر رشيد الدحداح (١٨١٣–١٨٨٩) جريدة عربية في باريس اسمها «برجيس باريس انيس الجليس» سياسية نصف شهرية راقية المستوى (عربية وفرنسية) تبحث في شؤون الشرق عامة وتتجه الى قراء العربية في فرنسا وخارجها وتترجم الكثير عن الصحافة الفرنسية . وصدرت عدة صحف عربية بعدئذ في فرنسا منها « المرصد » (١٨٩٣) ليوسف الحاج و « كشف النقاب » (١٨٩٥) لامين

رسلان و « تركية الفتاة » لامين رسلان وخليل غانم و « جريدة باريس » لجورج مسرة ونجيب طراد سنة ١٩٠٨ .

وفي انكلترا كانت ابرز الصحف العربية تلك التي اصدرها الدكتور لويس صابونجي اي « الخلافة » وكانت غايتها محاربة الخلافة العثمانية باعتبار انها مغتصبة من حقوق العرب . و « النحلة » علمية الاتجاه و « مرآة الاحوال » سياسية عامة[1] ثم « رجع الصدى » لسليم سركيس .

وظهرت سنة ١٨٨٠ في غليارى (سردينيا) جريدة المستقل ليوسف باخوس ثم انتقلت الى باريس . وظهرت في تونس « البصيرة » لنجيب ملحمة وفرج الله نمور واصدر هذا منفرداً « لسان المغرب » في طنجه وظهرت بعدها في تلك المدينة جريدة « الفجر » لنعمة الله الدحداح و « الصباح » لوديع كرم . وفي المغرب أنشأ عيسى فرح وسليم كسباني اول صحيفة واسمها « المغرب » .

لم تكن هذه الصحف واسعة الانتشار لحد يجعل لها اهمية توجيهية بالغة ، لكنها على كل حال كانت اداة تعريف بالاحوال السياسية والثقافية العامة على مستوى النخبة .

على غرار الشدياق قام بعض اهل القلم برحلات الى العالم العربي واوروبة والى الشرق البعيد في سبيل اغراض ثقافية وسياسية نخص بالذكر اثنين هما سليمان البستاني وشكيب ارسلان .

سليمان البستاني

بعد ان مارس سليمان البستاني (١٨٥٦—١٩٢٥) التدريس والصحافة في لبنان ودرس الانكليزية والفرنسية والايطالية واليونانية والتركية وألم بلغات غيرها تابع دراستها في اسفاره الستبدادية أمّ العراق وجال في جزيرة العرب واختلط بالقبائل دارساً احوالها ثم عاد الى البصرة فأنشأ فيها مدرسة وجريدة وعمل قاضياً ثم تنقل بين العراق واليمن وحضرموت فسجل بعض رحلاته في « المقتطف » وعاد الى بيروت ولكن لم تطل اقامته فيها فمضى الى الاستانة ومنها الى مصر ثم الى العراق من جديد فالهند ففارس واستقر آخر الامر على ضفاف دجلة الى ان انتدبته الدولة العثمانية لرئاسة القسم التركي في معرض شيكاغو . ولما عاد الى الاستانة وشهد مآسيها كتب « عبرة وذكرى » .

(١) كان يكتب معظم المقالات بخطه الجميل ويطبعها على مطبعة حجرية .

اولع البستاني بالشعر القصصي والاسطوري منذ حداثته . استهوته الالياذة بنوع خاص فلازمته في اسفاره « الى رؤوس الجبال وعلى متون البواخر . وفي قطر الحديد » فكانت ترجمته هذا « وليدة اقطار العالم الاربعة » وقد ظهرت هذه الترجمة مع مقدمتها الطويلة في القاهرة سنة ١٩٠٣ فاستقبلتا كحدث ادبي جبار . واشاد ابراهيم اليازجي في « الضياء » بروعة الترجمة « التي سدت ثلمة في العربية » . لكنه رآها « ضئيلة رغم اهميتها بالنسبة للمقدمة » .

تولى البستاني مناصب رفيعة جداً في الاستانة وكان على رأس وزارة الزراعة والصناعة والتجارة والمعادن يوم قررت الحكومة العثمانية بيع غور بيسان بفلسطين من شركة صهيونية فاحتج وهدّد بالاستقالة فاضطر انور باشا ان يمزق العقد فبقي الغور ارضاً عربية . وألم به داء عضال في شبخوخته فقصد الى سويسرا مستشفياً وهناك نظم قصيدتيه الشهيرتين « الداء » ثم « الشفاء » . وقال فيهما :

أنرى تسأم وعيشك بسات مرا تبتسد من لظى الآلام جمرا
وجفنك لا يذوق الغمض سهدا وقد هجعت عيون الناس طرا
ذكرت لبنان فهاج الحنين فؤادي العاني بذاك العرين
فهم قد عزّ مناه طوال السنين

وسنجد الصدى كبيرة لهاتين القصيدتين في الشعر المهجري الجنوبي .

مهما تكن اهمية الآثار التي تركها البستاني فانه يبقى في تاريخ الادب كمعرب الالياذة وصاحب مقدمتها . لقد كان اميناً للروح وللجو بقدر ما يسمح به التعريب الشعري من لغة غريبة عن الساميات كاليونانية . وقد روّض القوافي لتنسجم مع مقاصد هوميروس وايقاع شعره . فاذا هي تتغير كل بيتين او اربعة او ثمانية . اما المقدمة الطويلة المتصلة التي تشكل بحد ذاتها اثراً ادبياً مستقلاً فقد شرح فيها الالياذة ورموزها ومغلقاتها استناداً الى مئات المراجع في لغات عدة ، وناقش آراء الذين انكروا وجود هوميروس واعتبروه اسماً وهمياً لمجموعة متعاقبة من الشعراء وبرهن على وحدة شخصية المؤلف مستنداً الى الوحدة في وصف الاشخاص وفي النفس الملحمي وفي الاماكن كما في السياق المتكامل . وتناول طرق التعريب في الماضي وما يؤخذ عليها وقارن بين الالياذة والقصائد العربية القديمة فبيّن المنحول منها واسبابه واشاد بالاسواق الشعرية وفضلها في توحيد لهجات القبائل وتنقية الشعر وبفضل القرآن في حفظ العربية . وحلل اهم التراث الشعري العربي واثبت

ان معظمه دار في فلك الغنائية وما الملاحم المزعومة فيه الا مطولات تروي قصص البطولة في جو ملحمي خيالي ليس الا . وتطرق الى مناهج المولدين في تمحيص الشعر فاستوقفته براعة الاندلسيين في موشحاتهم بقدر ما استهجن تقليد المحدثين ؛ فكان في درسه التحليلي المنطقي هذا واضع اسس البحث العلمي الحديث والنقد والادب المقارن .

شكيب ارسلان

اما الامير شكيب ارسلان (١٨٦٩–١٩٤٦) ؛ الذي شغل مراكز ادارية كبيرة في لبنان فقد انتخب سنة ١٩٠٨ ؛ بعد اعلان الدستور ؛ نائباً في المجلس العثماني فاقام في استنبول وأيد العهد العثماني فنأى منه انه يخفف وطأة الظلم عن بلاده ، وحارب مؤيدي القومية العربية التي نشأت في الاصل لتحرير البلاد العربية من الطوق العثماني . لكنه بعد زوال الخلافة ومجيء اتاتورك بعد الحرب الاولى انضم الى الحركة القومية العربية التي بدأت تتخذ معنىً جديداً وجنّد بيانه المشرق في خدمتها .

وفي عهد الانتداب عاش الامير منفياً في برلين حتى سنة ١٩٢٥ يدير مجلته العربية « لواء الاسلام » ثم انتقل الى جنيف ليكون قريباً من جمعية الامم . وقد اسهم فعلاً في معظم المؤتمرات الدولية التي تناولت استقلال لبنان وسورية وفلسطين . وفي سنة ١٩٣٠ انشأ مع احسان الجابري مجلة شهرية فرنسية اسمها « الامة العربية »[1] وكان على اتصال وثيق بالصحافة في لبنان ومصر . وتنقل شكيب ارسلان في اوروبة ثم زار اميركا واتصل باللبنانيين المغتربين ليثير حميتهم للنضال في سبيل القضايا الاستقلالية .

اهم آثاره ، عدا الرسائل والمقالات الكثيرة التي تناول السياسة والنقد والاجتماع ، مخطوطات حققها . منها : « الدرة اليتيمة » لابن المقنع ، ودراسة عن شوقي عنوانها : « شوقي او صداقة اربعين سنة » ودراسات في تاريخ العرب منها « غزوات العرب في فرنسا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط » و « تاريخ العرب في الأندلس » و « الحلل السندسية في الاخبار الاندلسية » و « لماذا تأخر الاسلام » ؛ ومجموعة قصائد وطنية وغنائية .

كان شكيب ارسلان على تمسكه بالقديم ، لا سيما في مقدمات كتبه حيث يسترسل احياناً في السجع وفي التذويق البديعي ، يسعى الى مجاراة

(١) ظهرت في جنيف سنة ١٩٦٣ مجلة لبنانية باللغة الفرنسية « الافكار » لم تعش اكثر من سنة .

التطور في اختيار العبارة الرشيقة القريبة المنال ضمن حدود الاناقة . وكان يدعو الى اقتباس العلوم من مصادرها الفصية لان لا نهضة للعرب بدونها وينتقد اولئك الذين كانوا ينفرون منها « كأنها من عمل الشياطين . فيقضون اعمارهم في درس العلوم اللسانية والدينية مما لا شك في ضرورتها لانها قوام اللغة والعقيدة ، ولكنه لا يغني اصلاً عن العلوم الطبيعية التي هنك اليوم من اهلها » .

٥

وثمة كتّاب آخرون غير الذين هاجروا الى مصر والى العالم الجديد . الذين سيأتي ذكرهم في فصلين مستقلين . هاجروا الى فرنسا وانكلترا وكتبوا بلغتيها لاسماع صوت لبنان الى العالم الغربي وتوضيح قضاياه خاصة وقضايا العرب عامة فضلاً عن الاستزادة من المعرفة والانطلاق في اجواء ارحب . ومنهم من وزع اقامته بين باريس والاستانة كناصيف منعم المعلوف (١٨٢٣ — ١٨٦٥) الذي اتقن عدة لغات فترجم عن الفرنسية والتركية والانكليزية واليها ووضع معجماً بالفرنسية والتركية و « مبادئ القراءة بالعربية والتركية والفرنسية » و « مختصر التاريخ العثماني » (بالفرنسية) .

بالفرنسية

كثيرون هم الذين سافروا الى فرنسا بعد وعيل المستشرقين الاول وبرز بينهم من الكتاب والمتعلمين عدد محترم . من هؤلاء :

نجيب عازوري وقد نشر دراسة تحليلية عنوانها « نهضة الامة العربية في آسيا التركية » حاول فيها محاربة فكرة عثمنة الشرق العربي ومحو شخصيته .

ميشال سرسق وقد كتب اسطورة مسرحية بعنوان : « قسم عربي » مثلت بنجاح على مسرح الاميبغو .

بولس نجيم (وقد وقع باسم جوبلان المستعار من تبيل الحذر) وقد كتب « مسألة لبنان» ضيرت طبعتها الاولى في باريس سنة ١٩٠٨ . وهي دراسة علمية ضخمة تناول فيها واقع لبنان الجغرافي والتاريخي بتفصيل دقيق وتوقف خصوصاً عند عهد فخر الدين واوائل القرن التاسع عشر حين استعاد لبنان استقلاله الذاتي ثم عند مرحلة التدخل الاوروبي بين سنتي ١٨٤٠—١٨٤٥ واختلاف اهدافه السياسية ، ووصف المؤسسات اللبنانية القائمة في ذلك العهد والثورة الديموقراطية الاولى من نوعها في الشرق ، ونقطة ١٨٦٠ السوداء

في تاريخنا. وقد رام من كتابه لفت الدول الاوروبية الى الحقيقة اللبنانية كسباً لتأييدها استقلال هذا البلد. وتميزت الدراسة بالاسلوب التحليلي الرصين على بساطة.

خليل غانم (١٨٥٧—١٩٢٣) اسهم في تحرير «التيغارو» و«جورنال دي ديبا» في قسم السياسة الشرقية. ونشر سنة ١٨٩٩ سيرة شعرية للسيد ثم دراستين تاريخيتين «سلاطين بني عثمان» و«تربية امراء بني عثمان» وكان قد عاش في الاستانة وتولى الترجمة في وزارة الخارجية التركية ثم انتخب نائباً في المجلس فتميز ببلاغته وشجاعته. فشاه عبد الحميد فاستقر في فرنسا حيناً ثم عينته هذه الدولة سفيراً لها في تونس. وفي دراستيه يبين اسباب انهيار السلطنة العثمانية التي سميت بالرجل المريض بسبب الاستبتار والاستئثار والاستبداد واللامسؤولية على صعيد الحكام في مختلف العهود.

شكري غانم (١٨٦١—١٩٢٩) اسهم في تحرير مجلة «لاكورسبوندنس دوريون» التي انشأها مواطنه الدكتور سمنه ونشر ديواناً عنوانه «اشواك وازهار» ورواية عنوانها «دعد» مستوحاة من التاريخ العربي ومسرحيات عدة مثلت على مسرح الاوديون منها: «وردة او زهرة الحب» و«ساعة من الف ليلة وليلة» و«تيمورلنك والنسور النسعة» و«عنتر» وهي اشهرها وقد وضع موسيقاها الفنان الروسي الشهير ريمسكي كورساكوف. وقد مجد فيها تاريخ العرب وابرز عناوين حضارتهم على مستوى ارفع مما في سائر كتبه وذلك دفاعاً عن قضية تحريرهم من النير العثماني. وبلسان البطل الذي صار اسطورة عبّر المؤلف عن ارادة التحرر وعظمة التضحية في المقاومة باسلوب ملحمي بليغ.

خيرالله خيرالله (١٨٨٠—١٩٣٠): وقد حرر في «المجلة الاسلامية» وفي جريدة «الطان» الكبرى حيث تولى القسم الشرقي في عهد مديرها اندريه تارديو سنة ١٩١٠. وقد نشر سنة ١٩١٩ دراسة سياسية عن المناطق العربية المحررة وكتاباً تاريخياً عنوانه: «سوريا» ولم تكن قد توضحت له فيه الفكرة الاستقلالية كما توضحت لبولس نجيم.

وكثرت الكتب عن سوريا بالفرنسية عند ذاك وقد ربط معظمهم مصيرها بمصير لبنان باعتبار وحدة المأساة في ظل الحكم الظالم المشترك. ومن ابرز هذه الكتب «سوريا الغد» لندره مطران.

تغلب الطابع السياسي الملتزم على نتاج اللبنانيين في فرنسا حتى بداية

الانتداب الفرنسي . فجاء ادبهم نضالياً امتزج فيه البحث التاريخي بالشعور القومي وارادة التحرر واسهم فنسان جاماتي وعباس يحاني في مقالاتهما التحفية بهذه الحملة التحررية . اما في نصف القرن الاخير فتحولت اقلام الكتاب الى الادب المنطلق من كابوس الطغيان . فالشاعر الطيب شارل خوري المولود في باريس ١٩١٠ يدور في فلك الرومنطيقية العذبة حيث الكآبة تمازج الحنين الى المجهول في ديوانيه « ساعات ضائعة » و « من ضفة لضفة » (الذي توجته الاكاديمية الفرنسية) وكذلك الشاعر بول جاماتي . لكن الكآبة الرومنطيقية عند هذا تغلف مرارة عميقة . فهو في ديوانه « ريح الخريف » الذي صدر بعيد الهدنة يوم كان جو فرنسا ما زال عابقاً بالدخان الخانق يصور وحشة الانسان بعنف وثورة وفي « مقطوعة لمونيك الميتة » مرثاة مؤثرة لابنته في انطلاق العاطفة الشرقية التي لم يشعفها التطبع في الغرب . يقول فيها:

« عندما استراحت بروعة جافا
« حلّت الشيخوخة منا في القلوب »

لكنه في ديوانه « شموس » و « باريس في الثلاثينيوم » و « قصائد » استعاد صفاءه المعنوي وتغلبت النفحة الصوفية المشرقة في تاجه على عتمة اليأس .

وثمة شاعرة مغمورة دخلت حياتها في شبه اسطورة وهي ليلى سليم ملحمه دي رانيار (١٨٩١—١٩٥٥) .

ولدت ليلى في اسطنبول ثم انتقلت الى فلورنسا مع ابيها سليم باشا النقي وكان من اركان السلطنة العثمانية . بعد ثورة ١٩٠٨ . وفي سنة ١٩١٢ طلب يد « هذه الحورية الخارجة من فراديس الشرق » على حد تعبير موريس باريس . ملازم فرنسي ما لبث ان استشهد في الحرب الكونية الاولى تاركاً طفلة توأمي امها في غربتها . وبعد الحرب عادت ليلى الى فرنسا تعبر عن وحدتها شعراً فاصدرت مجموعتها الاولى « الساعات الكئيبة » روت فيها حكاية الألم . ثم تزوجت من الديبلوماسي الفرنسي ده رانيار فاشرق الوجود كما من جديد فكتبت ديوانها الثاني بلون الفرح وعنوانه « حب روما » وفيه اشارة واضحة الى نزهات عذبة في تلك الغابة الرومانية التي شاهدت « ظلين ملتصقين ماثرين معاً : بولين ده بومون والساحر » وتنقلت مع زوجها السفير في اوروبة الى حين داهمها الغسانبو في بودابست وقبض عليها . فبدأت مأساة جديدة بالنسبة للملك « العصفور الذي غنى تعبه في الاقفاص المذهبة »

كما تقول الكاتبة البلجيكية الاميرة بوبسكو . ولما اطلق سراحها بعد سنوات ثلاث عادت الى فرنسا تكتب وترسم . وتميز شعرها بالكآبة الرومنطيقية حتى في تعبيرها عن نشوة الحب :

« يا بيوتي النائية حيث تجوب ذاكرتي ...
« ايتها الجدران ! الم تبقي
« فرحة قليلاً ، وسوانسة قليلاً .
« لكيانات غيري مستوطنة ...
« كم من وداع كم من باقة كم من وليمة
« اتى عليها النسيان
« اليت قرب النهر ، بيت الشتاء
« وذاك الذي عاشت الكآبة فيه ،
« وبعد . ذاك الذي فيه بكينا
« عندما كان الاطفال يهزجون » .

لئن مارست ليلى ملحمه الادب على سبيل الهواية فان مواطنة لها مارسته ممارسة احتراف فانصرفت اليه انصرافاً كلياً جعلها بين ابرز كتاب فرنسا اليوم . انها اندريه شديد (زوجة الدكتور لويس شديد الطبيب العلامة ، عضو معهد باستور ، المعروف ببحوثه العلمية الدقيقة) . بدأت تكتب بالانكليزية فنشرت ديوانين على النسق الرمزي المستحدث باسم مستعار ثم كتبت بالفرنسية شعراً ونثراً فاشتهرت شاعرة وروائية وباحثة وكاتبة مسرح . لها في الشعر عدة دواوين ابرزها « بلد مزدوج » . ان لها لغة شعرية خاصة بها . فهي تتحرى البساطة الموحية فاذا اللغة العادية التي تناولها الاستعمال تحيا تحت قلمها من جديد في تركيب فريد موحية ابعاداً انسانية غنية .

« اذا كان الشعر لا يقلب حياتك رأساً على عقب فهذا يعني انه ليس شيئاً بالنسبة الينا » . هذا ما تقوله اندريه شديد في « ارض وشعر » . وقد حاولت ان تحقق هذا المفهوم فاذا انت بعد ان تقرأ قصيدة لها تحس حتماً ان حواراً عميقاً قام بينك وبين القصيدة وان قيمة جديدة انبثقت من تلقائها وجعلتك ترى الحياة اسمى مما هي .

واندريه شديد في قصصها تمزج الواقع بالشعر فاذا الابتداع يوحي ما يوحي المضمون وهي تستوحي موضوعاتها من لبنان ومن مصر (حيث نشأت) او من فرنسا (حيث تقيم) . ابطالها يتطورون بشكل طبيعي وهي لا تتدخل قط في توجيههم .

اهم ما يشغل اندريه شديد : كقاصة : هو الانسان في صراعه مع القدر . لكنها لا تعبر عن هذا تعبيراً مباشراً يحول الرواية عن بيئتها الخاصة الى بحث علمي . الى مرحلة اخلاقية او الى تأملات في الوجود . فروايتها « اليوم السادس » التي تجري وقائعها في مصر حيث قضت مرحلة عمرها الاولى . تدور حول عجوز مصرية تحاول ان تنتزع حفيدها : المصاب بالكوليرا : من المصلحة الطبية . حاسبة ان مجرد التسليم بنقل الطفل المريض في سيارة اسعاف قد يعني التسليم بفكرة الموت .

لذلك تبذل كل قواها . وهي فضيلة اصلاً انما عززتها ارادة المقاومة . لكي تجعل الطفل الغالي العود . يعيش حتى اليوم السادس : اي الى يوم زوال الخطر عنه حسب تأكيد الطبيب . وفي هذا السبيل تخفيه عن عيون الناس ضراً . تلازمه كالظل . تتجنب حتى ان تتطلع اليه الا لماماً : لكأنها شاءت . في لاوعيها . ان تجعله كذلك غير منظور من القدر . لكن القدر يأبى الا ان يرى المريض رغم كل شيء فينتزعه من يديها : بل يدي الحياة . فتموت العجوز معه .

وروايتها « الباقي بعد موت الآخرين » موضوعها طائرة تحطمت في صحراء افريقيا وفيها اثنا عشر مسافراً . فاستدعي الاهل الى مركز الشركة في باريس واخبروا انه لم ينج الا واحد ضاعت آثاره في الرمال . ظنت بطلة الرواية لاناً مورد ان الناجي هو زوجها بيار .وظنها كان شبه اليقين . واذ لم تسفر التحريات عن نتيجة قررت ان تجري بنفسها البحث عمن احبته حباً يفوق كل منطق وكل ألم . وهكذا تبدأ البحث اللامجدي عن زوجها عبر واحات النفور . وتنسى ان زوجها ربما غاب الى الابد اذ الحب المطلق يخلق الحياة . وتعود لاناً خائبة لكن حبها بلغ من الشدة حداً جعله اقوى من الغياب واقوى من الموت . وهكذا تنتصر على القدر في صراع عنيف .

وموضوع القدر المستبد هو كذلك المحور الذي تدور حوله رواية « يوناتان » و « النوم الطليق » و « الشاب الغني » الا انها لا تكرر نفسها ابداً . بل تجعل لكل رواية اطارها المميز رغم ان معظم مادتها مأخوذ من حياة الريف المصري وبؤسائه . فهي تصور بدقة ولباقة تلك الحياة وتعرض للقارئ نماذج شتى عن ابنائها : من الفلاح المستعبد العائش مع ماشيته : الى الاقطاعيين العابثين بمصائر « ازلاميهم » الى الشيخ والشرطي . الى كل ما هنالك من خصائص توحي ايحاءً بليغاً بمأساة البشر .

اما مجموعتها القصصية « الجلد الضيق » فهي كذلك صور عن حياة الريف في مصر . وصور من الجبل اللبناني تبرز فيها التقاليد والعادات الانسانية التي كادت المدنية الحديثة ان تقضي عليها لولا عناد المتشبثين بالارض : من الفلاح الى الراعي الى الخطاب ، وقد وجدوا فيها جذراً ثابتاً يشدهم الى الوجود .

وقد ظهرت لها في ربيع ١٩٦٩ رواية « الآخر » ويتلخص موضوعها بجهد بطولي يبذله انسان ما في سبيل انقاذ اخيه المطمور في الارض . قد رأى هذا الانسان ان حياته تستمر ناقصة ان لم يسهم في انقاذ « الآخر » وانتزاعه من القبر . فهو هكذا يخلقه من جديد والرواية ترمز الى شخصين في المطلق يفرق بينهما كل شيء : شرقي قديم قلبه قلب طفل وغربي شاب جف خياله كالشيوخ . ولكن لا عتبات العصور والثقافات ولا اللغات المختلفة استطاعت ان تقضي على الحوار بينهما لان الاخوة البشرية اقوى من اي فاصل مصطنع .

ولاندريه شديد بحوث منوعة لعل ابرزها دراستها عن لبنان وقد صورته تصويراً شعرياً انطلاقاً من واقعه التاريخي ومعطياته الحضارية ورسالته الانسانية المنفتحة على المعمور طوال ستة آلاف سنة من الوجود .

وفي الحقل القصصي برز كذلك في فرنسا فاجيه كاتشا ، وهو لبناني ، ارمني الاصل ، عاش بعد الحرب في باريس . له عدة روايات اهمها : « العين بالعين » ؛ « السارة » ؛ « وقعة الفوارس » ؛ « الاكف المشوشة » ، « لو تستيقظ شيطاناً » . انه يتوخى اثارة الاهتمام عن طريق العقدة الغريبة في تطورها على نسق افلام « هيتشكوك » .

فرواياته مجموعات لوحات في كل منها مفاجأة او اكثر . وقد تأثر بذلك من حيث اختيار المواقف الحرجة التي يجعل فيها اشخاصه ثم يدفعهم الى الذروة الانفعالية حيث يصبح الشخص مجرد هوى او شهوة عاصفة قد تكون حباً او حقداً او بغضاً . واخذ عن دوستويفسكي الترابط الخفي بين العوامل النفسية المختلفة التي تحرك ابطاله واحياناً بغير وعيهم . وهو ينجح غالباً في التحليل النفساني باسلوب سهل . وقد حدد هو نفسه اسلوبه اذ قال :

« اول ما يهمني هو تصرف الاشخاص في مواقف معينة والنتائج التي قد تتولد من الانفعالات . قبل ان ابدأ روايتي احدد لها فقط نقطتي الانطلاق والنهاية اما الباقي فيأتي عفو الخاطر ووفق تطور التسلسل الطبيعي المنطقي .

الفكرة تأتيني صدفة . وليس بين كتبي سوى رواية واحدة تعتمد على مذكراتي الشخصية هي « اعتاب الكابر يوم الاحد » . وفي هذه الرواية يصف فاهيه كاتشا المقاهي اللبنانية القديمة على الشاطئ ويصور الحياة الشرقية الطامحة الى الوجود الهادئ والتأمل في حضن الطبيعة . ولا تغيب عنه في أكثر رواياته فكرة السينما والمسرح فكأنه وهو يعدها يفكر سلفاً بتصييرها الى المسرح او الشاشة .

وانصرف الى الرواية كذلك كاتب ناشئ يمارس التدريس الجامعي في باريس هو روبير ابي راشد وقد نشر قبل سنه رواية عنوانها « المنزلة » طرح فيها مشكلة تأثير العالم الوهمي على العالم الحقيقي .

بطلة الرواية « ريجينا » تهوى محامياً اسمه انطوان . لكنها لا تستقر في حبها فلما لفظت صديقة لها ذات يوم اسم كاتب بدأ يلمع نجمه « غي ميريال » بدأت مخيلتها الخصبة ترسم حوله الاوهام . وقد عززتها احاديثها مع انطوان وكان قد عرف الكاتب من قبل كما عززتها ثرثرة الاندية حولها . وتمت الاسطورة في رأسها الى حدّ جعل الرجل اللامنظور يستولي عليها ويبعد من قلبها حبيبها الاول . وتشاء المصادفة ان تجمعها بامير احلامها في احدى الامسيات . فاذا بها تجده مغروراً خيّباً لكنها مع هذا لم تشأ أن تقضي على خيوط السراب التي نسجتها حوله . فهربت معه تاركة انطوان .

لقد صور باسلوب ساحر بارع المرأة « المغرور » التي يغريها صنم خلقته من لا شيء وتشبثت بحبه مؤثرة الوهم على الواقع كما وصف بتهكم الدعاوة المنتعلة التي تضخم الاحداث فتجعل من كاتب او فنان عادي نجماً اسطورياً .

لروبير ابي راشد ايضاً دراسة عميقة عن كازانوفا بين التاريخ والاسطورة أنالته جائزة سانت بوف سنة ١٩٦١ . وله بحوث نقدية عدة اهمها يتعلق بالمسرح المعاصر ظهرت في « النوفيل اوبسرفاتور » و « النوفيل ريفو فرنسيز » .

وثمة كتاب لبنانيون برزوا قبله في عالم البحث على اختلاف وجوههم منهم الأب ميشال فغالي الذي عني خصوصاً بالفولكلور اللبناني واللهجات الشعبية في لبنان وسورية وألّف عدة كتب منها « لهجة كفرعيدا » و« دراسة عن اثر السريانية في اللهجات العربية في لبنان » وقصص واساطير وعادات شعبية في لبنان وسورية . والاب ميشال الحايك وله عدة بحوث بالفرنسية والعربية حاول في اكثرها ان يبين النقاط المشتركة بين المسيحية والاسلام .

ويتناول بعضها الادب العربي الحديث . وله ديوان بالعربية « كهف الذكريات » فيه نفحة صوفية . وقد اسهما اسهاماً مرموقاً في الاستشراق الفرنسي .

اما مارسيل زهار فقد برز في نقد التصوير وله فيه مذهب خاص . وسيمون جرجي نشر بحثاً عن تطور الاغاني الشرقية والموسيقى العربية ودراسة تاريخية عن سورية وبحثاً عن القضية الفلسطينية في نشأتها وتطورها . وراوول مكاريوس وريمه خوام ورواد طربيه[1] وقد تميزوا بترجمة الشعر والقصص والاساطير الى الفرنسية ودراسات موسعة عن الادب العربي عامة واللبناني خاصة في مختلف عصوره[2] .

وثمة كتاب ناشئون يشقون طريقهم في الشعر والبحث بالمجلات لا سيما المجلة الشعرية الجديدة « لاديليرونت » التي اسسها قبل سنة الشاعر اللبناني الشاب فؤاد النعتر . ومنهم من نظم فترة ثم توقف مثل جويس منصور صاحبة ديوان « مربع ابيض » .

لم نذكر في هذا العرض الا ابرز الكتاب المقيمين في فرنسا . اما الذين ينشرون فيها ويسهمون في مجلاتها ، فعددهم كبير من اشهرهم : جورج شحاده ، وفرج الله حايك ، وهنري القيم وصلاح ستيه . لكننا لم نذكرهم لانهم مقيمون في لبنان ولا يعيشون في فرنسا الا فترات قصيرة .

في انكلترا

اما الرعيل الذي رحل الى انكلترا فقد سعى اما الى التجارة والصناعة واما الى طلب العلم في جامعاتها .

وقد برز بين هؤلاء عدد من الكتاب في كل لون ولا سيما في الرواية والبحث والشعر .

بين الذين قصدوا الى انكلترا للتخصص العالي فريق مكث فترة عاون فيها المستشرقين وفريق بقي هناك فمارس التعليم وكتب في المجلات . من هؤلاء البرت حوراني وقد نشأ واخوه سيسيل في بلاد الانكليز وادوار عطيه وفريد مجدلاني وادنا كحلا .

---

(١) له ديوان بالعربية عنوانه « المرايا الدائرة » .

(٢) اثناء كتابة هذا البحث ظهرت باكورة مارسيل خليل في الرواية البوليسية وباكورة جلبرت موصللي في الرواية السيكولوجية « الشبكة » وقد عبر فيها عما تختلج به النفس البشرية من رغبات وحشية تناقض الطبيعة السمحاء .

لالبرت حوراني عدة بحوث فكرية سياسية واجتماعية وتاريخية نشرها في اوكسفورد حيث يمارس تعليم التاريخ العربي والآداب الشرقية والفلسفة. من اهم كتبه «سوريا ولبنان» وهو تاريخ شامل مفصل «والاقليات في العالم العربي» و«بريطانيا والعالم العربي» و«خطر المجتمعات الكلية» و«الاسلام اليوم».

آمن البرت حوراني بحرية الفكر كوسيلة مهمة لتطوير المجتمع والانسان. واساس حرية الفكر في نظره هو معرفة الانسان نفسه كمخلوق حر مسؤول عقلاني. وهو يرى ان مبدأ السمو في المجتمع البشري «مبدأ يتعالى على الارادة الفردية وحتى الجماعية ويتخذ اساساً له شخص الفرد». وفي بحوثه يتحدث عن اثر انتشار الفكر الغربي في انماء العقيدة الديموقراطية في العالم العربي. قال في كتابه «سوريا ولبنان» حول معضلة التخريب:

«في القرن الماضي اهتزت اسس العالم العربي تحت تأثير الغرب. فالافكار الغربية التي نشئت في المدارس والكتب واخيراً في السينما غيرت مظاهر الحياة الاجتماعية. فمنافسة البضائع الغربية قضت على الحرف القديمة وفتحت آفاقاً اقتصادية جديدة واساليب مواصلات حديثة اطلقت الجماعات المحلية من اطرها التقليدية. وهددت السيارة والطائرة والسلطة المدنية حياة البداوة بالزوال».

في دراساته التاريخية لا يعنى بتسلسل الاحداث بقدر ما يعنى بمغازيها وانعكاساتها على التطور الحضاري. وكان لبحوثه عن الشرق الاوسط بوجه عام شأنها في الكشف عن واقع المنطقة وازالة اضاليل الدعاوة الصهيونية.

اما ادوار عطيه فقد نشأ في السودان: وبعد الحرب الكونية الاولى درس في اوكسفورد وقضى حياته بين السودان وبريطانيا. انصرف الى الرواية فكتب: «عربي يروي سيرته»: «لبنان الفردوس»: «حمار من الجبل»: «الخط الدقيق» و«الطليعة السوداء» وله في البحث الادبي والتاريخي مقالات ظهرت في «التايمس» الادبي و«مجلة الشرق الاوسط».

في روايته «عربي يروي سيرته» يقص باسلوب عفوي كيف نزح اهله من العكار الى سوق الغرب ثم الى السودان وكيف درس هو في مصر ثم في اوكسفورد وبعض انطباعاته في انكلترا وزواجه من بريطانية وابرز الاحداث في حياته وجولاته. وفي هذه السيرة الذاتية يتناول اثر الحضارة الغربية والسياسة البريطانية في العالم العربي. في القسم الاول حتى ١٩١٩ يتحدث عن سوريا شاملاً لبنان. ثم يميز فيما بعد. واهم ما جاء في الكتاب

عدا سيرة المؤلف : معلومات دقيقة عن الهجرة اللبنانية واسبابها وعن دور اللبنانيين في النهضة العربية بفضل انفتاحهم على العالم في اختلاف مناطقه .

في « لبنان الفردوس » يستعمل تعابير فرنسية وهو يروي قصة عشيقين بالانكليزية على نحو ما يجري على لسان بعض اللبنانيين الذين يتقنون اكثر من لغة . بطلة الرواية فتاة لبنانية تدعى فيوليت نشأت في مصر ، تحاول ان تتحرر من وصاية اهلها بعد ان اكتسبت قدراً كافياً من الثقافة فترفض الاقتران برجل اختاره لها ابواها لا لشيء الا لتأكيد ذاتيتها ، لكنها تعود عن تصلبها وتتغلب على مركب النقص بعد رحلة الى لبنان الجنة وبعد اختبارها الحياة . وفي هذه الرواية وصف شعري للطبيعة اللبنانية ساحلاً وجبلاً يظهرها بمظهر الجنة التي توحي بالسعادة وتزيل من النفس كل عقدة .

في « حمار من الجبال » تصوير لقروي مستبد يدعى فارس ديب كان ينشر الرعب في اسرته وحوله . وفرض نفسه على مواطنيه بدهائه الغريب . كان بخيلاً يستثمر اتعاب ابنائه ، لكنه وقع في حبائل راقصة شاهدها مصادفة في احد مقاهي طرابلس فافقدته اتزانه ووقاره واثارت فيه شهوة جنسية مكبوتة ادت به آخر الامر الى قتل سائحة اميركية ثم الى الانتحار .

وفي « الطليعة السوداء » وصف لحياة الطلبة السودانيين الذين يوفدهم آباؤهم ، وهم وجهاء في بلادهم ، الى بريطانيا لتلقي الثقافة العالية فيها وينتظرون عودتهم بفارغ الصبر لكي يحتلوا مراكز بارزة في الحكومة المحلية ويملأوا فراغ الانتداب البريطاني بعد زواله . بطلا الرواية امين ومحمود طالبان في اوكسفورد يتطلعان بالعقلية الغربية وتستهويهما الافكار الاشتراكية الرائجة في اوساط الجامعيين . امين يهوى بريطانية ويتزوج منها ويعزم على الاقامة في باريس ، الا ان زوجته ، وقد رأت في القرآن رسالة ، تلح عليه بالعودة الى بلاده لكي يعمل مغاً على رفع مستواها . اما محمود فيعاني من عقدة نفسية خلقيا له ابوه اذ عقد قرانه ، في غيابه ، على ابنة عمه بدرية وهي في الرابعة عشرة ولا يكاد يعرفها . يحاول ان يتهرب لكن اباه يضعه امام الامر الواقع ، اذ يأتي ببدرية الى بريطانيا ويدخلها مدرسة بانتظار اليوم الموعود لكنها تعيش غريبة هناك حتى عن « زوجها » وينتهي الامر بالانفصال . ويرجع محمود الى بلاده ويحيا حياة فاشلة . وما كانت افكاره الاشتراكية لتلقى صدى في بلاده ولا لتملأ فراغ نفسه ولا لتلبي نزعته الى اثبات وجوده بطريقة ما .

يستوحي ادوارد عطيه معظم مواضيعه من اختباراته الشخصية ويحاول ان يكون صلة وصل بين الشرقيين والغربيين عن طريق وصف العادات والتقاليد والاخلاق وشروط التفاهم والتعاون واحوار الشعر . اما اسلوبه فعفوي حي فيه دقة تحليل ووصف موثر وايجاز بليغ .

اما فريد مجدلاني المولود في بريطانيا فقد أسهم في الصحافة اليومية ودخل الجيش البريطاني واشترك في الحرب الكونية الثانية وفي معركة مونه كاسينو الشهيرة . وقد الف كتاباً ضخماً عن تلك المعركة بعنوان « الدير » روى فيه بواقعية ملحمية بطولة الجنود البريطانيين في اشد المعارك ضراوة في الحرب الاخيرة .

وعنوان « الدير » يرمز الى الدير التاريخي القائم على هضبة تشرف على مدينة كاسينو الايطالية كحصن منيع في موقع هيكل قديم لابولون وقد وصفه المؤلف بدقة كما صور بدقة كذلك فصول تلك المعركة الشهيرة التي دامت من ٢١ كانون الثاني الى ١٧ ايار ١٩٤٤ فانهزم فيها الايطاليون وانفتح امام الجيش الاميركي البريطاني الطريق الى رومة بعد اسبوعين من الانتصار الساحق .

اما ادنا كحلا (مسز خباز) فقد عاشت في لندن وانصرفت الى الشعر الرومنطيقي وقد جمعت مختارات من قصائدها في ديوان « العودة » وعناوينه كافية بحد ذاتها للدلالة على مادة وحيها نذكر منها : « المبعدة » . « وحدة » ، « نزاع الموسيقى » ، « في المنفى » « جوع » . « توسل » . « صوفية » ، انه الحنين الى وطن لا تدري اين هو وهل هو حقاً في هذا العالم ما يهز شعور هذه « الغريبة » المنهوكة الى العودة الى الينبوع . تقول في احدى قصائدها :

« صديقي ، في هذه الحياة لا تأمل بالبقاء
فالذي سار ، على طريقنا المفترقين ، باقدام غريبة
لن يجتاز بوابة القلب الحصينة
حتى آخر الزمن سنبقى في البعيد
ولن يفهم احد احلامنا ولا افراحنا ولا مخاوفنا الا اذا بكينا » .

ولا يجوز لنا ونحن في صدد الكتاب اللبنانيين المغتربين في انكلترة ان لا نذكر العلامة بيتر مدور . حائز جائزة نوبل . رغم ان نتاجه جاء في معظمه علمياً صرفاً الا ان نظرياته العلمية ارتكزت على تفكير خاص . ومعلوم ان بيتر مدور ، ولد في البرازيل سنة ١٩١٥ ثم تعلم واقام في انكلترة واشتهر

ببحوثه حول الانسجة الشعرية في الجسم . وبدراساته حول نمو الحيوانات وتغير اشكالها وله اكتشافات عدة في حقل نقل الانسجة من جسم الى آخر مع اكسابها المناعة والقدرة على الثبات . ومن ابرز بحوثه العلمية العامة تلك التي ناقش فيها آراء تيار دي شاردان في نظرية التطور فوافقه في بعضها وعارضه في البعض الآخر .

في مصر

قد لا تكون الهجرة من لبنان الى مصر اغتراباً بالمعنى الكامل نظراً للروابط الثقافية والاجتماعية والحضارية والروحية الجمة بين البلدين فضلاً عن قصر المسافة . فاللبنانيون المقيمون في مصر ظلوا على صلة وثيقة بالوطن الام لا سيما في مواسم الاصطياف . وعاشوا في بيئة لا تكاد تختلف عن بيئتهم واستمروا في ممارسة لغتهم العربية المشتركة وعاداتهم . وكذلك شأن الذين اقاموا في سائر البلدان العربية القريبة .

بدء الهجرة الى مصر

عندما رقي عبد الحميد الثاني العرش العثماني سنة ١٨٧٦ وعد طلاب الاصلاح من مختلف الولايات باعلان الدستور . فبرّ بوعده فعلاً وانشأ مجلساً نيابياً . لكنه ما لبث ان رجع عن هذه الظاهرة التحررية بعد اربعة شهور وامعن في الظلم كاسلافه فقيّد حرية القول والتفكر والتعبير واخرس صوت الصحافة حتى لم يبق من الجرائد العربية الا تلك تطنّت بحمده وتسبيحه او تحاشت الخوض في اي شأن سياسي . وقد سجّل التاريخ بين ضحاياه على اغواد المشانق ستة عشر صحفياً معظمهم من لبنان .

كان من الطبيعي ازاء هذا الطغيان المستحل ان يهرب المثقفون فوجاً بعد فوج اما الى مصر ، وكانت تنعم بحرية نسبية ، واما الى اوروبة . وكان اللبنانيون قبل ذلك العهد يؤمون وادي النيل باعداد محصورة في سبيل التجارة[1] . بين ابرز النازحين الى مصر قبل الحرب الاولى ، من حملة القلم سليم وبشاره تقلا ، اديب اسحق ، رشيد شحيل ، نجيب وامين الحداد ، عزيز الزند ، عبده بدران وسبع شميل . وقد اقاموا في الاسكندرية . يوسف الخازن ، يعقوب حروف ، انيس خلاط ، فارس نمر ، شاهين مكاريوس ،

(١) سافر بعضهم الى مصر في القرن الماضي لدراسة الطب في القصر العيني .

ابرهيم اليازجي . سليم عنحوري . سليم فارس . جرجي زيدان . امين وشبلي شميل . سليم سركيس . ابرهيم نجار . بشاره زلزل . انطون الجميّل . داود بركات . الياس زياده ونعوم مكرزل وقد اقاموا في القاهرة[1] . وكان قد سبق هذا النزوح اسكندر شلهوب فأسس سنة ١٨٥٧ صحيفة « السلطنة » اول صحيفة لبنانية في الخارج .

ثم جاء خليل جبرائيل الخوري صاحب « حديقة الاخبار » سنة ١٨٥٩ واقام خمس سنوات يؤلف كتاباً عن مصر بناء على طلب الخديوي . وكان هذا الصحفي يقضي معظم اوقاته في سوريا حيث كان معتمد السلطان ثم مدير المطبوعات .

وكانت زينب فواز (١٨٤٦–١٩١٤) رائدة في حركة تحرير المرأة عن طريق تعليمها على نحو ما قال به المعلم بطرس البستاني في لبنان . فكتبت في الصحف المصرية « النيل » و « النواء » مقالات جريئة ونشرت مسرحية « الهوى والوفاء » وقصة « حسن العواقب او غادة الزهرة » و « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » لافتة انظار المثقفين الى طاقات المرأة المتعلمة .

ولكي تكوّن فكرة واضحة عن مدى اضطهاد الصحافة في لبنان في عهد « السلطان الاحمر » نعود الى ما رواه سليم سركيس يوم كان محرراً في جريدة « لسان الحال » سنة ١٨٧٧ فضربه مراقب المطبوعات بالنفق وهدده بعقوبة اشد : « لما ضايقني المكتوبجي وضجرت من المراقبة وجدت انه لا ينجيني من صرامته الا الاكتفاء بمديح السلطان او بالتحدث عن مالية الدولة او جندیتها مما اكون قد هيأت قبلاً لهذه الغاية » . وبعد ان تحمل مثل هذا الضيم طوال خمس عشرة سنة حمله اليأس الى الرحيل .

الاسهام في النهضة

في مصر اسهم اللبنانيون اسهاماً رئيسياً في حركة التجدد الفكري والنهضة الصحفية فاكملوا محاولات رفعة الطهطاوي في تعريب التراث الغربي وواصلوا ما كانوا يقومون به في لبنان مع مواطنيهم في تطوير اللغة العربية وفي التصدي لقضايا العصر على اختلاف الوانها . وكانت الصحف التي اسسوها منبر هذه الحركة الثورية . واهمها «الاهرام» و « المقطم » و« القاهرة » و «المقتطف» و « الهلال » و« لسان العرب » و « روز اليوسف » و « العروسة » و «البيان»

(١) لحق بالادباء والعلماء اللبنانيين الذين هاجروا الى مصر التجار واصحاب الاعمال .

و « الشعار » و « البستان » و « الزهور » و « النهضة » و « المصور » و « المصري » و « الاثنين » .

واول صحيفة لبنانية صدرت في مصر واطولها عمرًا ، لانها ما تزال مستمرة في صيغة جديدة ، هي « الاهرام » التي اصدرها سليم وبشاره تقلا في الاسكندرية في ٥ آب سنة ١٨٧٦ اسبوعية تظهر كل سبت في اربع صفحات وقد جاء في عددها الاول « هذا هو العدد الاول لجريدة الاهرام ، المرجو بعناية الحكومة السنية ، والمستعدة الاستعداد التام لان تجعل من يتصفح صفائحها واثقاً بما يطالعه ، لانها تعاني البحث لتقف على الفوائد الصحيحة ، فتوفي بحقوق الجرائد وتكسب قبول الجمهور » واصدرت مع الجريدة داراً للنشر .

ولم يكن من السهل عندئذ نيل رخصة باصدار جريدة وقد جاء في الطلب المقدم لهذه الغاية : « الجريدة الملتمس انشاؤها تحتوي التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية ولا تتعرض مطلقاً للامور السياسية » .

ومع « الاهرام » الاسبوعية ظهرت صحيفة يومية باسم « صدى الاهرام » في ٣ ايلول سنة ١٨٧٦ كانت تنشر بنوع خاص انباء الحرب الدائرة في البلقان . وقد اصدر الخديوي اسماعيل امرًا بتعطيلها بعد سنتين لانها انتقدت حكمه وانتصرت للفلاح المظلوم وامر بالقبض على صاحبيها ثم افرج عنهما بعد وساطة فعالة . . . . . .

وفي سنة ١٨٧٧ اصدر سليم وبشاره تقلا جريدة اخرى باسم « حقيقة الاخبار » ثم جريدة « الوقت » التي اقفلت في اثناء الثورة العرابية . وفي سنة ١٨٨٠ صدرت « الاهرام » يومية سياسية تجارية ادبية فكاهية وشعارها « انها لا تخلع على احد نفوذًا ليس له . ولا مدح بلا حق ولا طعن بلا مبرر » . وعلى اثر وقفتها الجريئة مع الثورة العرابية عطلت شهرًا كاملاً واحرقت دارها بعد قليل فظهرت جريدة « الاحوال » بعد اسبوع من توقيف الاهرام لكنها لم تستمر .

بيد ان احراق الاهرام لم يقض عليها ، بل كان سبيلاً لتجديد معداتها وبعثها اشد حيوية من ذي قبل على رغم المشقة . ولما مات سليم تقلا سنة ١٨٩٢ واصل المهمة شقيقه بشاره وكان معاونه الاول .

وفي اول تشرين الثاني سنة ١٨٩٩ صدرت الاهرام في القاهرة واستمرت . وصدرت الاهرام في الاسكندرية بحجم صغير . وبعد حين ظهرت طبعة فرنسية باسم « البيراميد » .

كان تأسيس الجريدة في ذلك الوقت ضرباً من المغامرة ليس فقط بالنسبة لسيف السلطة المسلط على الدوام بل لضيق وسائل العمل والمجال. وقد كتب بشاره تقلا في مذكراته يقول:

«كنت اطوف على الناس صباحاً، اتعرف اليهم. واعرض عليهم الجريدة. ثم اقصد احد مقهيات القبيرة فأول ما اطلب جريدة اوروبية اعرب اهم اخبارها ومقالاتها اذ لم يكن في وسعنا ان نشترك في جرائد غربية توفيراً. فاذا ما فرغت من الترجمة اتيت الى الادارة ونظرت في حسابها من دخل وخرج واشتغلت بالتصحيح وكتابة بعض الحوادث. ثم جلست اعاون الفعلة على طي الاعداد وتبيتها للتوزيع. وكنت اتناول غدائي في الغالب وانا بين صحيفة اطويها ولقمة ازدردها. على انني كنت اشارف من وراء هذا العناء الجم اقبالا ونجاحاً».

وما صحّ في «الاهرام» صحّ كذلك في سائر الصحف.

ومات بشاره تقلا في سنة ١٩٠١ فانتقلت ملكية الاهرام الى ولده جبرائيل وهو في العاشرة فتولى تحريرها داود بركات وكان قد رئس تحرير «المحروسة»[1] وانشأ «الأخبار» مع الشيخ يوسف الخازن. وفي عهده تطورت الاهرام وكبر حجمها وتنوعت موضوعاتها واصبح لها مراسلون في اوروبة والشرق وخلف داود بركات في رئاسة التحرير انطون الجميل ثم عزيز مرزا.

وكانت الاهرام منذ نشأتها حقلاً رحباً لاقلام الناشئين من الادباء والمفكرين المصريين واللبنانيين على السواء[2]. فالشيخ محمد عبده واقفها منذ سنتها الاولى واطل منها في بداية عهده الكتابي وكذلك مصطفى كامل وخليل مطران وشبلي الشميل وطانيوس عبده. ومن ابرز الذين اسهموا في تحريرها نجيب الحداد واحمد شوقي وحافظ ابرهيم وعباس العقاد ومي زيادة ويوسف البستاني وطه حسين واحمد الصاوي واميل الخوري وبركات بركات.

بعد الاهرام صدرت في القاهرة سنة ١٨٩٥ مجلة «المقتطف» التي انشأها في بيروت يعقوب صروف وفارس نمر سنة ١٨٧٨ تذوة للعلم الحديث في شقيه النظري والتطبيقي وللمذاهب الفلسفية والفكرية على اختلافها. ولم تكن مهمة هذه المجلة في البدء سهلة ابداً لا في خلق الجو العلمي المؤاتي لانتشارها ولا في ايجاد وسائل التعبير الملائمة في العربية.

(١) اسسها عزيز المزد ثم انتقلت ملكيتها الى الياس زيدان راشد مي.
(٢) انشأت داراً للشعر.

كانت العلوم في اول انتشارها في الشرق عند ذاك تطغى على حقائقها الخرافات الشائعة والسذاجات المتوارثة . فكان على رواد تعميم الحركة العلمية : في بادئ الامر ، ان يمهدوا السبيل في القضاء على المعتقدات الشعبية الراسخة وسوخ تعاليم الدين مثل عملية السحر واسطورة الجن والجن . فثارت ثائرة المتشبثين بالخرافات ، وما كان اكثرهم ؛ الا ان المؤمنين برسالة العلم واصلوا طريقهم فأثروا ، مع الايام ، في ذهنية الجمهور وذللوا مشكلات التعبير باعتماد الطرق التي انطلقت من النهضة اللغوية في لبنان[1] . فاستحداث الالفاظ اما اشتقاقا واما قياساً واما ابتناساً واما تعريباً حرفياً . وهكذا درج استعمال معظم الالفاظ المألوفة اليوم في البحوث العلمية والفلسفية والتقنية .

الا ان مجلة المقتطف الشهرية ، على تطورها السريع ما كانت لتشبع تهم مؤسسيها الى النشاط الصحفي فاصدروا مع شاهين مكاريوس جريدة يومية باسم « المقطم » سنة ١٨٨٩ وانصرف صروف وحده الى « المقتطف » بينما تولى زميلاه الصحيفة الجديدة في تعاون وثيق معه فما لبثت هذه ان اثبتت وجودها الفعلي وصارت تنافس الاهرام في غنى المادة وسعة الانتشار وستري التحرير وحتى في الاعتدال بالرأي اكثر الاحيان .

وكانت المقطم اولى جرائد ثلاث في التسعينات منع دخولها الى تركيا ؛ على حد قول سليم سركيس ، « لانها صادقة حرة تقول الحق » . اما الاثنتان الباقيتان فيها « لسان العرب » و « الرأي العام » . لكن هذه الصحف — يضيف سركيس — « لم تكن متخصصة للمباحث الحرة العثمانية وكان الكتاب في اكثر مقالاتهم يحومون حول النقد » . لذلك انشأ « المشير »[2] فما ان ظهر العددان الاولان حتى صدر امر من الاستانة بوجوب محاكمة المؤسس سركيس وحجز املاكه وقضي عليه بالاعدام ثم ابدل الاعدام بالنفي المؤبد . ولا يخفى ان « لسان العرب » التي انشأها نجيب وامين الحداد وعبدو بدران كانت تحارب سياسة عبد الحميد على غير هوادة وكذلك « الرأي العام » . ورغم هذا لم يكن سليم سركيس راضياً كفاية عنها بل كان يطمح الى عنف اشد وهذا ما حاوله في جريدته .

---

(١) يعود الفضل الاكبر في هذا المجال لبطرس وسليم البستاني وابرهيم اليازجي .

(٢) تصح في سليم سركيس كلمة فيليب حتي : « اينما حل اللبناني حل معه مطبعته ومطبخه ومعبده » فهو لما ترك « لسان الحال » في بيروت هربا من التفتيش اسس « المشير » في القاهرة ثم « رجع الصدى » في لندن ثم « الزاوي » في نيويورك ثم « البستان » في بيطن .

تولى خليل تابت ادارة « المقتطف » سنة ١٩٠٨ ثم رئس تحريرها بعد خمس سنوات واستمر حتى سنة ١٩٤٨ فخلفه ابنه كريم الذي ادار « المصري » فيما بعد . وكان خليل قبل ذلك يدير في الخرطوم جريدة « السودان » التي اسسها مع فارس نمر ناطقة شبه رسمية باسم الحكومة « باللغتين الانكليزية والعربية » وكان يعاونه لبيب جريديني . وبعد وفاة يعقوب صروف ادار المقتطف ابن اخيه فؤاد وكان قد تخرج عليه . اما المقطم فقد اصبحت بعد سنة ١٩١٩ ناطقة شبه رسمية بلسان الوفد المصري واستمرت الصحيفتان حتى سنة ١٩٥٢ .

في سنة ١٨٩٢ انشأ المؤرخ جرجي زيدان الذي مارس الصحافة في المقتطف مجلة « الهلال » شهرية ثقافية عامة عززت الحركة الأدبية لا سيما وان دارًا للنشر نشأت معها . وتولى « الهلال » بعد مؤسسها ولداه اميل وشكري فاصدرا عدة مجلات في ابواب متنوعة منها : « الاثنين » و« المصور » و « حواء » و « ايماج » (بالفرنسية) .

واستمرت دار « الهلال » في طليعة دور النشر الى ان نافستها دار « المعارف » التي اسسها اللبناني نجيب متري وكان لها مجلة ادبية « الكتاب » استمرت فترة قصيرة . ويروى عن « الهلال » انه لما احتفلت بعامها الرابع عشر سأل امين الغريب صاحبها هل سيستمر في تسمية الهلال فاجابه نعم لكي يبقى قابلاً للنمو . فلو دعي بدرًا لابتدأ في النقص .

ادت الصحافة اللبنانية في مصر خدمة جليلة للعمل الصحفي بوجه عام اذ اطلقته من النطاق الاقليمي الى الآفاق العالمية وطورت وسائله الفنية ووسعت ابوابه وحسنت اساليبه . وقد اسهمت اسهاماً كبيرًا في معركة الحريات الفكرية والسياسية والاجتماعية اذ ساعدت الحركات التحررية في مصر نفسها وفي لبنان وفي اكثر الولايات الخاضعة للطغيان العثماني فكانت منبرًا صادقاً لنشر مبادئ حزب « تركيا الفتاة » ولاذاعة افكار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وانصارهما في التطور الاجتماعي الديني ولدعم حملة قاسم امين ومن معه من اجل تحرير المرأة الشرقية . وفي جملة القضايا التي ساندتها هذه الصحافة قضية الحركات السرية التي قامت في لبنان سنة ١٩٠٩ دفاعاً عن كيانه بعد ان عزم الباب العالي على ادغامه في الولايات وكان من نتائج هذه الحملة تأسيس حزب الاتحاد اللبناني في القاهرة والاسكندرية وشعاره المطالبة بحقوق لبنان ناجزة في الاستقلال . وكان اوغست باشا وداود

بركات واسكندر عمون ويوسف السودا وانطون الجميل من الهم قادته. وفتحت الاهرام واكثر الجرائد صدرها لنشاط هذا الحزب ومهدت لتعاونه مع الجمعيات المماثلة في اكثر المهاجر اللبنانية.

وعدا هذا قامت الصحافة بمهمة اطلاق الحركة العلمية والثقافية والادبية والفنية فكثرت المجلات المعنية بهذه الشؤون حتى الصحف السياسية اليومية خصصت حقولا واسعة لشؤون العلم والفكر والجمال. فاكثر رجال القلم الذين ظهروا في مصر من لبنانيين ومصريين وسوريين مدينون لها في نشر بواكيرهم وحتى جل انتاجهم. من «البيان» استأنف ابراهيم اليازجي وثبته. وفي «التقدم» و«مصر» بدأ اديب اسحاق حياته الادبية ومن «المقتطف» ظهر الصرافان يعقوب وفؤاد وفارس نمر وجرجي زيدان ومن «الشفاء» اطل شبلي الشميل ومن «الاهرام» طلع فرح انطون ونجيب الحداد وخليل مطران وطانيوس عبده وحبيب جاماتي وكوكبة من الأدبـــاء. وفي «المقتطف» و«الهلال» و«المحروسة» شقت لي زيادة طريقها. وكانت «الزهور» منبر امين تقي الدين وانطون الجميل.

سنتناول بكلمة كلا من الادباء البارزين الذين عملوا في غير حقول الصحافة، مع عملهم الصحفي.

ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ – ١٩٠٦)

اشتهر في لبنان صحفياً ولغوياً وشاعراً لا سيما في تطوير اللغة العربية وتبسيط العلوم في مجلتيه «الجنان» و«الطبيب». لكنه ما استطاع ان يتحمل قيود الحرية طويلاً لا سيما بعد ان تطلعت «الجنان» سنة ١٨٨٦ فرأى ان ينتقل الى مصر ويواصل رسالته الصحفية في خدمة نشر العلم. فسافر سنة ١٨٩٣ الى اوروبة واستقدم منها ادوات طباعية حديثة واطلع فيها على التطور الصحفي ثم عاد الى القاهرة فأسس مطبعة «البيان» مع رفيقه الدكتور بشاره زلزل ثم اصدرا مجلة «البيان» سنة ١٨٩٧ التي لم تعمر اكثر من سنة فأنشأ اليازجي وحده مجلة «الضياء». وكانت المجلتان منبرين مهمين لانطلاق مواهب الأدباء الناشئين جلّى فيها المؤسس ببحوثه اللغوية والتاريخية المعمقة كما يبدو من خلاصة بحثه حول النينيتيين:

«مما لا ينكر ان النينيتيين كما كانوا قادة الملاحة واساتذة الصناعة في تلك العصور فقد كانوا ائمة العلوم والفنون وملقني العقائد الدينية والفلسفية

وعنهم أخذ اكثر الامم المعاصرة لهم ، ولا سيما اليونان : لما كان بين الامتين من قرب الجوار وكثرة المخالطة . ولذلك فانك قلما تجد معبوداً للفينيقيين او اسطورة دينية او ذكر من اشتهر باختراع او عمل عظيم الا ما تجد ما يقابله في عقائد اليونان وبروياتهم : مع تبديل صور الوقائع والاسماء والخلط بين ما اصله فينيقي وما اصله يوناني » .

اما في بحوثه اللغوية وقد سار فيها سيرة ابيه الشيخ ناصيف فكان بارعاً مجيداً في التحليل . كان يرى في المجاز ميزة خاصة بالعربية بقدر ما يلجأ الكاتب اليه ينجح في تعبيره . وكان على تمسكه بالتراث يقول بتشذيب العربية من شوائبها لكي تسهل منالا . فهو ما كان ليؤمن بعصمة القدامى عن الخطأ وما كان بالتالي ليوفر شاعراً : حتى اباه : من نقده .

كان همه ان تجاري اللغة العربية عصرها فلا يضطر الباحث الى ان ينصرف عنها لسبب ضيق مجالها : فراح يدرس اساليب تطويرها راجعاً الى علاقاتها بسائر اللغات السامية والى كيفية تطورها وتطور سائر اللغات العصرية . وكان على يقين بان الاشتقاق مورد خصب لتوليد الالفاظ فاندفع في حقله يخلق وينحت الالفاظ الجديدة والمصطلحات العلمية بوحي المنطق .

(البقية في العدد القادم)

ORIGINES DU PEUPLE D'ÉMÈSE

PAR

CARLOS CHAD, S. J.

Introduction.

Interroger l'Histoire pour dater, même approximativement, l'apparition d'un peuple, d'une cité, est une entreprise pleine d'aléas. Écrivant au Ier siècle de notre ère, le géographe Strabon parle du « peuple des Émésèniens » et nous fournit à son sujet des renseignements puisés probablement dans l'œuvre de Posidonius d'Apamée (qui vécut un siècle plus tôt) Mais ces remarques intéressent une époque trop récente, puisque les occupants d'Émèse nous sont présentés comme déjà groupés en une principauté et fortement sédentarisés. Il semble aujourd'hui qu'il faille reculer de plusieurs siècles leur implantation sur le cours moyen de l'Oronte et rapprocher ce phénomène d'une infiltration générale arabe, déjà sensible à l'époque achéménide. On sait à présent que quinze siècles avant l'apparition de l'Islam, l'expansion arabe hors de la péninsule arabique s'est faite dans les pays du croissant fertile. C'est dans ce mouvement d'ensemble qu'il faut placer les origines arabes des Émésèniens.

L'infiltration arabe dans les pays du croissant fertile.

Pendant longtemps, cette expansion n'était attestée que par des indices tirés de Xénophon et d'Hérodote, et il était assez courant de dédaigner ces indications, jusqu'à ce que le progrès dans la lecture des textes épigraphiques soit venu les confirmer. Les inscriptions assyro-babyloniennes permettent de percevoir ce courant expansionniste arabe dès le VIIe siècle a.C. Les documents rassemblés par M. Eberhard Merkel (1) sont, à ce point de vue, de plus haut intérêt. Nous les résumons ici, parce qu'ils fournissent

(1) Merkel, Eberhard, *Erste Festsetzungen im fruchtbaren halbmond*, dans Fr. Altheim et Ruth Stiehl, *Die Araber in der alten Welt*, 1964 ch. 9, pp. 139-180.

comme un cadre général, où le problème des origines d'Émèse reçoit son explication logique, même si la date précise de leur implantation demeure inconnue.

Trois contrées nous retiendront plus particulièrement: la Mésopotamie, la Syrie-Phénicie, la Palestine jusqu'au Delta du Nil.

a) La Mésopotamie.

Les inscriptions des rois d'Assyrie sont précieuses surtout pour la période qui s'étend entre le IX^e^ siècle et les environs de 628 avant le Christ. Elles font état de luttes incessantes menées par ces rois contre les « Aribi » qu'ils affrontaient en Arabie même ou dans la steppe syrienne. T. Reiss a rassemblé ces renseignements et en traite de façon détaillée (1). Il en ressort que la présence des Arabes en Irak était notoire. En voici quelques exemples: Xénophon (2) qui prit part à la campagne de Cyrus le Jeune contre Artaxerxès Mnemon en 401 a.C., appelle le pays situé à l'est du Khabour (Araxes): Arabia. Mais l'on peut remonter plus loin dans le temps: Dans sa description des campagnes de Cyrus II (559-529) figure une liste de pays, souvent reproduite, qui énumère les contrées et les peuples soumis à ce roi: Cyrus, après avoir défait les Babyloniens, soumis les Phrygiens puis les Cappadociens, étendit sa puissance sur les Arabes (3). De même, dans l'inscription de Darius I (523-485) à Persépolis, l'Arabie est mentionnée entre la Babylonie et la Syrie: si cet ordre est voulu, le pays visé serait la Mésopotamie, et le peuplement de cette contrée serait déjà en grande partie, arabe (4).

b) Syrie-Égypte.

La seconde région qu'au premier millénaire a.C. l'on trouve habitée par les Arabes, c'est la Syrie géographique, dans son extension jusqu'au Nil. Hérodote réserve le nom d'Égypte au Delta. Il désigne les montagnes à l'est d'Héliopolis comme arabes (5).

Pour ce qui est de la Syrie-Phénicie, le même Hérodote note que la Phénicie, jusqu'aux limites de Gaza (6), appartient aux

(1) Reiss Rosmarie T., *Aribi und Arabien in den Babylonisch-Assyrisch[illegible] Quellen* (Diss. Würzburg, 1931), New-York, 1932.

(2) Xénophon, *Anabase*, I, 5, 1.

(3) Xénophon, *Cyropédie*, VII, 5, 14.

(4) Voir aussi Kent R.G., *Old Persian*[2] (1953), 136.

(5) Hérodote, II, 15.

(6) Cf. Benzinger, art. *Gaza*, in *R.E.* 7 (1910), 880, sq. et Beer Moritz, art. *Kadytis*, in *R.E.* 10 (1919), 1478.

British Museum - Convoi de dromadaires et de caravaniers sur la route de Mésopotamie (Obélisque de Nimroud)

Syro-Palestiniens dont les comptoirs commerciaux, échelonnés le long du littoral, sont sous la domination des rois arabes; tout l'intérieur du pays syrien est attribué aux Arabes (1). Cambyse, en 525, voulant passer par la Palestine pour se rendre en Égypte, est obligé de demander au roi des Arabes des guides et de l'eau (2). Il conclut avec ce dernier un traité, comme avec un dynaste autonome, et ce traité reçoit la garantie de la déesse arabe Allât (3).

Cette autonomie est confirmée par Hérodote dans une remarque qu'il fait à propos des relations entre les Achéménides et les Arabes (4): Tous les peuples d'Asie (Mineure) auraient été soumis à Darius II lors de son avènement, sauf les Arabes, bien que ceux-ci aient été défaits antérieurement par Cyrus et par Cambyse.

Constitution de principautés arabes sous les Séleucides.

Si l'infiltration arabe dans l'empire des Achéménides remonte au premier millénaire, sous la domination Séleucide, elle est assez dense pour permettre la constitution de véritables principautés: Strabon en décrit quelques-unes en Syrie, et il est utile de les situer, car leur histoire éclaire encore davantage les origines du « peuple d'Émèse ».

a) L'Osrohène.

Les historiens des Séleucides (5) placent vers la seconde moitié du II^e^ siècle a.C. la constitution de ces principautés. Longtemps tenus en respect par les colons grecs, ces Arabes purent se regrouper en Parapotamie (6), cette steppe enserrée entre les cours de l'Oronte et de l'Euphrate (7). C'est ainsi que vers 132, un sheikh, de la tribu Karen, nommé Aryou, fonda en Osrohène le centre d'Édesse (l'actuelle Urfa) et l'érigea en principauté autonome. Ses successeurs, connus des historiens sous les dénominations de Toparques ou de Phylarques, devaient régner sur cette contrée jusqu'en 244 p.C. Pour les historiens romains (8) ce sont des Arabes: pour

(1) Hérodote, I, 12.

(2) Hérodote, III, 7, 7.

(3) Appelée aussi Alilât. Hérodote, I, 131.

(4) Hérodote, III, 88.

(5) Bouché-Leclerq, *Hist. des Séleucides* (Paris), 1913, II, 14; R. Grousset, *L'Empire du Levant* (Payot, 1949); F. Cumont, in *Cambridge Ancient History*, XI, ch. XV, 11.

(6) Strabon, *Géographie* (Meineke, trad. Tardieu), XVI, 753.

(7) F. Cumont, *Fouilles de Doura Europos* (Paris), 1926, XXV.

(8) Tacite, *Annales*, XII, 12, 14; Pline, *H.N.*, V, 8, 5.

être plus précis, ce sont des Araméens; leurs noms sont souvent arabes (Abgar, Wa'il, Ma'zou), mais quelquefois nabatéens (Ma'nou, Abdou) tantôt empruntés à l'onomastique parthe (Phradact, Phranalaspat) (1).

b) Les Nabatéens.

Tandis que se constituait, en Syrie septentrionale, cette principauté autonome d'Osrohène, les tribus Nabatou ou Nabatéens quittaient le nord de la presqu'île arabique, prenant pied, en Jordanie. R. Dussaud fait remonter leur origine aux temps bibliques puisqu'il les fait descendre de Nebayot que la Genèse « présente comme fils d'Ismaël et frère aîné de Qédar: donc de purs Arabes, connus dans le désert de Syrie dès une époque ancienne » (Genèse, XXV, 13; XXVI, 9; XXXVI, 3; — Isaïe, IX, 7, et Pline H.N. V, 12: Nabatei et Cedrei) (2). M. Cantineau qui repousse cette assimilation lointaine, fait des Nabatéens, à l'origine, des Arabes arabophones (3). En 587, les Nabatéens repoussèrent les Édomites vers l'ouest, et s'installèrent à leur place sur le site de ha-Séla' (la Roche) que les Romains traduiront par Pétra. Deux tentatives d'Antigone, dirigées contre eux, échouèrent, lors de la poussée hellénistique de 312 (4). « Fortement organisés sous leurs rois autour de Pétra, de Hégra et de Madian, les Nabatéens devaient, à la faveur de l'anarchie qui régnait en Syrie sous les derniers Séleucides, être incités à occuper la Transjordanie que leurs caravanes sillonnaient du sud au nord jusqu'à Damas » (5). Alexandre Bala, vaincu en 146 par Ptolémée Philometor, a-t-il cherché refuge auprès d'un dynaste nabatéen appelé Zabdiel (I Macchabées, XI, 17) ou Zabelos (Josèphe: Ant. Jud, XIII, 4.8) qui ne serait autre que le Rabbel que nous connaissons par la chronologie des rois de Nabatène? Ce qui est certain, c'est que ces dynastes occupent Damas en 87 a.C. et émettent, à cette occasion, leurs premières monnaies à l'effigie d'Arétas III Philhellène, et que ce monayage devait se poursuivre sous ses successeurs, jusqu'au 1er siècle du Christ.

---

(1) Honigman, art. *Orfa*, in *Encyclopédie de l'Islam*.

(2) Dussaud, *Pénétration des Arabes en Syrie* (Paris, 1955), 21.

(3) J. Cantineau, *Nabatéen et Arabe*, in *Annales de l'Institut des Etudes orientales d'Alger* (1934-1935), I, 77-97.

(4) F. M. Abel, *Histoire de la Palestine* (Paris, 1952), I, 37. Voir aussi Starcky J., *art.*: Pétra et la Nabatène *in* Supplément du Dictionnaire de la Bible. VII, col. 900-924.

(5) R. Dussaud, *op. cit.*, 51.

Voilà donc, en même temps que les dynastes d'Osrohène, une autre dynastie arabe, jouissant de son autonomie, à l'époque des Séleucides.

c) Les Ituréens.

Partant elles aussi du sud de la Palestine, les tribus ituréennes remontaient les rives du Jourdain jusqu'à sa source et débouchaient dans la Béka', au voisinage d'Héliopolis-Baalbeck. Alexandre le Grand doit combattre ces Ituréens lors du siège de Tyr. Dans les premières années du Ier siècle a.C., ils sont devenus une téparchie redoutable qui contrôle Tripoli, Byblos et Arca, menacent même Damas. Tigrane doit reconnaître leur principauté de Chalcis et les autoriser à émettre des monnaies où ils prennent le titre de tétrarques et de grands prêtres (73-72 a.C.). Les colons séleucides ont beau les considérer comme des pillards, ils doivent s'incliner devant leur puissance et leur abandonner la présidence du Collège des prêtres d'Héliopolis. Lors de la conquête romaine, Pompée pourra bien venir à bout des petits « tyrans » établis sur la côte nord de la Phénicie, il doit reconnaître Ptolémée fils de Mennaios, le dynaste de Chalcis. Cette principauté connut des aventures diverses mais ne fut englobée dans la province romaine de Syrie qu'en 53 p.C. Sous le règne de Sévère Alexandre, vers 230 p.C., la ville d'Arca se souvient encore de sa fondation par les Ituréens et émet une monnaie où elle revendique le titre de Arca Ituraeorum (G.F. Hill, *B.M.C. Phénicie*, p. 110).

Limitrophe des Ituréens, le peuple des Émésséniens apparaît à la même époque sur le cours moyen de l'Oronte. Ses sheikhs tiennent solidement la ville forteresse d'Aréthuse, à l'époque de l'arrivée de Pompée en Syrie. Avant d'aborder le problème de ses origines, il est nécessaire de décrire son implantation, son organisation et sa vie économique.

L'ÉMÉSÈNE

Le site géographique.

Comme toutes les principautés arabes de Syrie, celle des Émésséniens fut d'abord nomade avant de se fixer sur le cours moyen de l'Oronte, et il est difficile de fixer des limites géographiques à l'aire de sa transhumance: en été, ces Arabes devaient parcourir la steppe syrienne qui s'étend à l'Est jusqu'aux frontières de Palmyre. Au nord, le territoire de l'Émésène englobait Rastan (Aréthuse) et s'arrêtait aux limites d'Épiphania (Hamat). Au sud, ils s'avancèrent un moment jusqu'à Yabruda, ville qui appartenait

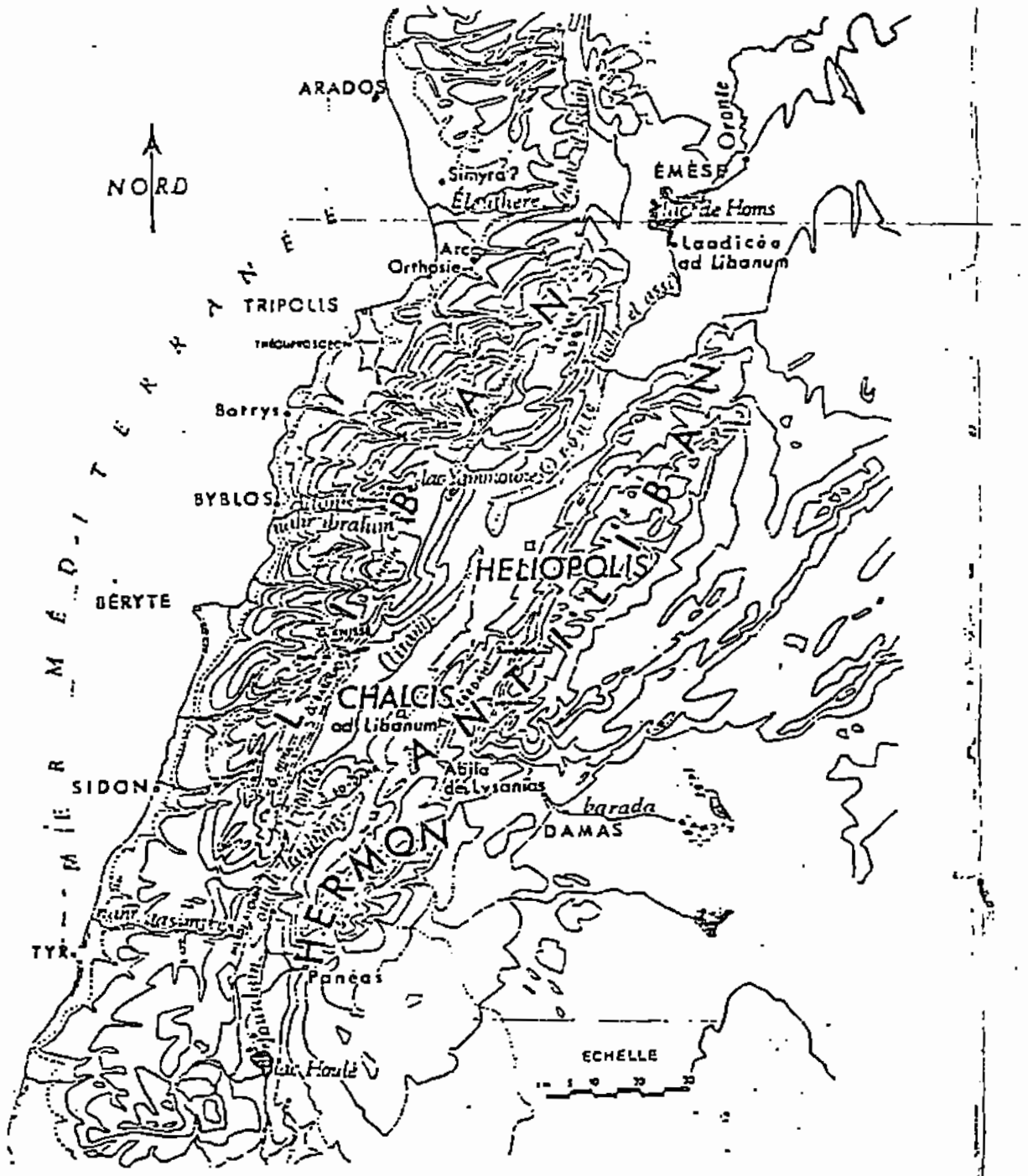

Le berceau de l'Émésène: L'Oronte et son lac (cf. *I.G.L.S.* VI; Carte de M. Tchalenko. Planche LVIII b.)

ordinairement à l'Abilène. Au sud-ouest, débordant le lac d'Émèse, la ville de Laodicea ad Libanum (Tell Nabi Mend) et les montagnes du Liban limitaient leur territoire, aux environs de la petite principauté ituréenne de Hermel: de ce qui précède, il ressort que la plus grande extension du territoire de l'Émésène se trouvait dans la steppe syrienne; on a d'ailleurs trouvé des inscriptions permettant de préciser que Khirbet Bilas et Qusr el-Heir el-Gharbi bornaient leurs frontières avec la Palmyrène (1). Il est difficile de prétendre que ces frontières furent celles que Pompée reconnaît à Sampsigéram en 63 a.C. Selon les époques, l'Émésène a certainement vu ses territoires amputés ou agrandis par la faveur des empereurs romains (2).

Les territoires de l'Émésène tirent leur fertilité et du sol et du climat: c'est une vaste plaine cultivée, enserrée entre les steppes désertiques de l'Est et des montagnes volcaniques de l'Ouest. Placée à l'entrée d'une dépression qui forme le seul couloir entre la Méditerranée et l'Euphrate, cette plaine bénéficie d'un climat moins continental dû à des pluies plus abondantes que dans le reste de la Syrie intérieure. Le sol rougeâtre est composé d'alluvions et de coulées basaltiques désagrégées: il est remarquable que la plupart des vestiges archéologiques trouvés en Émésène soient taillés dans la pierre noire, comme dans le Hauran. Ce sol, bien irrigué, est très fertile. Les ressources hydroliques procurées par les pluies ont été combinées avec l'irrigation: l'Oronte, depuis le IIe millénaire croit-on, a été barré par une digue qui, à l'époque de l'établissement des Émésèniens a été considérablement améliorée, car elle mesure 85 m de largeur sur 5 m de haut. Le lac artificiel ainsi formé permet l'arrosage des vergers de la ville et de la plaine d'Émèse: les fruits les plus célèbres étaient l'abricotier, l'olivier et la vigne; la plaine d'Émèse se prêtait à la culture céréalière intensive, comme on le voit aujourd'hui, pour un produit différent, le coton.

Voies de communication, commerce, économie.

Placée grâce au relai de Palmyre entre le Golfe Persique et la Méditerranée, Émèse contrôlait un nœud routier important: route Nord-Sud (de Bérée (Alep) à Damas); route vers Antioche, passant par Apamée; route vers Béryte, passant par Héliopolis; mais l'axe principal du commerce caravanier était la route Palmyre-Antaradus. Sous Tibère, Émèse était en contact commercial avec

(1) *I.G.L.S.*, V, 2552: Fines inter Hadrianos Palmyrenos et Emesenos. Cf. D. SCHLUMBERGER, *Syria* (1939), XX, 64.

(2) Voir la Planche 2.

la Characène, comme le prouve une inscription de Palmyre (1). Quant aux échanges avec les ports du littoral, il est attesté par les monnaies, (un bronze d'Aradus, daté de 94/93 a.C.; un tétradrachme provincial de Séleucie, frappé en l'an 5 a.C. et un tétradrachme de Tyr, de 14-15 p.C.) (2).

L'agriculture et le commerce ne sont pas les seuls facteurs de l'économie d'Émèse: il faut y ajouter l'élevage, dans la steppe syrienne. D. Schlumberger explorant la Palmyrène du N-O a retrouvé l'emplacement de grandes fermes où se pratiquait l'élevage des bêtes de somme et de trait. Émèse a traditionnellement fourni à l'empire romain des éleveurs de chevaux. Des troupeaux de moutons et de chèvres trouvaient dans la steppe des points d'eau et du fourrage car importantes sont les précipitations saisonnières.

Trop peu d'indications nous sont parvenues concernant l'artisanat d'Émèse. Pourtant la verrerie, les bijoux, les objets en ivoire ou en nacre, montrent bien l'importance de ce secteur de la vie économique d'Émèse.

L'implantation à Émèse.

De quelle époque date l'implantation du « peuple de l'Émésène » dans Émèse? Nous ne possédons à ce sujet que des remarques de valeur douteuse: Ammien Marcellin parlant de cette ville, la cite en même temps que Tyr, Sidon, Béryte et Damas et en fait remonter les fondations « aux siècles reculés »: *priscis saeculis*. Mais il est très douteux qu'Émèse ait un passé aussi lointain que les villes auxquelles cet historien l'associe, à moins de se ranger à l'avis de R. Dussaud (3) qui situerait dans cette ville l'ancienne Khatarika, que la Bible nomme Hadrack (Zacharie, IX) convoitée par Teglatfalazar au XII^e^ siècle a.C. A cela s'oppose que le site de Khatarika n'a pas encore été identifié. Mais Homs n'a pas été sérieusement fouillée et il faut réserver son jugement touchant des datations lointaines. Même l'hypothèse des éditeurs des inscriptions de l'Émésène selon laquelle la ville serait de fondation séleucide doit être accueillie avec réserves (4). En revanche, il est probable que ce furent les Arabes qui créèrent ou rebâtirent cette

(1) Cantineau, *Syria* (1931), XII, 139, n° 18.

(2) H. Seyrig, *Antiquités syriennes*, V: Antiquités de la Nécropole d'Émèse, p. 31 (tombeau n° 10); Tétradrachme de Séleucie: tombeau n° 8 (p. 50).

(3) R. Dussaud, *Topographie historique*, 238.

(4) *Inscriptions grecques et latines de Syrie*, V, 107 (notice historique (!) sur Émèse).

ville: non par l'éponyme Hims indiqué par Yakût dans sa géographie (explication fantaisiste à juste titre réfutée par Noldeke [1], mais par ces Arabes à la tête desquels nous trouvons dès le IIe s. a.C. des chefs portant des noms réservés par la suite à la dynastie d'Émèse (2). Il est probable aussi que leur implantation fut lente: l'absence de vestiges anciens dans Homs laisse penser que ces bédouins vivaient les trois quarts de l'année sous la tente (Scenites = vivant sous la tente) ou dans des constructions légères, rentrant l'hiver à Aréthuse (leur première forteresse avant de déborder sur Émèse) retrouver des demeures construites sur le Tell rocheux: entre les deux localités d'ailleurs, la distance n'est pas si grande qu'un bon cheval ne pût parcourir ces 20 km en un couple d'heures, comme cela se pratique encore aujourd'hui par les agriculteurs des villages de l'Émésène.

Les fondateurs d'Émèse nous apparaissent portant des noms arabes et adorant des dieux communs aux dynasties arabes anté-islamiques que nous connaissons. Leur infiltration en Syrie apparait à la même époque que celle de leurs voisins d'Osrohène, de Nabatène ou d'Iturée (3). Ces dynasties ont déjà été étudiées: en revanche, nous ne connaissons aucun ouvrage consacré aux Éméséniens, mis à part des notices prosopographiques de la *Real Encyclopädie*, non exemptes d'erreur. Incomplètes aussi les indications fournies par F. M. Abel, R. Dussaud et Schürer (4). Les travaux de R. Paribeni (5) et E. Egger (6) sont plus précis, mais plus limités. Cette étude voudrait regrouper ces données éparses et poser le problème des origines d'Émèse.

Les premiers dynastes éméséniens.

Nous ne possédons que de simples indices sur les origines des Éméséniens au second siècle a.C. La première fois que leurs noms apparaissent, c'est sous le règne d'Alexandre Bala (157-151 a.C.). Le roi séleucide, se voyant menacé par Démétrius Nicator, avait

(1) Nöldeke, *Orient und Occident* (1864), II, 653.

(2) C'est l'avis de H. Seyrig, *Caractères de l'histoire d'Emèse*, in *Ant. Syr.*, VI, 66-67.

(3) Ces dynasties ont été sommairement explorées: cf. I. Lévy, *Tétrarques et grands-prêtres ituréens* (*Hommage à Joseph Bidez et F. Cumont*, Bruxelles, 1949); R. Dussaud, *Numismatique des rois de Nabatène*, in *Journal Asiatique* 1904, repris et amélioré dans *Pénétration des Arabes en Syrie*, 1955; Th. Reinach, *La dynastie de Commagène*, in *Revue des Etudes grecques*, 1890, 362-380.

(4) E. Schürer, *Geschichte des Jüd. Volkes*[3].

(5) R. Paribeni, in *Bollettino del. Commis. archeol.*, Roma, 1900, XVIII.

(6) E. Egger, in *Jahreshef. des Oster. Archaeol. Inst.*, XX, 1919, 319.

confié la garde de son fils Antiochus à un sheikh arabe nommé Jamblique. Après le triomphe de Démétrius, une certaine opposition se manifesta contre lui et Diodotos d'Apamée alla demander à Jamblique de lui remettre Antiochus pour lui rendre le royaume de son père (1). Jamblique y consentit mais Diodotos fut vaincu et Démétrius mit à mort Alexandre en 143 (2).

Josèphe qui rapporte aussi ces faits ne donne pas d'autres précisions au sujet de Jamblique que la désignation de « chef arabe ». Mais le fait que Diodotos d'Apamée ait réussi à négocier avec lui, laisse supposer que Jamblique vivait à proximité d'Apamée où est située l'Émésène.

Le premier phylarque sûr d'Émèse est mentionné dans un récit du *Bellum Judaïcum* (3). Antiochos XIII, qui avait été envoyé à Rome par sa mère Cléopâtre Séléné, avait été traité par les Romains avec des égards particuliers et Cicéron l'appelle « l'ami et l'allié du peuple romain ». Cela ne le mit pas à l'abri des brigandages de Verrès (4). En revanche, lorsque Lucullus se rendit maître de l'Asie Mineure en 70 a.C., chassant d'Antioche l'usurpateur Tigrane, il promit le trône des Séleucides à Antiochos XIII (69 a.C.). Mais ce prince ne parvint à se faire reconnaître par les Syriens, qu'en s'appuyant sur les milices de Samsigéram d'Émèse (5).

Pour la première fois, nous sommes en présence d'un dynaste d'Émèse dont l'existence peut être affirmée avec certitude. A la même époque, Josèphe (6) place un Aziz « dynaste voisin de Beroa » (Alep) qui appuyait Philippe II, adversaire d'Antiochos XIII. Comme les deux prétendants se révélèrent également incapables de régner, Samsigéram et Aziz s'entendirent pour les supprimer et s'approprier le Nord. Aziz devait se charger de Philippe, tandis que Samsigéram éliminerait Antiochos. Mais le plan échoua, car Philippe échappa à Aziz, regagnant Antioche en 65 (7). Samsigéram et Aziz appartenaient-ils à des clans différents, alliés pour la circonstance, ou étaient-ils de la même tribu ? Les textes ne permettent pas de le trancher.

(1) Josèphe, *Ant. Jud.*, XIII, 131 et 187 : « Malchus l'Arabe » = Jamblique.

(2) Diodore, *Excerpta*, in *Fragm. Histor. Graec.*, II, XVII.

(3) Josèphe, *Bell. Jud.*, I, 99 s.q.

(4) Cicéron, in *Verrem*, II, 4, 27-30.

(5) Diodore, XL, 1, a-b; *Fragm. Hist. Graec.*, II, p. xxxv.

(6) Josèphe, *Ant. Jud.*, XIII, 348.

(7) Bouché-Leclercq, *Histoire des Séleucides*, 433.

Lorsque Pompée prit la succession de Lucullus, Antiochos voulut obtenir de lui le trône d'Antioche car il revendiquait les titres « de candidat du Sénat et de Lucullus » (1). Mais Pompée repoussa ses prétentions, l'estimant « incapable de régner puisqu'il n'avait pu, ni conquérir, ni garder son trône » (2).

Ces événements permirent à Samsigéram de prendre conscience de sa force, devant la décomposition du royaume séleucide. Tout fait penser qu'il s'entendit à mots couverts avec Pompée pour mettre à mort Antiochos. Car Pompée qui devait châtier si durement les Ituréens du Liban et d'autres dynastes arabes, s'empresse de confirmer le domaine de Samsigéram et le charge de tenir fortement la citadelle d'Aréthuse. Au surplus, Pompée demeurera toujours l'allié de Samsigéram.

Ainsi, entre 130 et 64, apparaissent les premiers noms que nous verrons couramment portés par les dynastes d'Émèse. Jamblique I ou Malchos (3) était dans les parages d'Apamée. Aziz I (vers 94 a.C.) est dans le voisinage de Beroa (4), tandis que Samsigéram I est à Aréthuse. Cette aire géographique fait bien partie de la Parapotamie que les Arabes appellent le Hamad.

Leurs géographes donnent ce nom à la steppe qui s'étend entre l'Anti-Liban et l'Euphrate du Nord. Le Hamad se distingue du désert de sable (Nefoud) situé plus au sud, par le loess et la terre alluviale qui le composent. Arrosée par les pluies d'hiver, la terre se couvre au printemps d'herbes et de fleurs, et jusqu'aux premières chaleurs elle accueille les troupeaux de dromadaires et de moutons dont l'élevage constitue la fortune des nomades. En été, les bédouins amènent leurs troupeaux dans l'Anti-Liban, où, grâce à la moisson précoce, les champs gardent des chaumes que les bêtes viennent brouter jusqu'aux pluies suivantes. La proximité de l'Oronte fournit au bétail l'eau qui manque dans le Hamad (5).

Jamblique, Aziz et Samsigéram nous apparaissent comme des chefs guerriers, dont les combattants sont en mesure d'imposer ou

(1) V. CHAPOT, *La frontière de l'Euphrate*, 1907, 6.

(2) Deux ouvrages importants, dûs à deux savants jésuites, ont repris le problème de la conquête de la Syrie par Pompée: J. VAN OOTEGHEM, *Pompée le Grand, bâtisseur d'empire* (*Mém. Acad. royale de Belgique*, sect. Lettres, XLIV, 1954), et F. P. RIZZO, *Le Fonti per la Storia della campagna pompeiana della Siria*, Banco di Sicilia, 1964.

(3) E. SCHÜRER, *Geschichte d. jud. Volkes*[4], 184, n. 4.

(4) JOSÈPHE, *Ant. Jud.*, XIII, 348. Ὦζος restitution de Αὔζος, admise, après *NIESE*, par tous les éditeurs de Josèphe; cf. le dernier en date Ralph Marcus, traduction anglaise, LOEB classical Library. Nos références renvoient à cette édition.

(5) F. ALTHEIM, *Le déclin de l'empire romain*, Payot, 1953, 257.

de détrôner les rois séleucides. En proclamant la Syrie province romaine, Pompée comprit le parti qu'il pouvait tirer de ces nomades à demi-sédentarisés. En reconnaissant à Samsigéram la possession de la plaine d'Émèse, Pompée entendait encourager celui-ci à se sédentariser complètement, et créer ainsi un petit État-tampon qui mit la nouvelle province à l'abri des incursions des autres nomades. Cet État, appuyé sur les territoires des Ituréens au Sud, sur celui des Abgars au Nord, était la première esquisse de ce que serait le *limes* un siècle plus tard: une suite de places fortifiées protégeant la route du commerce avec les Indes et capables non seulement de contenir les incursions des nomades, mais de résister aux premiers assaurs des Parthes avant que les deux légions romaines créées en Syrie ne puissent entrer en lice. Les archers montés sur des chevaux rapides ou des dromadaires étaient d'ailleurs plus aptes à combattre dans la steppe que les lourdes légions romaines. Ce système de glacis devait durer jusqu'à Trajan, qui le modifiera sans renoncer au principe même des États-tampon protégeant les villes de l'intérieur.

Le dynaste d'Aréthuse dont le nom (1) amusait les amis de Cicéron, fut à tel point protégé par Pompée que les Romains appelaient ironiquement ce dernier « notre Samsigéram » (2). L'Émésénien possédait d'énormes richesses. Il aurait fait à Pompée des présents « assez gros pour balancer les revenus des campagnes d'Orient ». Sans accorder un crédit excessif à ces assertions, l'on peut cependant se demander d'où provenaient les richesses de ces dynastes.

Nous savons que Pompée put taxer de 1.000 talents (somme considérable!) Ptolémée de Chalcis, sans que sa dynastie en fût frappée à mort (3). Les historiens de l'antiquité insinuent que ces sheikhs vivaient de brigandages, opprimant les paysans sédentaires, pillant les caravanes, leur imposant des tributs exorbitants. Tels du moins pouvaient-ils paraître aux colons macédoniens dont ils menaçaient les biens. Mais dès que ces clans s'étaient sédentarisés, ils pouvaient disposer de ressources plus avouables. L'élevage leur permettait de fournir aux cités des montures pour les caravanes. La culture de la plaine leur procurait des céréales, de la vigne et des fruits. Les olivettes de l'Émésène étaient très vastes, comme l'atteste la découverte de plus de vingt pressoirs d'huile, datant de cette époque (4). Le culte du Baal solaire dont Samsigéram était

(1) R.E., s.v. *Samsigéram*, col. 2227.

(2) Cicéron, *Ad Atticum*, II, 14.

(3) Josèphe, *Ant. Jud.*, XIV, 39.

(4) Sachau *Reise, in Syrien und Mesopotamien*, 1883, 23 et 55: pressoirs découverts à Forklos, à proximité d'Émèse.

le grand prêtre attirait de riches présents des principautés voisines (1). Le commerce avec les ports de la côte méditerranéenne leur offrait l'occasion de revendre chèrement les produits de l'Extrême-Orient que Palmyre leur cédait en échange de leurs céréales et de leurs troupeaux. Enfin les milices qu'ils mettaient au service des prétendants séleucides, étaient certainement grassement rétribués.

Nous aurions aimé à être confirmés dans nos déductions par les sources historiques de l'époque. Mais pas plus Appien que Posidonius d'Apamée ne nous fournissent les renseignements que nous sommes tentés de leur demander. La mention de ces phylarques est faite occasionnellement, à propos de telle guerre ou de tel roi. Ce sont des notations marginales, car leur histoire proprement dite n'a pas intéressé les historiens séleucides. Cela explique les erreurs de datation des modernes. Marquardt (2) pensait que Samsigéram s'était emparé d'Aréthuse en 69, car la ville avait adopté une ère pompéienne pour commémorer cet événement (3). Mais les monnaies d'Aréthuse qu'il invoque pour établir cette datation doivent être attribués à la ville de Mopsus en Cilicie, si bien qu'il est aujourd'hui établi « qu'il n'y a pas de monnaies d'Aréthuse ». En revanche, une inscription d'Aréthuse, datée de 317 Séleucide (4) atteste que la ville suivait un double calendrier: l'un, plus ancien, celui des Séleucides, et l'autre, récemment adopté, celui de l'ère d'Actium.

« On ne possède aucun document sur la façon dont les années furent comptées dans la Syrie intérieure (Émèse, Coelé-Syrie, etc...), avant l'arrivée des Romains et le début de l'Empire » (5). Il nous faut donc, en l'absence du témoignage des inscriptions et des monnaies, nous tourner, pour dater les origines de la dynastie émésénienne, vers des historiens postérieurs. Josèphe, sans grand souci de l'exactitude chronologique, reproduit quelques extraits de Nicolas de Damas, et, vu sous cet angle, son témoignage est intéressant; Strabon qui parcourut la Syrie sous Auguste, nous fournit également des renseignements fort précieux et autrement plus sûrs.

Pompée, après avoir réduit la Syrie à l'état de province romaine, en avait confié le gouvernement à son questeur Scaurus, qui résidait à Damas, avec le titre de propréteur. C'est en 58 que

(1) HÉRODIEN, V, 5, 3.

(2) *Organisation de l'empire romain*, II, 347.

(3) H. SEYRIG, *Ant. Syr.*, IV, 87-88.

(4) R. MOUTERDE, *in M.U.S.J.*, VIII, 1922, 84.

(5) H. SEYRIG, *Ant. Syr.*, V, 98, note 5.

le successeur de celui-ci, Aulus Gabinius, reçut le titre de proconsul. Il semble que Pompée ait confié aux deux légions créées sur place, la sauvegarde de l'ordre intérieur. La défense des frontières était laissée aux milices des dynastes, formées de cavalerie légère et d'archers montés sur dromadaires.

Crassus ne comprit pas cette méthode et voulut entraîner les légions en Mésopotamie. Mais le désastre de Carrhes, en 55, lui fit payer cher cette erreur. Selon Appien, les Parthes, après leur victoire, déployèrent une grande activité diplomatique en Syrie, soutenant les dynastes locaux contre les Romains (1). Nous savons qu'Émèse garda sa fidélité à Rome: Cicéron, proconsul en Cilicie, avait écrit au Sénat qu'il était venu à sa connaissance que le roi des Parthes et son fils Pacorus avaient franchi l'Euphrate, son informateur étant Jamblichus « *phylarcus Arabum, quem homines opinantur bene sentire, amicumque esse reipublicae nostrae* » (2). R. Paribeni suppose avec raison que ce phylarque est un Émésénien. En revanche, son commentaire reste conjectural: « De la lettre de Cicéron, si imprécise et qui se réfère à l'opinion des autres, on peut conclure que ces petits "tyrans" d'Émèse n'avaient aucun traité d'alliance et n'étaient pas tributaires de la République » (3). Cicéron peut rapporter une information qui lui a été fournie, (sans passer par les voies hiérarchiques), sans que cela prouve que les Émésséniens ne payaient pas tribut à Rome. Les dynastes d'Émèse ne semblent pas entretenir de relations politiques étroites avec Damas et le Sud syrien, avant que les légats impériaux ne s'installent à Antioche.

Lorsque les Parthes déferlèrent sur la Syrie, nous ne savons pas si Jamblique I a été inquiété. Il est vrai que cette invasion fut de courte durée, car Pacorus se tourna subitement contre son propre père et disparut derrière l'Euphrate avant même que Cassius pût organiser la contre-attaque.

Après la défaite de Pharsale, César poursuivit Pompée en Égypte et lorsqu'il se trouva assiégé à Alexandrie, il demanda des renforts en Palestine et en Syrie. Parmi les dynastes qui lui portèrent secours, Josèphe mentionne « Jamblique, dynaste d'Émèse et d'Aréthuse et son fils Ptolémée » (4). Il s'agit sans doute du même personnage que Cicéron appelle « phylarque des Arabes » et ce dynaste nous apparaît essentiellement comme un guerrier.

(1) H. Seyrig, *Palmyra and the East*, in *J.R.S.*, XL (1950), 2.

(2) Cicéron, *Ad. Famil.*, XV, 1.

(3) R. Parmeni, in *B.C.A.R.* (précédemment cité), XVIII (1900), I, 35-43.

(4) Josèphe, *Ant. Jud.*, XIV, 129.

Cette puissance militaire, qui avait permis à Samsigéram I de se mêler des problèmes dynastiques des derniers Séleucides, n'avait donc pas été détruite par Pompée mais renforcée au point que, sous Jamblique I, une partie de ces forces pouvait être prélevée pour une expédition relativement lointaine. Josèphe met cette force en parallèle avec les contingents fournis par Antipater et par « Soemos, dynaste ituréen du Liban » (1).

Mais ne s'agit-il pas ici d'une grave confusion? Car les *Antiquités judaïques* font de Jamblique un fils de Scemos. Jamblique n'a pas de fils appelé Ptolémée, il est lui-même Jamblique-Ptolémée, alors que le *Bellum Judaicum* précise « Jamblique et son fils Ptolémée » (2).

Strabon (3), en revanche, fait de Jamblique non pas un fils de Soemos, mais de Samsigéram. Voici à quel propos: Lorsque César quitta la Syrie, les anciens partisans de Pompée, mesurant la faiblesse des Césariens restés en Syrie, se rebellèrent. Coecilius Bassus, un ancien lieutenant de Pompée, s'enferma dans la citadelle d'Apamée et tint tête à deux armées venues l'assiéger. Il appela à son secours les dynastes voisins. Strabon cite parmi ces derniers « Samsigéram et son fils Jamblique qui gouvernait Émèse ».

Entre les deux versions de Josèphe et celle de Strabon, il faut certainement préférer cette dernière: son auteur est plus proche des événements qu'il relate. Quant à la mention d'un Soemos, « dynaste *ituréen* du Liban », rien ne la confirme, ni l'onomastique habituelle, ni les monnaies connues chez les Ituréens.

Retenons donc qu'en 46 a.C., Aréthuse était aux mains de Samsigéram II et Émèse gouvernée par Jamblique I. Placés devant les rivalités internes qui opposaient entre eux partisans de César et amis de Pompée, les Émésèniens répondent à l'appel de leur voisin d'Apamée, Coecilius Bassus. Celui-ci ayant dicté ses conditions avant de se rendre à Sextus César, il est possible qu'il ait réclamé l'impunité pour les dynastes venus à son secours.

Mais ces rivalités devaient reprendre bientôt entre Marc-Antoine et Octave. Pour les Émésèniens, le problème se compliquait d'éléments nouveaux: Antoine avait fait don à Cléopâtre (4)

(1) Th. Reinach note que le texte du manuscrit est incertain; Niese restitue: Jamblique Ptolémée, fils de Soemos.

(2) Josèphe, *Bellum Jud.*, I, 188.

(3) Strabon, XVI, 753.

(4) J. Doblas, *La donation d'Antoine à Cléopâtre en l'an 34* (*Mélanges Bidez*, I, 287).

d'une partie de l'Iturée et de la Syrie Creuse. Par ailleurs, Antoine enlève à Émèse la citadelle d'Aréthuse qu'il donne à un chef « parthe » Monoases (1). Les relations sont tendues entre Jamblique I et Antoine. Celui-ci encourage le frère de Jamblique, Alexas, à mettre à mort Jamblique I, qui avait cependant accepté de soutenir Antoine à Actium (2).

Alexas ou Alexandre est décrit par Plutarque comme l'homme de confiance d'Antoine et de Cléopâtre. Il aurait été d'abord maître de Laodicée du Liban, ville proche d'Émèse, avant de succéder à Jamblique à Émèse. Antoine l'aurait envoyé auprès d'Hérode le Grand pour détacher le prince juif de la cause d'Octave. Mais Hérode n'eut pas de peine à lui démontrer que la cause d'Antoine était désespérée. Il lui aurait conseillé de se rendre à Rome pour obtenir son retour en grâce auprès d'Octave. A Rome, Alexas pouvait compter sur l'amitié de son protecteur Timagène. Mais Octave ne se laissa pas fléchir. Il aurait fait jeter en prison Alexas (3).

A partir de ce point, les versions des historiens diffèrent. Selon Plutarque, Octave aurait renvoyé Alexas chargé de fers dans son pays, où il aurait été mis à mort. « Ainsi de son vivant, Antoine vit Alexas puni de sa trahison. » La mort d'Alexas serait donc à placer en 31 a.C.

Mais Alexas figure au triomphe d'Octave si l'on se réfère à la liste des « *reges aut regum liberi nocem* » (4) qui a inspiré à Properce le « *regum colla auratis catenis circumdata* » (5). Dion Cassius, qui est plus précis que Plutarque, place la mort d'Alexas après l'avènement de Jamblique II, donc après 20 a.C. (6)

R. Egger (7) estime que le trône d'Émèse demeura sans titulaire entre la mort de Jamblique I et l'avènement de son fils Jamblique II, soit pendant 10 ans. Cela est aujourd'hui admis par tous les historiens d'Émèse. Mais là où les opinions diffèrent, c'est sur l'appréciation du même Egger qui veut que les dynastes d'Émèse aient pris le parti d'Antoine contre Octave. C'est attribuer aux Émésiens la politique suivie par Alexas qui, apparaît au contraire comme un usurpateur. Comment Jamblique I aurait-il

(1) PLUTARQUE, *(Marc-)Antoine*, XLVI.
(2) DION CASSIUS, XL, 13.
(3) PLUTARQUE, *Antoine*, LXXX.
(4) *Mon. Ancyr. lat.*, I, 27-28.
(5) PROPERCE, *Carm.*, II, 1, 33.
(6) DION CASSIUS, LI, 2.
(7) In *J.O.E.A.I.* (Vienne), XIX-XX (1919), 319, n. 18.

pu embrasser le parti de celui qui lui avait ravi la forteresse d'Aréthuse?

Cette petite ville, fondée par Séleucus Ier constituait la pièce maîtresse dans le dispositif de garde des caravanes qui traversaient l'Oronte. H. Seyrig, après avoir noté que « après Actium, aucun texte ne nous informe du sort d'Aréthuse », penche à croire qu'Auguste rétablit ou confirma les franchises de la ville et il est peu probable qu'il ait à nouveau soumis cette ville grecque à Émèse (1).

L'argument allégué en faveur de cette thèse est qu'Aréthuse fut l'une des rares villes de Syrie à avoir adopté l'ère d'Actium. Mais l'argument est discutable. Car, les dynastes d'Émèse ont pu adopter cette ère pour Aréthuse, pour marquer leur reconnaissance de voir le vainqueur d'Actium leur restituer leur citadelle cédée par Antoine au parthe Monoases. Une stèle conservée au Musée de Damas, provenant d'Aréthuse, porte une double date, l'une séleucide (317 = 5/6 p.C.), l'autre celle d'Actium (6). Elle est ainsi conçue: « L'an 36, mais 317 selon le comput antérieur, ère de la liberté, Hermagoras, fils d'Apollonius, a fait pour lui-même ce tombeau » (2). R. Mouterde explique ce rappel nostalgique de l'ère de la liberté comme un regret que la ville soit retombée sous la domination des dynastes d'Émèse en 20 a.C.! On peut accepter la conclusion (retour d'Aréthuse à Émèse) mais expliquer différemment la notation « ère de la liberté ». Il peut s'agir de la liberté recouvrée après la domination de Monaeses et le retour à Émèse.

Cette interprétation est corroborée par la lecture de la borne du Djebel Bilaas par H. Seyrig; cette borne assigne comme frontière Nord à Émèse, non point les faubourgs d'Aréthuse, mais ceux d'Épiphania (Hamath). « Émèse devait confiner à Épiphania quelque part au sud du Djebel Bilaas » (3).

Émèse était donc hostile à Antoine et à ses protégés, le parthe Monoases et l'égyptienne Cléopâtre. Cette hostilité peut s'expliquer également par un autre motif: la solidarité entre Émèse et Palmyre. Nous savons qu'Antoine avait essayé de mettre la main sur les richesses de Palmyre (4). Il avait pris prétexte de la neutralité de la ville entre les Romains et les Parthes. Mais il ne trouva

(1) H. SEYRIG (II), *Syria*, XXXVI, 183, n. 3 et *Ant. Syr.*, VI, 67-68.

(2) *I.G.L.S.*, V, 2085.

(3) H. SEYRIG, *Ant. Syr.*, VI.VI, 69, n° 4. Il faudrait en conséquence corriger sur ce point le tracé de la frontière nord du territoire d'Émèse sur sa carte reproduite p. 67 comme nous l'avons fait: *Al-Machriq*, 1970, 178.

(4) APPIEN, *Bell. Civ.*, V, 9; A. PIGANIOL observe à propos de ce texte, que le nom de Palmyre apparaît ici pour la première fois chez un historien: *Histoire de Rome*, 1939, 209.

qu'une ville vide de ses habitants, qui s'étaient réfugiés au-delà de l'Euphrate. Or Émèse était alliée à Palmyre au moins depuis le Ier siècle a.C. (1).

R. Paribeni pense qu'il y aurait eu une interruption de la dynastie d'Émèse après la mise à mort d'Alexas (2). Cela est possible car Dion ne nous dit pas à quelle date Jamblique II succéda à Alexas. Auguste devait réorganiser la Syrie qui, dans le nouveau partage des provinces, fut attribuée à l'empereur. Les proconsuls cédèrent donc la place à des légats impériaux, séjournant, non plus à Damas, mais à Antioche, d'où ils pouvaient mieux surveiller les mouvements des Parthes. L'un des premiers légats à gouverner la Syrie fut le propre fils de Cicéron, Marcus Tullius (en 27 a.C.). Auguste n'avait pas jugé utile de changer le dispositif mis en place par Pompée. Parmi les États semi-autonomes qui assuraient une zone de protection aux villes de l'intérieur, la dynastie d'Émèse fut maintenue. Il se peut que Jamblique II ait été placé à la tête du clan d'Émèse (3), lorsque Octave parcourut la Syrie en 27. Avec l'Empire, une nouvelle ère particulièrement brillante allait commencer pour Émèse (4).

(1) H. Seyrig, *Ant. Syr.*, VI, 65.

(2) R. Parbeni, *op. cit.*, 36.

(3) Dion, LI, 1.

(4) Voir mes deux articles: « Les grandes heures de l'histoire d'Émèse », *Al-Machriq*, janvier-février 1970, pp. 65-90, et « Les relations politiques entre Rome et Émèse au IIe siècle p.C. », *Al-Machriq*, mai-juin 1970, pp. 325-356.

LE PANTHÉON D'ÉMÈSE

Le peu de documents relatifs au Panthéon d'Émèse n'a pas permis jusqu'à présent une étude d'ensemble sur la religion de cette ville. Le terrain reste donc en friche. Les quelques jalons qui vont suivre peuvent seulement indiquer les orientations de la recherche.

Nous trouvons d'abord à Émèse des divinités sémitiques dont l'origine est fort lointaine: c'est EL ou IL. Ce même dieu, « premier » au double sens du mot de « souverain » et de « plus ancien », habitait un haut-lieu que rappelle l'origine du nom Elagabal (dieu du haut-lieu) et le nom de bétyle (habitat d'El) dont la forme conique copie celle du haut-lieu ou d'une ziggourat. Par la suite, il a été assimilé à Kronos dans les ports de la côte phénicienne. En entrant en contact avec les populations de Syrie, les Arabes ont reporté sur le dieu Shamas des sédentaires les conceptions jusque-là réservées à El comme dieu suprême.

Les dioscures Aziz, Mon'm, Salman sont des divinités proprement arabes et représentent, sans beaucoup de précision, l'étoile du matin et celle du soir, l'aurore ou le crépuscule. Dans le panthéon émésénien, elles occupent une place secondaire.

Deux divinités sont communes aux Arabes et aux Syriens sédentaires: c'est la déesse al-Lât qu'Émèse a assimilée à Athéna et qui, à Hiérapolis, est vénérée sous le nom d'Atargatis. L'autre est Semios ou Simia. — Chez les peuples sémitiques du Proche-Orient, mais plus spécialement en Phénicie existe une tendance à placer à la tête du panthéon de chaque groupe ou cité une triade: c'est le cas notamment pour les villes de la côte: Byblos, Béryte, Sidon, Tyr. Mais des villes de l'intérieur ont eu également leur triade, comme Héliopolis et Palmyre dont les relations avec Émèse sont bien établies, et même Hatra qui, comme Émèse, a été, aux dires de Dion Cassius, une « ville consacrée au Soleil depuis les origines ». Existait-il une triade au sommet du Panthéon d'Émèse?

Le culte d'El-Il, et plus tard celui de Samash, a-t-il été associé à celui d'Al-Lât (Athéna) et celui de Simios. Entre ces trois divinités, doit-on concevoir les mêmes relations qu'à Hatra entre « Notre Seigneur », « Notre Dame » et le « Fils de nos

Seigneurs » (1) ? Il est prématuré de l'affirmer dans l'état actuel de nos connaissances.

La découverte de quelques reliefs provenant d'Émèse ne permet pas de fixer les traits du Panthéon d'Émèse, c'est plutôt de l'analyse des noms théophores des dynastes de cette cité que nous devrons tirer quelques arguments (2).

Mais par ailleurs, on a beau dresser une nomenclature des dieux, nous restons mal renseignés sur le culte lui-même, à l'origine de la principauté. Nous savons par Hérodien que ce culte, vers les années 220, comportait des processions au cours desquelles la pierre sacrée était promenée d'un sanctuaire à un autre, selon un cérémonial fastueux. Le même historien rapporte que des chants, des danses sacrées étaient exécutés au son d'instruments de musique auxquels participaient le grand-prêtre et sa famille (3). On retrouve là des pratiques que l'on connait dans les tribus arabes (4), de même que l'habitude de faire combattre la divinité à dos d'un chameau à la tête de l'armée engagée. Les reliefs du Temple de Bel à Palmyre nous montrent que ce culte existait bien dans cette cité voisine d'Émèse, dès le début de l'ère romaine en Syrie.

(1) A. Caquot, *Nouvelles inscriptions à Hatra*, in *Syria* (29), 1952, 204.

(2) Voir mon article: « Les relations politiques entre Rome et Émèse » dans *Al-Machriq*, mai-juin 1970, à l'analyse des noms théophores, p. 332 ss.

(3) *Hérodien*, V, 5, 9.

(4) H. Lammens, *Le culte des bétyles et les processions religieuses chez les Arabes préislamiques*, Le Caire, 1919.

NOMENCLATURE DES DIEUX

Le dieu EL.

1. « *EL est le dieu commun, primitif et probablement unique des anciens Sémites* », titrait en 1905 le P. Lagrange une étude devenue classique dans ses *Religions sémitiques*. La conception primitive va à Dieu sans s'arrêter à tout le reste: il est l'au-delà; il est le maître, au sens de secours et refuge auquel on tend par la prière. Il n'a jamais été le dieu d'un endroit particulier, rocher, arbre ou source, bien qu'on le vénère sur les hauts-lieux » (*op. laud.*, 82). Une inscription de Oumm al-Awamid donne à El le nom de « Seigneur » (Clermont-Ganneau, *R.A.O.*, V, 37).

Pour expliquer cette place prépondérante, il n'est pas inutile de rappeler la constitution de la tribu: « La divinité est conçue à l'image du chef, comme la tribu est conduite par son sheikh. Entendu en ce sens, EL suggère par lui-même que la divinité tutélaire d'un groupe ethnique, à l'instar du sheikh, était unique: c'est en ce sens qu'EL est "le premier" » (1).

2. *Personnification d'EL*

Seuls de tous les Sémites, les Cananéens auraient utilisé l'appellatif EL ou IL, dieu, comme nom commun par lequel ils ont désigné leur grand dieu: « EL devient le maître des dieux; il porte le titre de roi; il est le créateur de la création, et aussi le sage et le juge par excellence: il dicte directement ses ordres aux dieux » (2).

En Phénicie, dès l'époque hellénistique, EL est identifié avec Kronos (3). C'est sous cette forme qu'il est attesté sur les monnaies de Byblos à partir du II^e^ siècle avant notre ère (4). Son culte est particulièrement célébré à Béryte où un autel du III^e^ siècle de notre ère assimile Kronos à Hélios (5). Kronos est également le

(1) J. Starcky, *El, dieu unique des anciens Sémites*, in *Al-Mashriq*, 1960, 369 (en français).

(2) R. Dussaud, *Religion des Syriens...*, Coll. « Mana », 360.

(3) Photius, *Bibliothèque*, 243 b, rapportant la *Vie d'Isidore*.

(4) Babelon, *Les rois de Syrie*, 1890, 85, pl. XIV, fig. 18.

(5) Cook, *Zeus*, II, 886.

protecteur de tout un quartier d'Aradus (1). De la côte, il gagne l'intérieur syrien et persiste jusqu'à la fin du IIIe siècle, puisqu'en 252 une inscription de Qal'at al-Haways lui attribue une grande victoire (2). Le culte d'EL se trouve répandu en Arabie, en Auranitide (3) et en Émésène.

Chez le peuple des Émésèniens, le culte d'EL ou IL se traduit tout particulièrement par les noms théophores: j'ai expliqué ailleurs (4) la racine de Iambliços (Yamlik'IL). La racine EL donne lieu à deux autres noms théophores: *El*agabal et Garme*l*os (5) qu'il faut mettre ce dernier nom en parallèle avec Samsi*geram*, pour le verbe GRM = décider, qui leur est commun. El céde le pas, à une époque tardive, à Shams.

Shams.

Si les Sémites adorèrent primitivement le dieu EL comme dieu suprême, sous l'influence de l'astrologie chaldéenne, ils assimilèrent ce dieu au dieu Shamash de Mésopotamie (6). Les Arabes du désert, de leur côté, associent EL aux grands astres, le Soleil, la Lune, Vénus, si importants pour les guider dans les traversées du désert. Le soleil étant une force de la nature, se laisse mal figurer sous forme personnelle dans les reliefs (7): il confère aux autres dieux son caractère sacré sous la forme de la couronne radiée.

Dès que la dynastie d'Émèse fait son apparition dans l'histoire, ses premiers sheikhs empruntent à ce dieu leur nom théophore: un Samsigeram est mêlé aux luttes dynastiques des derniers Séleucides et Pompée reconnait sa principauté.

Le culte de Samash déborde d'ailleurs Émèse. On le trouve à Palmyre quoiqu'en dise J. Février, et ce culte solaire « est attesté chez les Sémites de l'Est et de l'Ouest, en safaïtique et en thamoudéen » (8). Hatra est, d'après ses monnaies, une « forteresse du Soleil » (Dieudonné, *Rev. Num.*, 1906, 132-134).

Le culte de Shams à Émèse suppose un clergé adonné aux spéculations théologiques: « Combien ce clergé avait subi l'ascendant

(1) L. Robert, *Mélanges Dussaud*, II, 729-731.

(2) Rostovtzeff, *Berytus* (8), 1943, 39, n° 52.

(3) D. Sourdel, *Les cultes du Hauran*, 35.

(4) Cf. note 2, p. 21.

(5) H. Lammens, *L'Émésène*, 1902, 26-27.

(6) Appien, *Syr.*, 38; Diodore, *Frag.* II, 31, 2.

(7) Cependant D. Schlumberger a trouvé un relief de Shams à Kirbet Sammnin (*Palmyrène du N.O.* 127, note 5).

(8) *Ibid.*, 127.

de l'astrologie chaldéenne est prouvé par le roman d'Héliodore (les *Ethiopiques*), qui était un prêtre de cette ville, et par l'horoscope qui valut le trône à Julia Domna » (1).

Et résumant ses recherches sur le culte du Soleil, le même savant écrit: « Le Soleil, cœur du monde, était le foyer de l'énergie divine; lumière intelligente, il était spécialement le créateur de la raison humaine; il envoyait, croyait-on, à la naissance les âmes dans les corps qu'elles animaient et, après la mort les faisaient remonter dans son sein... Une divinité unique, toute puissante, éternelle, universelle, ineffable, qui se rend sensible dans toute la nature mais dont le Soleil est la manifestation la plus splendide et la plus énergique, telle est la dernière formule à laquelle aboutit la religion des Sémites païens » (2).

Les dieux Jumeaux: Aziz-Mun'im (Salman).

Placés au-dessus du Soleil comme des Dioscures, des couples de divinités, au nom interchangeable, sont vénérés notamment à Palmyre et à Émèse: dans la cité caravanière, Abgal est associé à Azizou, à Arsou à Manou; à Émèse, Aziz se trouve en compagnie de Mun'im et de Salman, et les noms de ces trois divinités sont fréquemment portés par les dynastes de cette ville (3). Ces divinités mineures sont des personnifications de l'étoile du matin et de celle du soir, et subsidiairement, de l'aurore et du crépuscule.

M. Dussaud explique ce foisonnement de noms par des considérations linguistiques: « En Arabie, la planète Vénus est représentée par une divinité mâle en Arabie méridionale et femelle en Arabie du Nord. Comme Vénus se dédouble ordinairement en deux hypostases, nous rencontrons 4 formes, 2 mâles déduites de Athtar, et 2 féminines déduites de Allât: Azizos et Monimos sont déduits de Athtar et ont pénétré le monde gréco-romain sous le nom de Phosphoros et de Hesperos, d'où l'identité de la formule "Bonus Puer" pour Azizos et Monimos. Aziz le "dieu fort", est représenté portant l'habit ordinaire des soldats de Palmyre: tunique courte et manteau enveloppant les reins et les cuisses, roulé autour de la taille et laissant pendre sur le devant sa lisière frangée (4). Le culte de Aziz à Émèse n'est pas seulement attesté par les noms théophores de ses souverains, mais également par une inscription dédiée à ce dieu » (5).

(1) F. Cumont, *Les religions orientales*, 136 et 26, note 109.
(2) *Ibid.*, 123-124.
(3) Salman: cf. H. Lammens, *L'Emésène*, 65, n° 99.
(4) H. Seyrig, *Antiquités syriennes*, I, 99.
(5) Idem, *Antiquités syriennes*, IV, 132.

Le culte de Aziz et Mun'im n'est pas propre à Émèse: il s'étend à tous les milieux arabes caravaniers: au Hauran, à Palmyre, à Baitocécé, à Baalbeck. Particulièrement remarquable est le linteau provenant de Sueida où l'on voit un aigle en plein vol entraînant deux éphèbes ailés (1). Le relief de Aziz à Homs représente un aigle au repos abritant deux bustes sous ses ailes éployées (2). L'aigle est symbole de Shams.

Une inscription provenant de Ras ech-Chaar qualifie Salman de « génie bon et rémunérateur ». Ce dieu n'est pas spécialement émésénien puisqu il est vénéré en Phénicie, à Ras Shamra et jusqu en Égypte. (Sur ce dieu peu connu jusqu'ici voir des indications bibliographiques et des textes épigraphiques dans Schlumberger) (3).

AL-LAT = ALLAT (ATHÉNA OU MINERVE).

S'il faut placer au sommet du Panthéon d'Émèse El (Il) devenu tardivement Shams, il ne semble pas que l'on doive attribuer une place moins éminente à Allât, attestée par des reliefs et des noms théophores où le nom de la déesse est transcrit différemment: le plus fidèle à la racine arabe est Taimallath (à comparer avec Wahballath à Palmyre); les autres sont des transcriptions: Athénodore ou Minervinus (4).

Damasius, dans la *Vie d'Isidore*, nous apprend qu'il y avait un sanctuaire d'Athéna près d'Émèse (5). Mais le culte d'Allât couvre toute la Syrie-Phénicie et l'Arabie. C'est une divinité sidérale, la planète Vénus, d'où son symbole, sur les tessères de Palmyre, une étoile à 8 ou 10 branches (*R.E.S.*, 1700).

A Maquam ar-Rab, Allât trône entre deux lions: de la main droite, elle tient une lance, sa tête est protégée par un casque à cimier; elle est assimilée à Némésis, la déesse du Destin (6). Sur un relief découvert à Homs, mais d'origine palmyrénienne, le nom d'Allât est inscrit près de l'image de Némésis (7). Cette interprétation est confirmée par le bas-relief découvert à Khirbet el-Sané, où la dédicace à Athéna s'accompagne d'une image de Némésis (8).

(1) M. DUNAN, *Musée de Soueida*, n° 38.
(2) S. ABDUL HAKK, *Catalogue du Musée de Damas*, 80.
(3) SCHLUMBERGER, *Palmyrène du N.O.* 156, comm. du n° 30.
(4) *Bulletin du Musée de Beyrouth* (VII), 1945, 68, n° 5.
(5) PHOTIUS, *Bibliothèque*, 348 (éd. Bekker).
(6) H. SEYRIG, *Antiquités syriennes*, IV, 140 et V, 109 ss.
(7) L. RONZEVALLE, *Orientalia*, III, 1934, 138.
(8) SCHLUMBERGER, *Op. laud.*, pl. XXXVII, 1.

Doura Europos: Atargatis et Hadad, de part et d'autre du SEMEION
(Cf. Revue des Arts Asiatiques (11) 1937, pl. XXVII - a)

Le symbole de Némésis est le grand voile qui descend sur ses épaules et la roue du Destin.

Allât n'est donc pas seulement une déesse guerrière, mais une déesse cosmique. Son culte s'était répandu à Palmyre (1), en Iturée (dédicace trouvée à Maqam ar-Rab adressée au dieu (!) Athéna, ce qui prouve l'ancienneté de l'inscription). Les Syriens ont transporté le culte d'Allath-Athéna jusqu'en Bétique, puisque nous trouvons à Cordoue une inscription en son honneur (2).

Qu'est devenue Allât à une époque tardive? M. T. Fahd qui a bien exploré le *Panthéon arabe avant l'Islam*, estime qu'à cette époque cette déesse était une divinité suprême de ce panthéon: « C'est un état d'esprit permanent chez les Sémites de nommer les divinités au visage voilé par les attributs et les caractéristiques de son action: Allah, impersonnel est plus facilement accessible à l'intelligence sous les traits du Sort, du Temps irréversible = Allât » (page 44).

Simios - Semia - Semeion.

L'onomastique d'Émèse est riche en noms théophores tirés de la racine arabe SHM = flèche, attestés sous des formes différentes: Sohème, Soeme, Soaemias. La divinité rappelée par ces noms n'a pas de genre précis, car elle prend figure d'un objet (un Étendard ou une Enseigne) d'une déesse ou d'un dieu.

Comme emblème, le Semeion a été décrit par Lucien de Samosate dans sa *Déesse syrienne* (33). Un petit relief découvert dans le temple de Doura Europos représente ce Semeion entre Hadad et Atargatis. Cet étendard était destiné à être porté aux processions, jusqu'à la mer, ou l'Euphrate (3).

Sous sa forme masculine, le dieu Semios est le dieu foudre Keraunos et c'est ce sens qui correspond le mieux à la forme arabe SHM qui donne le diminutif « petite flèche » شُهَيْم. On voit ce dieu sur le bas-relief émésénien du Musée du Cinquantenaire revêtu du costume militaire oriental et portant une lance. Il figure en compagnie de Bel et d'Aglibol.

Selon une autre hypothèse, Simios ne serait qu'une déformation phonétique d'Eschmoun, dérivant lui-même du nom plus ancien de Sulman (4).

(1) Vogüé, *Syrie Centrale*, n° 8.

(2) *Archiv für Religionsw.* XXII = *Syria* (V), 1924, n. 344.

(3) *Revue des Arts Asiatiques*, 1937, pl. XXVIIa.

(4) W.F. Albright, *The Syro-Mesopotamic Godd Sulman-Eshmun and related figures*, in *Archiv für Orientforschung* (VII), 1931, 161 ss.

A Hatra, Simios était la troisième divinité de la triade et appelé « Fils de nos Seigneurs » (1). Enfin, c'est le même dieu qui est mentionné sous sa forme masculine dans l'inscription de Kafr Nebo (2).

Mais ces témoignages ne sont ni les plus anciens ni les plus fréquents: cette divinité se rencontre en effet habituellement sous le nom féminin de Simia, transcrit également Semeia, ou Semea. Elle est donnée comme la fille de Hadad (3). Son culte est attesté à Hiérapolis (*Ant. Syr.*, VI, 89), à Palmyre (*ibid.*, I, 13), au Liban (*ibid.*, VI, 89, note 2). Connue par les textes accadiens (4) comme déesse du Destin, dans les textes assyriens comme épithète d'Ishtar, puis à partir du IX^e^ siècle comme la déesse qui « fixe les destins », elle est confondue, comme Allath, avec Némésis. Dans un ex-voto de Doura, Simia est assimilée à Junon, fille de Jupiter Balmarcod (5) (*Rev. Arch.*, 1903, II, 29). Nous sommes donc en présence d'une divinité multiforme, propre à parler à l'imagination religieuse des Arabes émésèniens.

Conclusion.

Le Panthéon d'Émèse, si on le compare à celui de Palmyre ou du Hauran, comprend un nombre assez restreint de divinités. Ces dieux sont pour la plupart arabes, ou répandus en Arabie et en Syrie-Phénicie. D'autres trahissent une origine mésopotamienne: Allât, Shams, et ont été adoptés sous l'influence du clergé, adonné à l'astrologie babylonienne. Pour êtres mineurs, les dioscures Aziz, Mun'im et leur homologue Salman jouissent d'une grande faveur dans ce milieu d'éleveurs et de caravaniers.

Ayant leur panthéon propre, les Émésèniens restent accueillants aux dieux des cités voisines; on a relevé une inscription émésénienne à Jupiter Héliopolitain (6). A basse époque, depuis Elagabal jusqu'à Zénobie, leur divinité principale restera le Soleil Hélios et l'empereur Julien pouvait constater qu'Émèse est « une cité où l'on honore le Soleil depuis des temps immémoriaux ».

---

(1) A. Caquot, *Syria* (29), 1952.

(2) Chabot, *Bull. Corr. Hell.*, 1902, 182 ss.

(3) R. Dussaud, *La pénétration des Arabes en Syrie*, 158.

(4) H. Zimmern, *Simât, Simê...*, in *Islamica* (2), 1926-27, 574 ss.

(5) *Revue Archéologique*, 1903, II, 29.

(6) Seyrig (H.), *Ant. Syr.*, IV, 131.

BIBLIOGRAPHIE

Généralités

ALTHEIM (F.), *La religion romaine antique*, Payot, 1955.
CUMONT (F.), *Les religions orientales dans le paganisme romain*, 1963.
DUSSAUD (R), *Religion des... Syriens, Phéniciens...*, Coll. « Mana », P.U.F., 1945.
— *Les Arabes en Syrie avant l'Islam*, Leroux, 1907.
FAHD (T.), *Le Panthéon de l'Arabie centrale à la veille de l'Hégire*, Geuthner, 1968.
LAGRANGE (J.M.), *Etudes sur les religions sémitiques*, 1905.
MAJARJI (P.), *Les dieux du paganisme arabe d'après Ibn al-Kalbi*, in *Revue Bibl.*, 1926, 396 ss.

Le dieu El-Il

CUMONT (F.), art. *El-Il(Ilah)*, dans *R.E.* de Poly Wissowa, V² (1905), col. 2217.
LAMMENS (H.), *Le culte des Bétyles et les processions...*, Le Caire, 1919.
LENORMANT (F.), art. *Elagabal*, in *Daremb. et Saglio*, II, col. 529-31.
STARCKY (J.), *El, dieu unique des anciens Sémites*, in *Al-Machriq*, 1960, 365 ss.
WINNETT (F.V.), *Allah before Islam* (*The Moslem World*, 1938, 239 ss.).

Samash

ALTHEIM (F.), *La religion romaine antique*, 298 ss.
CUMONT (F.), *Les religions orientales*, 1963, 123 ss.
— art. *SOL*, in *Daremb. et Saglio*, IV², col. 1373-86.
DOMASZEWSKI, *Die politische Bedeutung der Religion von Emesa*, in *Archiv fur Religionswiss.*, 1908, 233 ss.
FAHD (T.), *Le Panthéon...*, 150-151.
LENORMANT (F.), art. *Elagabale*, in *Daremb. et Saglio*, II, col. 529-31.
RÉVILLE (J.), *La religion à Rome sous les Sévères*, Leroux, 1885.
SEYRIG (H.), *Antiquités syriennes*, II et III.
STARCKY (J.), *Revue Biblique*, 1960, 271 ss.

Aziz-Monimos-Salmanes

CUMONT (F.), art. *Azizos*, in *R.E.* de Poly Wissowa, II² (1896), col. 2644.
DUSSAUD (R.), *La pénétration des Arabes en Syrie*, Geuthner, 1955.
— *Religion des Syriens...*, 412 ss.
GANZINIER, art. *Monimos*, in *R.E.*, XVII, 1933, 125.
LAMMENS (H.), *L'Emésène*, in *Le Musée Belge*, Louvain, 1902.
NOIVILLE (J.), *Le culte de l'étoile du matin chez les Arabes*, in *Hesperis*, 1928, 263 ss.

SEYRIG (H.), *Antiquités syriennes*, IV, V.
SOURDEL (D.), *Les cultes du Hauran à l'époque romaine*, 1952, 75.
STARCKY (J.), art. *Palmyre*, in *Suppl. Dict. Bible*.

Al-Lath = Athéna

ALTHEIM, *La religion romaine antique*, 299 ss.
FÉVRIER (J.), *La religion des Palmyréniens*, 10 ss.
CUMONT (F.), *Les fouilles de Doura Europos*, Geuthner, 1926, 131.
— art. *Syria dea*, in *Daremb. et Saglio*, IV², col. 1590-96.
DUSSAUD (R.), *Les Arabes en Syrie...*, 142.
FAHD (T.), *Le Panthéon des Arabes*, 44.
EYCKMANS (J.), *Les religions arabes préislamiques*, 14.
SEYRIG (H.), *Antiquités syriennes*, I et IV.
SOURDEL (D.), *Les cultes du Hauran*, 69 ss.
WINNETT (F.W.), *The Daughter of Allah*, in *The Moslem World* (30), 1940, 113-130.

Semios-Simia

CAQUOT (A.), *Note sur le Sémèion*, in *Syria* (32), 1955, 59-69.
DUSSAUD (R.), *Pénétration des Arabes...*, 123, 138.
— *Simea und Simios*, in *R.E.* de Poly Wissowa.
— *La religion des Syriens...*, 259-260.
DUMESNIL DU BUISSON, *Revue des arts asiatiques* (XI), 1937, 79 ss.
GOOSSENS (S.), *Hiérapolis de Syrie*, Louvain, 1943.
INGHOLT (H.), *Parthian sculptures from Hatra* (*Memoirs of Connecticut Acad.*, 1954).
RONZEVALLE (L.), *Orientalia*, III, 1934.
SEYRIG (H.), *Antiquités syriennes*, VI.

Divinités par régions

CAQUOT (A.), *Le Panthéon des Amorites de Mari*, in *Ann. Arch. Syrie*, Damas, 1951.
FÉVRIER (J.), *La religion chez les Palmyréniens*, Vrin, 1931.
GOOSSENS (G.), *Hiérapolis de Syrie*, Louvain, 1943.
SCHLUMBERGER (D.), *La Palmyrène du N.O.*, Geuthner, 1951.
SOURDEL (D.), *Les cultes du Hauran à l'époque romaine*, Geuthner, 1952.

Périodiques

Archiv für Religionswissenschaft, 1908.
Dictionnaire de la Bible.
Encyclopedia of Religions and Ethics.
Revue Biblique.
Revue d'Histoire des Religions.
Suppl. de Dictionnaire de la Bible.

FOUR NEW SAFAITIC TEXTS

BY

A. JAMME
The Catholic University, Washington, D.C.

Last February 3, 1970, Mrs. R. H. Davis of Aramco discovered four Safaitic inscribed stones in the immediate vicinity of some hilltop mounds near a large sabkhah called al-Bardawil, approximately 25 klm. northeast of Turayf (northern Saudi Arabia). I wish to express my deep gratitude to Mrs. Davis for kindly sending to me for publication her black and white and color photographs as well as the measurements of the stones. The importance of these new four short texts lies in their onomastics with more than the two-thirds of the names attested here for the first time, and also in the form of the two *ġ*'s in nos. 178 and 180. Finally, the transversal section of the letters shows a rounded curve, either elliptical or circular, with a smooth surface, as, e.g., in JaS 44 a (1).

177: a yellowish limestone with a brown crust; 9 ½" × 2 ½", and 1 ½" thick.

...]*l bn y'tm bn nrg*

...]*l, son of Fa'tim, son of Nazrab*

y'tm, cf., e.g., *'tm* in no. 179 (see below). — *nrg*, CIS 3428 (cf. my forthcoming book entitled *Safaitic Notes*, n. 97).

178: a yellowish limestone with a slightly brownish crust; 9" × + ¼", and + ½" thick; the center of the stone shows the sun disk with eight rays.

ldln bn ṣtm wwgm 'l tsġ

(1) Abbreviations of publications of Safaitic texts. — *CIS* = *Corpus Inscriptionum semiticarum*, Pars V: *Inscriptiones saracenicas continens*, Paris, 1950. — JaS = texts published by A. Jamme. — Ox = texts published by W. G. Oxtoby, *Some Inscriptions of the Safaitic Bedouin*, New Haven, 1968. — Wi = texts published by F. V. Winnett, *Safaitic Inscriptions from Jordan*, Toronto, 1957.

177

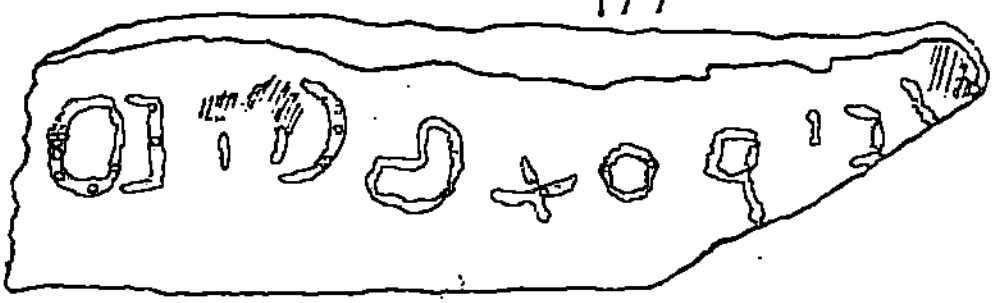

178

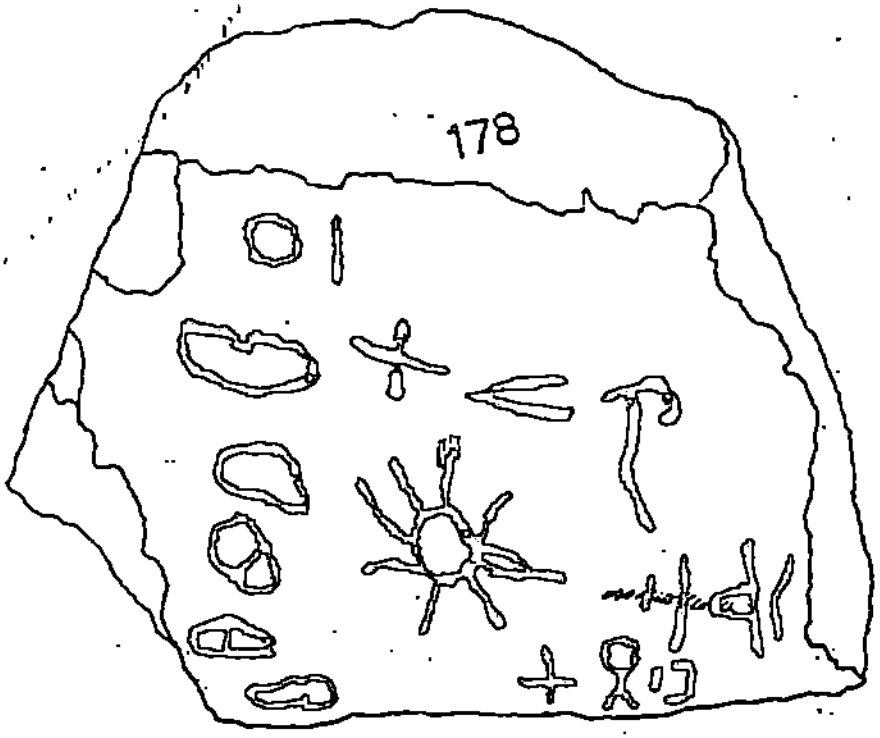

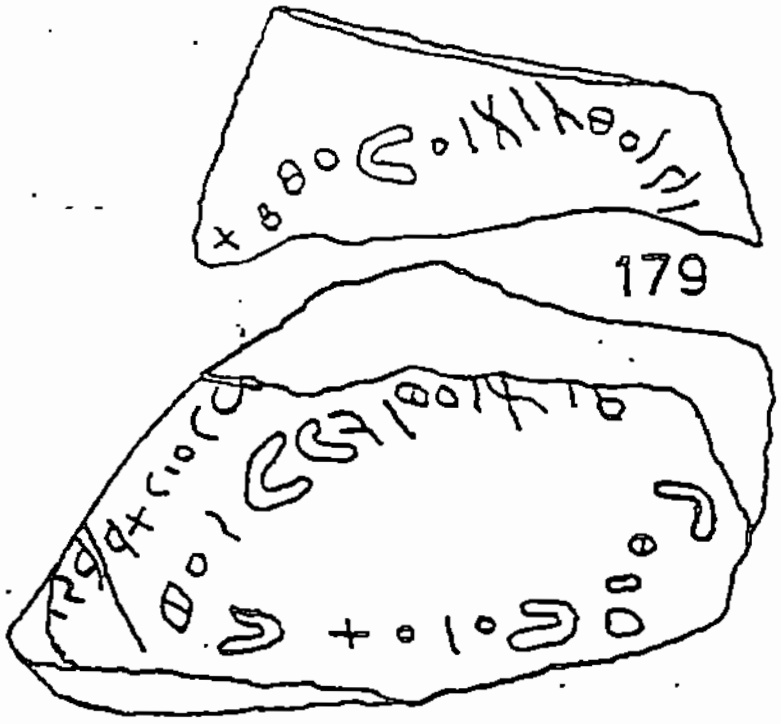

179

180

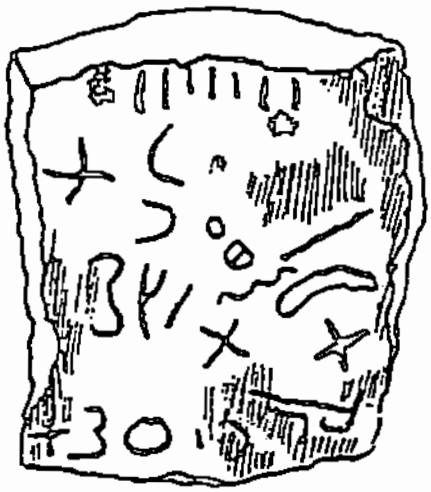

By Dawlān, son of Ṣatam. And he has mourned over Tasmīġ.

dln, cf., e.g., *mdl* in Wi 384 (cf. *Safaitic Notes*, appendix 1). — *ṣtm*, CIS 3143. — *wgm 'l*, e.g., JaS 47. — *tsġ*, cf. Arabic *sāġa* (o), 2nd form "to make something pleasant to someone", and the personal name *sġ*, e.g., in Ox 135 (cf. my forthcoming revue of W. G. Oxtoby's book).

179: a yellowish limestone with a brownish crust; 7" × 3", and 2" thick.

ġdd bn 'bd wgm 'l ḫln w'l klm wgm 'l 'tm w'l mnḥl w'l ḥly
By Gudadat, son of 'Abdat. And he has mourned over his maternal uncle and over Kālim and has mourned over 'Atīm and over Mumaḥḥil and over Ḥaliy.

ġdd, cf. Arabic *ġudadat*, "any hard lump in the tendinous parts", and the personal name *ġddt* in CIS 4517 (cf. *Safaitic Notes*, n. 19). — *'bd*, e.g., JaS 104. — *ḫln*, e.g., JaS 105 a. — *klm*, CIS 1558 (cf. *Safaitic Notes*, n. 125). — *'tm*, Wi 646 b. — *mnḥl*, cf. Arabic *mumaḥḥil*, "who picks up and keeps everything he finds", and the personal name *mḥl* in Wi 831. — *ḥly*, CIS 220.

180: a white limestone with a brown crust; 3 ½" × 5", and 1" thick. The text is followed by the well-known series of seven vertical strokes.

lmtġb bn gft fslt šw' rtb
By Mutġib, son of Gawfat. And, O Lat, accompany Rātib.

mtġb, cf. Arabic *tagṯība*, 4th form "to ruin, destroy". — *gft*, cf., e.g., *gf* in CIS 4208. — *šw'*, cf. the perfect in CIS 4803 (cf. *Safaitic Notes*, n. 160). — *rtb*, cf. Arabic *rataba*, "to remain, stay".

UN ÉCRIT INÉDIT ATTRIBUÉ A WAHB B. MUNABBIH (34/654-5-110 ou 114/728 ou 732):

La *Risāla fī sīrat an-nabī* *

PAR

R. G. KHOURY

Université de Saarbrücken

Wahb b. Munabbih, personnage trois fois légendaire pour les uns, mis à l'index par les autres, offre tout de même de quoi intéresser les esprits soucieux d'apprendre quelque chose de plus sur une période de la littérature arabe, celle où il a vécu, si importante pour la compréhension des périodes ultérieures. Cet intérêt est d'autant plus grand que le nom de cet auteur est étroitement lié à un papyrus littéraire qui, les premiers spécimens coraniques mis de côté, porte la date la plus ancienne qui nous soit connue dans toute l'histoire de la littérature arabe: Dū l-qi'da 229 (1). C'est pour faire connaître ce texte si important, mais aussi pour jeter un peu plus de lumière sur cette époque, malgré tout obscure, des premiers siècles de l'Islam que nous avions entrepris et publié un premier travail sur Ibn Munabbih (2). Qu'on nous permette de présenter le fruit de nos recherches à ce sujet, en guise d'introduction au petit texte que nous éditons ici.

Notre travail qui suit comporte donc d'une part l'édition du fameux papyrus attribué à l'auteur, et de l'autre une monographie de celui-ci, que l'édition du texte rend indispensable et dans laquelle nous avons passé en revue toute l'œuvre de l'auteur, en la soumettant à une étude critique:

---

* Dār al-Kutub, Caire, *Maǧāmi' Taṭ'at*, 287, 40 *sqq.*

(1) Août-septembre 844.

(2) Wahb b. Munabbih: 1. *Der Heidelberger Papyrus* PSR 1-52; 2. *Sein Leben und sein Werk.*

A. Wahb b. Munabbih.

1. *Le papyrus.*

Il appartient à la fameuse collection de Heidelberg dont la Bibliothèque Universitaire de cette ville fit en 1904 l'acquisition en même temps que d'un très grand nombre de papyrus arabes traitant de questions économiques, de contrats divers, etc... Parmi ces papyrus se trouvaient d'une part quelques lettres de Qurra b. Šarīk que C. H. Becker publia en 1906, puis corrigea et compléta par la suite; d'autre part deux textes littéraires, qui, grâce à leur longueur, donnent à toute la collection une importance spéciale: 1° un rouleau traitant de problèmes eschatologiques et attribué à Ibn Lahī'a. Ce texte, d'écriture très cursive et pénible à lire, est en bon état et il n'a pas encore été publié. 2° Deux papyrus de 32 pages écrits de la même main et les deux dans la version du même traditionniste Muḥammad b. Baḥr.

Le premier d'entre eux retrace quelques événements de la vie et des campagnes du Prophète:

a) La rencontre à al-'Aqaba (p. 1-4).

b) La réunion de Qurayš à Dār an-nadwa (p. 5-7).

c) L'émigration à Médine (p. 7-16).

d) Enfin l'expédition de 'Alī contre la tribu Ḫat'am (p. 17-21; la p. 22 est vide). C'est probablement la partie la plus originale du texte; elle nous décrit l'ardeur avec laquelle 'Alī défie et abat l'un après l'autre tous ses adversaires de la tribu ennemie, y compris leur chef al-Ḥārit b al-Ḥumaysa', et les oblige tous à se convertir à l'Islam.

Ce papyrus nous est transmis avec un *isnād* complet qui va jusqu'à Wahb b. Munabbih:

Muḥammad b. Baḥr — 'Abdalmun'im b. Idrīs (arrière-petit-fils de Wahb) — Idrīs b. Sinān (petit-fils de Wahb, par la fille, qui n'est nulle part nommée par son nom) — Abū l-Yās (son nom, d'après Ibn Ḥagar (1) ne serait pas autre chose qu'un surnom d'Idrīs b. Sinān) — Wahb b. Munabbih.

Le second papyrus nous raconte la légende du roi David: une première partie (p. 1-11) concerne toutes les péripéties accompagnant l'envoi de Saül comme roi, le retour de l'arche d'alliance

(1) Ibn Ḥağar, *Tahḏīb* (éd. Haidarabad), I, 194, n° 364.

dans le camp des Israélites, le combat entre David et Goliath et enfin la jalousie de Saül et sa mort. La deuxième est consacrée au règne de David. On y distingue:

a) Une description de la vie et du règne de David jusqu'à son péché (p. 11-13).

b) L'épreuve et le péché (avec la femme d'Urie) ainsi que l'histoire des deux plaideurs qui lui apparaissent, son repentir et sa complainte (p. 13-20).

c) David et Absalom (p. 20-23).

d) Les trois jugements (auxquels Salomon participe et qu'il corrige): 1° la femme, le maître du marché, le chef de la police et l'huissier de David; 2° les deux femmes et l'enfant; 3° le propriétaire des ovins et celui de « l'emblavure dévastée » (1) (p. 23-27).

e) L'histoire de la chaîne d'or (p. 27).

f) David commence à bâtir le temple. Sa mort. Début du règne de Salomon (p. 28-29).

Dans cette légende de David la question de l'identité de l'auteur n'est pas aussi simple que dans la première pièce: ce n'est qu'à partir de la page 6 que Wahb b. Munabbih commence à être cité. Cependant il ressort de tout ce texte, complété presque entièrement grâce à un manuscrit assez ancien, que, somme toute, il ne s'agit pas là de la version originale d'Ibn Munabbih sur les *Qiṣaṣ al-anbiyā'*, mais bien plutôt d'une version éclectique qui a tenu compte en particulier d'Ibn Munabbih, auquel on doit la majorité du récit (2).

De ces deux papyrus Becker avait publié les deux premières lignes des *Maġāzī* et la première ligne (en partie) de la légende de David. Ce n'est qu'en 1934 que G. Mélamède décida de publier la rencontre à al-'Aqaba, c'est-à-dire les quatre premières pages des *Maġāzī*. Mais cet auteur n'a malheureusement laissé qu'une édition fragmentaire et incorrecte: de la première page, elle répète les deux lignes de l'*imād* déjà déchiffrées par Becker; de la deuxième, elle laisse tomber les cinq premiers vers et de la quatrième, les trois dernières lignes et la cinquième avant la fin. A côté de cela, un très grand nombre de fausses lectures et de lacunes.

Le texte, il faut bien l'avouer, est difficile à lire: presque pas de points diacritiques; l'écriture est souvent estompée, surtout sur

(1) Blachère, *Coran*, S. 21, 78.

(2) Toutes ces questions ont été longuement analysées dans un chapitre de notre travail cité plus haut, intitulé: *Die Autorschaft*.

la première page de la vie du Prophète... Ceci Mélamède l'avait bien noté, puisqu'elle écrivit: « The writing is often very indistinct and sometimes impossible to decipher » (1). Cependant tout ce dernier texte est en général en bon état. Il y a seulement quelques petites lacunes qui, à partir de la page 15, grossissent sensiblement pour atteindre leur maximum aux pages 19 et 20.

Le problème est plus délicat dans la légende de David, dont le texte a subi d'énormes ravages: l'intérieur des feuilles est rongé; la plupart des pages ne sont là qu'à moitié ou moins encore: parfois il n'y a qu'un mot ou quelques lettres d'un mot. Notre tâche a consisté d'abord à établir la suite logique du texte en rassemblant les fragments et les mettant à leur vraie place, ensuite à compléter le tout presque entièrement. Nous n'avons opéré ces additions qu'en tenant compte de l'esprit de la langue, de l'originalité du papyrus et de la place possible. A toutes fins utiles, signalons encore que cette opération n'a été entreprise qu'en cas d'identité entre les deux versions, ou alors, de très grande ressemblance.

2. *Vie et œuvre d'Ibn Munabbih.*

Sur la vie de l'auteur nous avons complété le peu de renseignements que nous avions jusqu'à maintenant, en tenant compte non seulement d'ouvrages bio-bibliographiques non dépouillés jusqu'à présent, mais aussi en recourant parfois à d'autres sources comme le *Tafsīr* d'aṭ-Ṭabarī p.ex! Quant à l'étude de l'œuvre, elle n'a pu être menée à bon terme que, forcément, grâce à une procédure de reconstruction globale de tous les livres signalés par les bibliographes, basée d'abord sur le témoignage des écrivains anciens de l'Islam. Ici nous sommes arrivés à des conclusions toutes positives, car tous les titres rassemblés se basent sur un matériel effectif d'une grandeur très variable.

Cependant nous devons ici prendre fermement position contre une tendance que quelques chercheurs de nos jours adoptent et qui voit derrière le mot *kitāb* le mot livre (allem. *Buch*). Il est tout à fait évident que cette signification n'est pas du tout justifiée, surtout en ce qui concerne les débuts de l'Islam. Car, comme le dit si bien N. Abbott, « The word *kitāb* itself was used to mean anything written, from a letter or receipt to a notebook, pamphlet, or book, including the *Book* or *Qur'ān* » (2). Autrement nous aurions là une manière de voir qui mènerait bien loin, comme dans le cas d'Abū

(1) *Monde Oriental*, 28 (1934), 20. 11 *sqq.*
(2) N. Abbott, *Studies*, I. 23, 5 *sq.*

Miḫnaf p.ex. (m. 157 H.), auquel le *Fihrist* d'Ibn an-Nadīm attribue plus de 30 *kitāb* : ici on ne peut comprendre ces livres que comme de petites monographies sur des personnes ou des événements bien définis qui peuvent, toutes, être aisément réunies en un seul ouvrage. Dans le cas d'Ibn Munabbih, il y a sans doute plusieurs *kitāb* en cause, dont nous avons suivi les traces, non sans succès. Cependant il faut s'empresser d'ajouter que tous les livres secondaires ne peuvent pas être reconstitués entièrement. Prenons l'exemple du *K. al-Isrā'īliyyāt* : premièrement il n'y a pas assez de matériel pour former un livre: ceci pourrait être imputé à un manque de sincérité chez les auteurs arabes en question. Mais celui qui dépouille les premières sources se rend vite compte que le mot *K. al-Isrā'īliyyāt* ne peut être que l'invention des siècles ultérieurs qui, dans leur zèle de démêler le vrai du faux dans la tradition islamique, ont attiré l'attention sur le danger qu'apportent les récits d'origine israélite. Et comme Wahb était un grand représentant de ce genre de littérature, ce matériel lui fut attribué. Deuxièmement, ce même matériel nommé *Isrā'īliyyāt* par la postérité, se trouve cité dans des ouvrages de date assez ancienne (Ṭabarī etc...), sans distinction aucune d'autres éléments qui ont formé un autre écrit, ou disons: le grand ouvrage d'Ibn Munabbih (= *Qiṣaṣ al-anbiyā'*).

Toutes ces raisons nous ont poussé à étudier tout d'abord chaque ouvrage à part, à l'analyser, à le reconstituer et à démontrer par là comment il se rattache à la grande œuvre de l'auteur. Ce qui fait que nous avons obtenu le schéma suivant:

1. Des écrits qui se rapportent à la tradition judéo-chrétienne, comprenant essentiellement le *K. Qiṣaṣ al-anbiyā'*: une série de légendes prophétiques allant depuis le début de la création jusqu'aux signes précurseurs de la naissance du prophète Mahomet. Autour de ce livre se groupent quelques écrits qui peuvent être considérés ou comme compléments de ses idées ou comme idées développées en marge de celles-ci:

a) K. al-Isrā'īliyyāt : un ensemble d'anecdotes d'origine judéo-chrétienne dont une grande partie a été rattachée, sans trop de peine, au livre principal de Wahb.

b) K. Zabūr Dāwūd.

c) Ḥikmat Wahb.

d) Ḥikmat Luqmān.

e) Mawʿiẓat Wahb.

f) K. al Qadar.

g) Tafsīr Wahb.

Sous ce dernier titre il est impossible d'imaginer un grand commentaire du Coran. Il s'agit plutôt de quelques passages, parfois de quelques mots, commentant telle idée ou telle autre qui se rapporte à une légende ou à un événement prophétique définis. Il est raisonnable de penser à de tous petits commentaires qui s'inscrivent dans le cadre des *Qiṣaṣ al-anbiyā'*, avec lesquelles ils forment un tout. Le désir d'écrire des légendes prophétiques n'est-il pas né du désir de mieux comprendre les données coraniques, de les éclairer? Ce qui fait, qu'en somme, tout livre de ce genre est un commentaire du Coran dans le sens large du mot.

Quant à la traduction par Wahb des Psaumes de David, nous avons montré qu'elle ne peut pas avoir été effectuée *ex nihilo*, puisque déjà il y avait des traductions arabes de la Bible, ou de certaines parties de la Bible, avant lui. Ensuite nous avons démontré, par des rapprochements établis entre des textes ayant circulé sous le nom de *Ḥikmat Wahb* ou celle de Luqmān, qu'il s'agit là du même matériel, du même genre d'idées développées tantôt sous ce titre tantôt sous cet autre. Cheikho déjà avait exprimé son indignation contre des citations bibliques pareilles, qui n'ont rien à faire avec la Bible:

«Si la توراة de Mahomet et de ses sectateurs, écrit-il (1), n'est pas la Tôrah connue des Juifs et des Chrétiens depuis des siècles, si leur زبور n'est pas le Psautier qui est entre nos mains, si leur انجيل n'a rien de commun avec les évangiles canoniques, on est en droit de se demander quelle est cette توراة dont parle le Coran, quel est cet انجيل ou ce زبور dont il est fait mention. Reste-t-il quelque chose de ces ouvrages, et quels rapports ont-ils avec notre Bible, notre Évangile, notre Psautier?»

Une réponse à ces questions a été déjà plusieurs fois donnée, en particulier par Goldziher dans son article *Über muhammedanische Polemik...* (2). Ici aussi l'on a une réponse très claire: il ne s'agit pas d'une traduction des Psaumes ou de la Bible, mais bien plutôt d'un genre de littérature très spécial, qui glane ses idées ici et là, d'une manière très vague, y ajoute des sentences, des proverbes, des promesses, dans un style coranique. Ibn Munabbih avait sans doute fait l'un des premiers pas sur ce plan. Les générations ultérieurs ont parachevé, ciselé, augmenté et déformé le bien reçu en héritage; de telle manière qu'on peut donner à tous les écrits de Wahb que nous avons rangés dans la première catégorie, les *Qiṣaṣ*

(1) *Quelques légendes islamiques apocryphes*, *MFO*, 4 (1910), 39, 2 *sqq*.
(2) *ZDMG*, 32 (1878), 341 *sqq*.

al-anbiyā', les *Isrā'īliyyāt* et le *Tafsīr* mis à part, le titre suivant: *Ḥikam wa-mawā'iẓ* ou bien *Ḥikam wa-mawā'iẓ wa-amṯāl*. Là chaque sage avant Ibn Munabbih aurait son mot à dire: David, figure tant chérie des auteurs de légendes prophétiques, qui finit même par devenir sage et auquel on attribue une *Ḥikma*; ensuite Luqmān, un des personnages les plus légendaires de la littérature arabe et le sage de tous les temps; et sans doute d'autres qu'on ne nomme pas, mais auxquels on fait remonter tel ou tel discours, telle ou telle sentence.

2. Écrits sur l'Islam. Ils comprennent:

a) Les *Futūḥ* ou les conquêtes des Arabes. Ce livre ne nous est pas parvenu et n'a laissé aucune trace chez les auteurs arabes.

b) Les *Maġāzī* du prophète Mahomet. Nous aurons l'occasion de parler de cet ouvrage, aussi bien que de toute l'activité de Wahb dans le domaine islamique, au cours de la partie suivante consacrée à la *Risāla*.

3. Un seul écrit sur la légende de Himyar: *K. al-Mulūk al-mutawwaǧa min Ḥimyar wa-aḫbārihim wa-qiṣaṣihim wa-quburihim wa-aš'ārihim*. Ce livre, qualifié de «petit» mais d'«utile» par les bibliographes, a pu être reconstruit, bien qu'en partie seulement, grâce au *K. at-Tīǧān* d'Ibn Hišām, qui, nous semble-t-il, devrait contenir l'essentiel des idées de Wahb sur ce problème, encore que le nom de celui-ci, qui se retrouve fréquemment dans la première partie de l'ouvrage, devienne de plus en plus rare dans la deuxième, pour ne plus du tout apparaître dans la troisième.

Une conclusion s'impose après la présentation rapide de ces différents écrits attribués à Ibn Munabbih: tout d'abord, ils constituent un fait aussi véridique que tout ce que nous possédons de l'Islam ancien; si nous les mettons en cause, nous devons alors en faire de même avec toute la littérature des premiers siècles islamiques, parce qu'il s'agit des mêmes ouvrages de base qui nous ont gardé tout ce genre de textes. On ne peut ignorer la présence effective d'idées qui n'ont pas cessé d'exercer une influence prépondérante sur les premiers siècles de l'Islam, car, comme le dit Blachère, «L'historicité accordée à ces contes, par les Arabo-Musulmans, dès le Ier/VIIe siècle, est d'autant plus admissible que les chroniqueurs ultérieurs leur assignent une place dans leurs ouvrages» (1). En somme il ne nous reste pas autre chose que d'accepter cette littérature, naturellement avec toute la prudence

(1) *Regards sur la littérature narrative...*, *Semitica*, 6 (1956), 82.

voulue, pour n'en retenir que l'essence; car celle-ci peut être considérée comme le reflet de la pensée islamique des premiers siècles, de la même manière que la « masse » des « fragments » et des « poèmes » concernant la période préislamique le sont par rapport à la poésie de cette même époque (1).

Ensuite nous nous trouvons devant un autre point, qui se rapporte à la conception historique, à l'historiographie. Bien que défaillante et non scientifique dans son esprit et ses méthodes, celle-ci est remarquable par l'importance et l'ampleur de son champ d'action: il ne s'agit plus avec elle de retracer uniquement les événements de la vie ou des campagnes du Prophète. Ibn Munabbih fut le premier à dépasser le cadre assez étroit de ces façons de procéder habituelles dans les premières études historiques; le premier, il écrivit une Histoire plus générale, plus universelle: son innovation consistait à étendre son étude à la période préislamique (*Qiṣaṣ al-anbiyā'*, *K. al-Mulūk al-mutawwaǧa*...), aussi bien qu'à celle ultérieure à l'Islam (*Futūḥ*), et cela bien avant Ibn Isḥāq, présenté jusqu'à maintenant comme le grand novateur sur ce terrain.

B. La *Risāla fī sirat an-nabī*.

Ici nous devons tout d'abord commencer par dissiper toute équivoque, en rappelant ce que nous avions dit plus haut à propos du mot *kitāb*: Il ne s'agit en aucune manière d'un livre, d'une « lettre » à part sur la vie du Prophète, qui aurait mérité qu'on la cite comme un nouveau titre d'ouvrage, comme le fait Sezgin. C'est une grande citation, de plusieurs pages, qui doit même être traitée avec beaucoup de réserves: elle est datée de 1208 H./1793 et ne porte aucun *isnād*, ce qui laisse naturellement beaucoup à penser et a, à mon sens, de quoi mettre en valeur toute l'authenticité de l'attribution à Ibn Munabbih. De toute manière elle rapporte une événement de la vie du Prophète, elle décrit un miracle des premières années à Médine: par conséquent c'est, pour ainsi dire, un mouvement dans une œuvre; et l'on n'a aucun droit de traiter les choses autrement, sinon on pourrait prendre un ouvrage et le présenter sous un nombre illimité de volumes, d'écrits différents, ce qui, évidemment, mènerait trop loin.

Acceptée donc avec toutes les réserves nécessaires, cette *Risāla* n'est qu'une citation de plus, venant s'inscrire dans le cadre de l'activité de Wahb dans le domaine de l'histoire islamique. Comment se présente alors son travail auquel cette *Risāla* pourrait être rattachée? Nous avons déjà signalé plus haut que l'activité d'Ibn

(1) v. Blachère, *Histoire*, 178.

Munabbih sur ce plan s'était manifestée par deux écrits: l'un sur les *Maġāzī*, l'autre sur les *Futūḥ*. De tous les auteurs et les bio-bibliographes musulmans, il n'y a que Ḥāǧī Ḫalfa qui nous procure cette chance de citer ces deux titres. Les autres se contentent de célébrer en Wahb l'auteur des *Qiṣaṣ al-anbiyā'* ou le grand connaisseur des Choses d'Israël: bref de l'histoire biblique. Un côté assez faible dans l'histoire bibliographique chez les Arabes. Il concerne malheureusement un nombre assez grand d'écrivains, à côté de Wahb, et nous montre clairement que des livres comme le *Fihrist* d'Ibn an-Nadīm ne sont pas, ne devraient pas être le dernier mot à ce sujet. Celui-ci n'avait-il pas passé Ibn Munabbih complètement sous silence, alors qu'il avait tant à dire sur ses livres et sur son activité de pionnier! Et pourtant nous possédons des indices sûrs qui nous témoignent d'une activité de Wahb en ce domaine, peu importe qu'elle soit à cent pour cent de lui, ou qu'elle ne s'attache qu'à son nom. L'indice le plus sûr est le papyrus conservé à Heidelberg et dont nous avons parlé plus haut. Une autre preuve, moins solide sans doute, mais aussi valable que tous nos arguments concernant les documents que nous avons des premiers siècles islamiques et qui ne nous sont pas arrivés dans leur état original, consiste en quelques pages que nous a rassemblées surtout Abū Nu'aim et au sujet desquelles on aura encore à parler plus loin.

Quant au *K. al-Futūḥ*, nous ne lui avons trouvé aucun écho chez les historiens arabes. Il est vrai qu'Ibn Munabbih, grâce au poste-clef qu'il occupait au Yémen (*Qāḍī* de Ṣan'ā') et grâce aux bonnes relations qu'il entretenait avec les Omeyyades, du moins jusqu'à quelques années avant sa mort, se trouvait bien placé pour nous retracer les événements des premières conquêtes islamiques après la mort du Prophète. Ibn 'Abbās p.ex., duquel il était le disciple, 13 ans durant, à en croire aš-Šarǧī (1), aurait pu l'informer amplement sur la période antérieure. En effet rien ne s'oppose à pareils faits chez Ibn Munabbih, d'autant plus que celui-ci a servi de pionnier et de modèle à Ibn Isḥāq novateur, qui écrivit le *K. Tārīḫ al-ḫulafā'*, duquel très peu de chose, malheureusement, nous est arrivé (2).

La première innovation d'Ibn Isḥāq consistait à reproduire le matériel sur l'histoire biblique qu'il avait surtout puisé chez Wahb. Pourquoi ne pas penser de même que la deuxième innovation, concernant l'histoire des califes, ait eu pour instigateur le même Wahb, lorsqu'on connaît l'attitude assez souple d'Ibn Isḥāq par rapport

(1) *Ṭabaqāt*, 161 (éd. Caire, 1321).
(2) N. Abbott, *Studies*, I, 80 *sqq*.

aux Maîtres de Médine et aux directives de leur école. Ibn Munabbih, bien que conteur, aurait donc été une source précieuse pour lui. Il s'agit là évidemment d'une hypothèse; mais elle gagne en solidité si l'on considère la très grande dépendance d'Ibn Isḥāq par rapport à notre auteur sur le plan des légendes bibliques. Cependant comme nous n'avons rien en main pour établir des bases de discussion solides, il ne nous reste alors qu'à nous tourner vers le seul livre duquel nous avons quelques éléments parfois très précieux: le *K. Maġāzī rasūl Allāh*.

D'emblée une difficulté complique la question: les historiens des premiers siècles islamiques n'ont tenu compte d'Ibn Munabbih que sur le plan de l'histoire biblique. Pour le reste: silence total. Pourquoi ce silence, et quelle place occupe Wahb parmi les historiographes arabes anciens? Ibn Munabbih est sudarabique, yéménite. Il est né à Ḏimār (près de Ṣan'ā') et a vécu dans la capitale yéménite, où il occupa jusqu'à sa mort, ou du moins jusqu'à son emprisonnement, le poste de *Qāḍī*. Avec Médine il n'avait rien à faire. C'est en tant que conteur yéménite qu'il écrivit les *Maġāzī* du prophète Mahomet. Et nul n'ignore ce qu'un *qāṣṣ* apporte en fait d'esprit inventif et de travail non méthodique. C'est pourquoi l'on comprend si bien les réserves d'ad-Dūrī, qui ne se décide qu'après beaucoup d'hésitation à consacrer à Wahb quelques mots dans son livre *Baḥṯ fī našʾat ʿilm at-tārīḫ ʿinḏ al-ʿArab* (1), justement parce que celui-ci n'a pas été auteur des *Maġāzī* dans le véritable sens de Médine:

Inna dirāsata Wahb b. Munabbih taḫruǧu bi-nā ʿan niṭāqi baḥṯi ʿilmi t-tārīḫi ʿinda l-ʿArab. Wa-lākinna waḍʿahu min qibali baʿḍi l-bāḥiṯīna fī hāḏa n-niṭāq, wa-taʾkīda l-baʿḍi ʿalā ahammiyyatihi fī s-sīra, dafaʿanā li-baḥṯihi hunā li-nubayyina bi-wuḍūḥin annahu lam yuʿtabar min ahli l-maġāzī, wa-anna ḥaqlahu wa-aṭarahu huwa fī niṭāqi l-qiṣaṣi wa-l-Isrāʾīliyyāt » (2).

Malgré tout, on ne peut souscrire sans réserves aux conclusions d'ad-Dūrī. Dans ces propos il vise deux travaux sur la *Sīra*: l'un de Horowitz (3), l'autre de Lévi Della Vida dans l'*Encyclopédie de l'Islam*. Le premier admet Wahb comme un des premiers auteurs de la *Sīra*; le deuxième met l'accent sur la place importante qu'il occupe parmi eux. Quand on remonte les étapes de la naissance des études historiques dans l'Islam, on est par le fait même mieux préparé à comprendre l'attitude d'ad-Dūrī. En effet c'est à Médine,

(1) Beyrouth, 1960.
(2) Dūrī, *id.*, 103.
(3) *The Earliest Biographies...*, *Islamic Culture*, I (1927), 535 *sqq.*

centre religieux actif, que se sont constituées les bases de la recherche historique en liaison étroite avec les occupations d'ordre religieux. En d'autres termes les premiers historiographes, ou auteurs des *Maġāzī*, étaient en même temps *muḥaddiṯūn*. Et cette double qualification est importante, car c'était une condition *sine qua non*, qui garantissait l'authenticité des traditions et même la célébrité des auteurs. Ibn Munabbih, et ceci est certain, autant qu'on peut parler de certitude à propos des premiers temps islamiques, a été, après 'Urwa b. az-Zubayr, le deuxième auteur islamique qui nous ait livré un travail sur les *Maġāzī*. Et malgré cela, les auteurs des premiers siècles n'ont pas tenu compte de lui et ne l'ont pas cité dans leurs ouvrages. La cause en est que ses informations appartiennent au même genre de matériel qui a rendu Ibn Isḥāq *persona non grata* aux yeux des chercheurs de Médine: c'est-à-dire le genre épico-légendaire des *quṣṣāṣ*. Ce genre baigne dans un souffle de fantaisie: des contes romanesques qui, enflés par un esprit d'invention fertile, vont souvent bien loin! Un genre sur lequel Ibn Kaṯīr, p.ex., attire l'attention, qu'il met à l'index (1), et qui, dans les siècles postérieurs de l'Islam, fut baptisé du nom d'*Isrā'iliyyāt*. Et Wahb était le représentant le plus connu de ce genre de littérature. Ceci ne signifie pas que les autres pionniers de Médine n'ont jamais subi l'influence d'un pareil matériel; l'analyse des textes qu'on leur attribue prouve le contraire. Cependant il ne faut pas oublier que ce matériel fertile en inventions passait chez eux à l'arrière-plan, pour céder la place à des récits plus dignes de foi: c'est ainsi que 'Urwa essayait d'éviter l'exagération et les « effets »; à cela se rattache son usage discret de la poésie, alors que celle-ci joue dans les *aḫbār* d'Ibn Šarya un rôle prépondérant. Az-Zuhrī va encore plus loin que son maître, en se lançant dans des investigations de plus grande envergure, afin de découvrir la vérité et rechercher des garants aux informations les plus sûres.

Une deuxième cause de cette méfiance manifestée envers Ibn Munabbih est le peu de respect qu'il a manifesté aux règles de l'*isnād*. En effet ces règles n'avaient rien d'alléchant pour un *qāṣṣ* comme lui, et ne correspondaient aucunement à son tempérament. Si l'on examine toutes les citations rattachées à son nom, on y rencontre uniquement un petit nombre de cas où il nous mentionne les garants de ses récits: il s'agit d'une cinquantaine de fois où nous lisons surtout le nom d'Ibn 'Abbās. Cependant il ressort du coup d'œil jeté sur ce genre de citations que notre auteur a bien connu l'*isnād* et l'a même employé d'une manière parfois assez judicieuse; et il faut bien mettre l'accent sur ce point, puisqu'on a toujours été

(1) *Bidāya* (éd. Caire, 1351), I, 37, 17 *sqq.*; II, 88, etc.

persuadé du contraire. Il est vrai, c'est un nombre très limité de cas, et c'est peu de chose comparé à la multitude de passages où seul son nom nous sert de garant (v. les Annales d'aṭ-Ṭabarī p. ex.). Mais malgré tout. Wahb a bien des excuses, s'il ne se plie pas à ces règles: tout d'abord l'*isnād* n'avait pas encore été érigé en règle obligatoire, et son processus ne sera même pas clos au IIe siècle de l'Hégire, comme nous l'a montré Horowitz dans son analyse de l'*isnād* chez Ibn Isḥāq (1). 'Urwa, il est vrai, l'avait aussi déjà connu et employé (2). Mais dans beaucoup de cas il le laisse, lui aussi, tomber (3), et cela en tant que juriste, *muḥaddiṯ* et fondateur de la fameuse École de Médine.

Au fond du problème l'on voit clairement que la question de l'*isnād* n'a pas dû jouer un rôle dominant dans l'isolement d'Ibn Munabbih au sein des historiographes islamiques anciens. La raison majeure de tout cela réside plutôt dans le fait qu'il n'était pas *muḥaddiṯ*, qu'il n'appartenait pas à l'École de Médine et qu'il n'avait pas cherché ses informations, comme les représentants de celle-ci, sur place, avec le souci de la documentation et du triage scientifiques, demandé à l'époque. Il est un véritable *qāṣṣ*, que toutes ces règles, avec leurs modes de pensée trop systématiques, ne peuvent intéresser, car il avait le goût du public. Et celui-ci ne réclamait pas ce genre de matériel exposé d'une manière scientifique, mais bien plus les longues histoires, les *qiṣaṣ* au contour pittoresque et merveilleux (4). Le livre d'Ibn Isḥāq n'a-t-il pas été spécialement apprécié par la postérité, justement grâce à l'apport des *quṣṣaṣ*, dont les récits ne servent qu'à en pimenter les pages? Ce même livre d'Ibn Isḥāq, sous cette forme de mélange entre deux courants hétérogènes, n'est-il pas devenu l'autorité principale concernant l'histoire islamique et préislamique?

C'est ainsi que le *K. al-Mubtada' wa-l-Maġāzī* d'Ibn Isḥāq, conservé d'une part dans la *Sīra* d'Ibn Hišām et de l'autre dans les Annales d'aṭ-Ṭabarī, devrait pousser ad-Dūrī à réexaminer son attitude par rapport à Wahb. Il est en effet d'avis que les premiers traits de la *Sīra* avaient été esquissés au Ier siècle de l'Hégire non point par les *quṣṣāṣ* mais par les *muḥaddiṯūn* de Médine (5). On ne devrait cependant pas oublier que ceux-ci n'étaient pas les seuls à s'occuper de ce problème, car les *quṣṣāṣ* s'y sont adonnés assez tôt aussi et ont trouvé là un bon sujet d'entretien et d'édification à la

(1) *Der Islam*, 8 (1918), 39 *sqq*.
(2) *Annales* de Ṭabarī, I, 1147, 48, 85, etc.
(3) *Ibid.*, 1140, 67, 99, etc.
(4) V. là-dessus Tor Andrae, *Die Person Muhammeds*, 27.
(5) Dūrī, *id.*, 25.

fois (1). Ces mots ne sont pas pure invention; bien au contraire, ils se basent sur la nature des choses dans maintes religions qui ont servi de modèle à l'Islam. C'est pourquoi Lévi Della Vida n'exagère en rien le rôle des *quṣṣāṣ* dans ce processus et ne surestime pas la valeur d'Ibn Munabbih quand il écrit que c'étaient les *quṣṣāṣ* qui propagèrent, les premiers, des récits et des légendes sur la vie du prophète Mahomet, et cela immédiatement après les premières conquêtes islamiques (2). Déjà Goldziher avait montré clairement que ce métier plongeait ses racines dans les temps les plus reculés de l'Islam (3). Il ne s'agit donc pas de surestimer, mais de voir les choses d'une manière objective, puisque le genre des *quṣṣāṣ* est bien représenté dans la seule grande version officielle ancienne de la *Sīra* qui nous soit parvenue: celle d'Ibn Isḥāq.

En effet, à la comparaison entre la version du papyrus et celles d'Ibn Hišām et d'Ibn Sa'd p.ex., on se rend vite compte que souvent les mêmes sources communes de récits et de légendes avaient été mises à profit par les différents collectionneurs. Naturellement il ne faut pas s'attendre à rencontrer des parentés formelles, car il n'en est pas question dans des traditions qui ont circulé d'abord oralement, avant de retrouver leur forme écrite. Cependant les parentés sur le plan des idées ne manquent pas, et plusieurs rapprochements sont possibles, surtout si l'on tient compte du texte d'Ibn Sa'd comparé à celui d'Ibn Hišām: p.ex. l'histoire de la colombe et de la toile d'araignée à la porte de la grotte; mais surtout l'épisode d'Umm Ma'bad, la description du Prophète et les vers de Ḥassān b. Ṯābit, cités de la même manière chez Ibn Sa'd et dans le papyrus d'Ibn Munabbih...

Toutefois notre but n'est pas d'étendre la discussion sur ce problème, mais de montrer combien les textes anciens sont proches les uns des autres, au moins sur le plan des idées, qu'ils aient été de la main d'un *muḥaddiṯ* ou d'un *qāṣṣ*. Déjà dans notre papyrus à propos de la légende du roi David, nous lisons:

« *Kullun kāna yuḥaddiṯu bi-qiṣṣati Dāwūd wa-qāda baʿḍuhum ʿalā baʿḍ* » (4). Un témoignage important de plus, rattaché par un *isnād* collectif aux noms de Muqātil, Qatāda et al-Ḥasan d'une part, et à celui d'Ibn Munabbih de l'autre, et cela sans distinction aucune. Ceci n'a, certes, rien de neuf. Il sert cependant à éclairer une fois de plus, que les informations sur la *Sīra*, qui sont entre nos

(1) Tor Andrae, *id.*, 26.
(2) V. *EI*, art. *Sīra*.
(3) *Muhamm. Stud.*, II, 161.
(4) *Papyrus*, 6, 12.

mains, remontent à des sources communes présentant parfois des affinités très frappantes, et qui, somme toute, « ne diffèrent entre elles que du plus ou du moins ».

Ceci dit, il nous reste à attirer l'attention sur le fait que ce phénomène n'a absolument rien de répréhensible, puisqu'à l'époque le mot *qāṣṣ* n'avait pas cette signification désavantageuse et péjorative que les siècles postérieurs introduisirent (1) : à l'origine il s'agissait de gens dévots, désireux d'instruire et d'édifier. Et les sources de Goldziher ne sont pas moins dignes de foi que le reste que nous tenons pour tel. Il ne faut donc point confondre ces *qāṣṣ* avec les auteurs professionnels bon marché dont parle Heller (2). Ni Wahb ni ceux de son genre n'ont appartenu à ce monde-là. Les *quṣṣāṣ* dévots de l'Islam ancien, auxquels Ibn Munabbih appartenait en tant que musulman très zélé et même auteur d'une littérature très édifiante, n'étaient pas autre chose que des vulgarisateurs du Coran et des prédicateurs, qui, par esprit de pure dévotion, devinrent des conteurs de récits historiques (3). Ceux-ci garderont même sous les Omeyyades le caractère sérieux et dévot de leur mission, et les autorités orthodoxes ne feront que les approuver. Goldziher cite, par exemple, le nom de Ka'b al-Aḥbār. Nul n'ignore que la place de ce dernier tomba en partage à Wahb, dont la vie et le caractère étaient un modèle d'ascétisme, de renoncement et de dévotion. Certes, l'on doit tout de même n'accepter l'apport des *quṣṣāṣ* qu'avec les réserves voulues, d'autant plus que les générations postérieures n'ont fait que déformer et grossir le matériel primitif. Mais, malgré tout nous devons ici garder nos distances avec les propos d'ad-Dūrī, car même si Wahb ne représentait que la fantaisie et l'invention, la légende populaire et non l'histoire, on ne devrait pas fermer les yeux sur l'influence, très grande, des *quṣṣāṣ* dévots sur le genre historique et considérer leur apport comme pur accident. Bien au contraire le travail d'Ibn Munabbih est d'autant plus précieux qu'il nous livre la version ancienne unique du matériel le plus ancien peut-être, celui des *quṣṣāṣ*, qui a exercé une influence plus grande qu'on ne le croyait jusqu'à maintenant sur tout le développement de la *Sīra* au I^er^ s. de l'Hégire.

Quant aux proportions exactes du livre de Wahb, elles ne peuvent être bien déterminées. A côté du papyrus, nous disposons de très peu de matériel, Ibn Munabbih ayant été mis à l'index

(1) GOLDZIHER, *Muhamm. Stud.*, 161.
(2) *EI*, II (1ère éd.), 1120.
(3) *Ibid.*

par les historiographes musulmans. Ce matériel se résume en quelques passages prédisant l'avènement du grand Prophète (1) et quelques pages surtout sur la mort de celui-ci (2). Les textes d'Abū Nu'aym (*Ḥilya*) ont l'avantage d'être introduits par un *isnād* complet remontant aux célèbres 'Aqīl et 'Abdaṣṣamad qui étaient les enfants de Ma'qil, frère de Wahb. Somme toute, ces textes sont, après le papyrus, les plus dignes de foi que nous ayons du livre d'Ibn Munabbih. Déjà le papyrus nous montre le genre dans lequel s'est lancé l'auteur: un mélange de *Sīra* et de *Maġāzī* que l'on trouve chez 'Urwa et son élève az-Zuhrī, mais avec la différence que chez ces deux derniers la deuxième partie semble l'emporter sur la première (3). Qui sait si Wahb n'avait pas fait de même dans les autres parties perdues de son œuvre! L'important reste quand même que ce genre de mélange apparaît très tôt et non seulement chez notre auteur; un témoignage de plus que le ton était donné et devait conduire au grand ouvrage d'Ibn Isḥāq, où *al-Mab'aṯ* prendra place à côté des *Maġāzī*.

A part le papyrus et surtout les pages d'Abū Nu'aym, il faut mentionner la *Risāla fī sīrat an-nabī*. Nous ne revenons pas sur ce qui a été dit plus haut, qu'il ne s'agit point ici d'un ouvrage sur la vie du Prophète. C'est trop évident et ne mérite pas qu'on s'y attarde. Pour nous elle constitue donc un passage dont l'appartenance à Wahb est très douteuse. Le seul fait qu'elle porte son nom n'est pas un argument valable. Aussi faut-il s'en servir avec beaucoup de prudence. Quoiqu'il en soit, ces événements se déroulent en l'an 2 de l'Hégire:

Un *a'rābī*, nommé Ǧābir b. 'Abdallah al-Ǧurhumī, vient chercher le Prophète (1 v.) et lui demande de lui expliquer un *ḥadīṯ* qui semble absurde: « *Innī kuntu nabiyyan wa-Ādamu bayna l-mā'i wa-ṭ-ṭīn wa-kuntu nabiyyan wa-lā Ādama wa-lā mā'a wa-lā ṭīn* » (2 r. et suiv.). Le Prophète lui montre alors comment la Révélation s'est effectuée grâce à la descente de Gabriel (2 v.): Dieu avait créé 100.000 Gabriels qui furent brûlés par le feu divin. Mais le vrai Gabriel fut sauvé par un ange qui lui était apparu sous la figure d'Abū Bakr et lui avait conseillé de répéter une certaine formule (3 r.). Ensuite Gabriel témoigne en faveur de Mahomet (lumière près du trône de Dieu, place d'honneur auprès de celui-ci), et éclaire par là le sens du *ḥadīṯ* cité ci-dessus (3 v.). L'*a'rābī* demande

(1) Abū Rifā'a b. Waṯīma b. al-Furāt al-Fārisī, manuscrit Rome, 144 r., 150 v.; Abū Nu'aym, *Dalā'il* (ed. Haidarabad, 1950), 32 *sqq.*; Ṭabarī, *Annales*, I, 1009; Ibn al-Ǧauzī (Abū l-Faḍā'il), *K. al-Wafā'*... (éd. Brockelmann), 41 *sqq.*

(2) Abū Nu'aym, *Ḥilya* (éd. Caire, 1351), IV, 72 *sqq.*

(3) Dūrī, *id.*, *id.*, 64 *sqq.*

des témoins et le Prophète lui propose à tour de rôle les quatre califes orthodoxes (+ r.); mais l'*a'rābī* les refuse tous et demande plutôt le témoignage d'une pierre noire et d'un arbre desséché qui se trouve à la porte de la mosquée (+ r.). Gabriel apporte alors au Prophète soucieux la bonne nouvelle que Dieu avait, dans sa prescience, prévu les deux miracles déjà avant la création (+ r.-v.). Enfin suit le témoignage de la pierre et de l'arbre, ce qui a pour conséquence que l'*a'rābī* et toutes les tribus arabes après lui se convertissent à la seule religion véritable: l'Islam (+ v.-5 r.).

Cette lettre, à l'écriture propre et lisible, d'un arabe clair et assez correct malgré quelques petites fautes grammaticales et la présence d'une ou deux tournures dialectales, laisse percevoir, parfois d'une manière trop évidente, le travail des siècles ultérieurs. Il est vrai que la littérature postérieure, connue sous le nom de *Dalā'il* et de *Samā'il an-nabawiyya* (1) n'a pas été une invention *ex nihilo*, mais a déjà eu, dans les temps les plus reculés de l'Islam, ses premiers pionniers: ceux qui ont lancé les premières grandes lignes de la *Sīra* s'en sont occupés, comme les versions les plus anciennes de la Biographie du Prophète en font foi. Chez Ibn Munabbih, p.ex., les miracles ne manquent pas de faire leur apparition: dans la première partie de la Biographie (v. papyrus, p. 1-16) il y en a cinq: 1° le Prophète passant à travers les Quraychites sans être aperçu d'eux. 2° Abū Bakr guéri par le Prophète de la piqûre du scorpion dans la grotte de Ṯaur. 3° Le miracle de la colombe et de la toile d'araignée. 4° L'épisode concernant le cheval de Surāqa qui poursuivait le Prophète. 5° La brebis d'Umm Ma'bad. A cela il faudrait ajouter que toute la deuxième partie (v. papyrus 17-21) n'est qu'un seul miracle témoignant de la présence cachée de Dieu auprès de 'Alī. Quant à la *Risāla*, on ne lui trouve aucune trace dans la littérature ancienne: un fait assez grave, d'autant plus que cet écrit est de date très récente et ne porte aucun *isnād*. Est-il vraiment de Wahb? Personnellement je serais enclin à ne pas le croire. Formellement il porte quand même son nom. Peut-être que les années à venir pourront apporter une réponse positive à cette question qui, pour le moment, n'aura aucune solution définitive et satisfaisante.

(1) V. art. *Sīra* (*EI*); Tor Andrae, *Die Person Muh.*, 57 *sqq.*

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

وممّا ورد في الأخبار والأحاديث أنه روي عن وهب بن منبه رضه أنه قال : صلّى بنا رسول الله صلّعم صلوة الظهر ، وكان ذلك بعد الهجرة بسنتين ؛ فبينما هو قاعد يحدثنا إذ دخل علينا المسجد رجل عظيم الهيكل ، واسع الكتكل بهامة كالرجل . فنادى : يا أهل طيبة أيكم محمد بن عبدالله ابن عبد المطلب ؟ قال فنهض اليه الرجل العاقل أبو بكر الصديق رضه وقال : يا أخا العرب قدّك مليح ووجيك صبيح ولسانك فصيح ؛ أما تنظر الى صاحب الوجه الأقمر والجبين الأزهر أما ترى القمر بين النجوم ؟ فذلك محمد صلّعم رسول الحي القيوم . قال فلما سمع الاعرابي هذا الكلام جعل يشق الصفوف الى ان وصل بين يدي رسول الله صلّعم وقال : السلام عليك يا محمد خاصة وعلى أصحابك من بعدك عامة . فقال صلّعم : السلام على من اتّبع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى وأقرّ برسالة محمد المصطفى صلّعم .

ثم ان الاعرابي قال : أنت محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ، وقبيلتك قريش وسلالتك بنو هاشم وفرعك بنو عبد المطلب ومولدك مكة في عام الفيل شهر ربيع الأول ثاني عشر منه موافق ليلة الاثنين ؛ ثم أقمت بمكة الى أن كمل لك اربعون سنة ؛ فقلت : أنا رسول من الله ثم أقمت تنذر قومك إحدى عشر سنة ثم هاجرت الى المدينة ؛ ولك اليوم فيها ستّان وانت تقول : إنّك رسول الله . يا محمد هو أنت ؟ فقال النبي صلّعم : يا أخا العرب قد عرفتني حسباً ونسباً . فبعد ذلك قال الاعرابي : يا محمد اني انا الأقل وأنت الأكثر . وها قد عرفتك نسباً وعرفاً ؛ فهل تعرفني أنت كما عرفتك أنا ؟ فقال النبي صلّعم : يا أخا العرب ما أعلم ما وراء جداري هذا

(1) Quelques erreurs d'écriture ou de copiage ont été supprimées: p.ex. le mot *ibn* qui s'écrit sans *alif* entre le nom du fils et celui du père, un *hamza* qui manque ou un impératif d'un verbe à racine anormale qui conserve son *yā'* à la 2e pers. du sing., etc. Enfin quelques mots voient, à la fin des lignes, une division syllabique inaccoutumée mais qui était répandue dans les premiers siècles islamiques. Nous avons renoncé à énumérer ces quelques traits archaïques, puisque nous disposons d'autres textes plus précieux et plus anciens qui nous les offrent d'une manière plus originale.

إلا أن يُوحَى الي ؛ فان شئت سألت ربي عز وجل يعلمني ما اسمك واسم أمّك واسم أبيك واسم قبيلتك وما حاجتك وما أسررت في نفسك . قال فقال الاعرابي : يا محمد أنا أعلمك باسمي واسم ابي وامي واسم قبيلتي ؛ أنا جابر بن عبدالله اللات الجرهمي وقبيلتي الجرهم وأنا قاضي العرب ؛ وانه لما سمعت العرب بأخبارك وما تقول فاختاروا ان يرسلن إليك رسولا ؛ فلم يجدن فيهم أفصح مني لساناً ولا أقوى جناناً ولا أسرع جواباً ؛ فأرسلني الى بين يديك وأمرتي أن أبلغك الرسالة ؛ فان أمرتني ان أبلغك الرسالة بلغتك والا فلا . فقال النبي صلّعم : يا أخا العرب وما على الرسول الا البلاغ المبين ؛ بلغ ما أرسلت به ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . فقال الأعرابي : أول شيء أمرت به أن العرب يسلمن عليك . فقال النبي صلّعم : والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى ولم يشرك بالله شيئاً ابداً ؛ لكن بعد سلامهم إيش كلامهم ومقالهم؟ قال : يا محمد تقول لك العرب أنت رسول الله كما زعمت؟ فقال نعم ، أنا رسول الله . فقال الاعرابي : أنت رسول الى مكة والمدينة ؛ أم أنت رسول الى جميع العرب؟ فقال النبي صلّعم : أنا رسول الله الى العرب والعجم والجن والأنس وجميع الأمم . فقال : يا محمد إن الذي يكون رسولا ويكون مبعوثاً إلى العرب والعجم والجن وجميع الامم يكون في مقاله صادقاً .

فقال النبي صلّعم يا أخا العرب أنا من قبل ان أبلغ الرسالة كانت العرب تسميني الصادق في مقاله . فقال الاعرابي : لقد سمعنا عنك ذلك ، لكن سمعنا عنك خبراً أنكرته عقولنا ولم توافقه اشخاصنا ؛ فان كنت أنت قلته فعقولنا ما تقبله ، وإن كنت ما قلته فقد ينقد عن الرجل ما لا يقوله ولا يفعله . فقال له النبي : ما الخبر الذي سمعتموه عني ؟ قال الاعرابي سمعنا عنك انك تقول عن نفسك إنك نبيّ وآدم بين الماء والطين . فقال النبي صلّعم : إني كنت نبياً وآدم بين الماء والطين وكنت نبياً ولا آدم ولا ماء ولا طين ؛ فقال الاعرابي : بخ ، بخ ؛ المعنى عجيب ؛ يا محمد أنت محمد بن عبدالله وجدك عبد المطلب وقبيلتك قريش ومولدك بمكة ؛ ولدت بتمام النيل في شهر ربيع الأول بموافقة ليلة الاثنين لاثني عشر ليلة خلت منه ؛ وعمرك

ثلاثة وخمسون سنة ؛ وإن لآدم أبي البشر منذ قبض روحه الى رحمة الله تمّ ستة آلاف سنة وكسور السنة ؛ فكيف كنت نبياً وآدم بين الماء والطين وتقول كنت نبياً ولا آدم ولا ماء ولا طين ؟

فقال النبي صلّعم : اجلس يا أخا العرب واسمع ما اقول لك . قال فعند ذلك جلس الاعرابي بين يدي رسول الله صلّعم ؛ فقال له النبي صلّعم : يا أخا العرب . إن الله تمّ لما شاء بظهوري ولدت في عام الفيل . وأقمت بين أهل مكة الى أن كمل لي من العمر أربعون سنة نزل علي الأمين جبرائيل عمّ الذي كان ينزل على الانبياء من قبلي ؛ في خلقته الذي خلقه الله فيها . وله جناحان قد سد بهما المشرق والمغرب فلما رأيته أوجست منه خيفة ؛ فناديت لأهل بيتي : زملوني ؛ فأنزل الله تبارك وتمّ ايها المزمّل[1] قم الليل الا قليلاً الى قوله ترتيلاً ؛ ثم ان جبرائيل عمّ نزل علي مرة أخرى فناديت لأهل بيتي : دثروني ؛ فأنزل الله تمّ يا ايها المدّثر[2] قم فأنذر الى قوله تمّ ولربك فاصبر ؛ فبعد ذلك بهأت الله تبارك وتعالى أن ينزل علي جبرائيل في صورة بشر ؛ فأوحى الله إلي في صفة أي بشر تريد يا محمد ؟ فقلت : يا ربي في صورة دحية الكلبي ، وكان أجمل أهل زمانه ؛ فمنت تلك الليلة ؛ وأصبحت من الغد خرجت لعلى باب من ابواب مكة ؛ فطلعت الشمس شرقيا ؛ فلما نظرت إليها تذبلت بين يدي كما يتذبل ضوء السراج في شعاع الشمس ؛ فبينما أنا كذلك إذ رأيت عن يميني شاباً من أحسن الشبان مليح الأثواب عليه قميص أبيض وعمامة بيضاء وسراويل ؛ وكان هذا لباس دحية الكلبي ؛ فقال : السلام عليك يا سيد أهل السموات والأرض . فقلت له : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا عبدالله . أنت المَلَك جبرائيل ؟ فقال نعم أنا جبرائيل . لكن الحمد لله الذي بلّغني فيك أملي ؛ فقلت له : يا أخي يا جبرائيل وكيف بلّغك فيّ ربك أملك ؟

فقال لي : اعلم يا محمد انه لما شاء الباري جلّ وعلا بظهوري فقال لي : كن فتكونت بقدرته ، جلّ جلاله وتقدست أسماؤه ، ثم ناداني :

(1) Sourate 73.
(2) Sourate 74.

يا جبرائيل . فأخبرني الله جلّ جلاله أن قلت لبيك لبيك اللهم لبيك مائة ألف عام ؛ ثم ناداني عز وجل : يا جبرائيل من أنا ؟ فوقعت حائرًا لا أدري ما أقول فبينا أنا كذلك وإذا أنا بصوت من فوق رأسي وهو يقول لي : قل : أنت الله الذي لا إله إلا أنت الحيّ القيوم ؛ فقلتها فنجوت وتأملت ذلك الصوت وإذا هو ملك خلقه الله على صفة أبي بكر الصديق رضه فدخل في ذلك الوقت أبو بكر مجلس النبي صلعم . فقام له جبرائيل عم . فقال له النبي : يا حبيبي يا جبرائيل ما رأيتك قمت لأحد غير أبي بكر رضه ؛ فلما دخل أبو بكر فقال يا محمد هو شيخي ؛ فقال النبي : وكيف ذلك . يا اخي ؟ فقال أعلمك يا محمد أن الله قد خلق مائة ألف جبرائيل . ثم كان يتجلّى عليه الباري عز وجل ويقول له : من أنا ؟ فيمسك في الكلام فيحترق من نور الباري جل جلاله ؛ فلما خلقني الله تبارك وتع تجلّى علي وقال : من أنا ؟ واذا بأبي بكر الصديق رضه على صفة ملك خلقه الله تع وهو يقول لي : قل : أنت الله الذي لا إله الا أنت الحيّ القيّوم ؛ فقلتها فسلمت ؛ فهو شيخي في ذلك يا محمد ؛ ثم إني قلت : لا إله إلا الله مائة الف عام ؛ ثم سمعت الخطاب : يا جبرائيل سبّحني ؛ فقلت : سبحان الله مائة ألف عام ثم سمعت الخطاب يا جبرائيل كبّرني فقلت : الله أكبر مائة ألف عام ؛ ثم سمعت الخطاب : يا جبرائيل صلّ على نبيّي محمد صلعم ؛ فصليت عليك مائة ألف عام ؛ ثم سمعت الخطاب : صلّ على نبيّي محمد فصليت عليك مائة ألف عام أخرى ولم أزل أصلّي عليك مائة ألف عام في مائة ألف في مائة ألف عام ؛ حتى ختمت المائة ألف عام بمائة ألف عام ؛ فعظم ذلك علي وكبر لدي فسجدت في مقامي وقلت : إلهي وسيدي ومولاي من ذا الذي قرنت اسمه باسمك وجعلت ذكره كذكرك وأمرتني بالصلوة عليه مائة ألف عام ثم ازددتني بالصلوة عليه حتى صليت عليه مائة ألف ألف عام ؟ فبعدها سمعت الخطاب : يا جبرائيل تأدّب فجميع ما سبق لك عندي من التوحيد والتلبية فهو لك عندي الباقيات الصالحات . وأما ما سبق لك من الصلوة على نبيّي محمد صلعم فهو فرض عليك وعلى سائر خلقي ؛ فقلت عند ذلك:

إني بحرمته عليك ألا ما أريتني صورته ؟ فسمعت الخطاب : يا جبرائيل ادن ، فدنوت دنوة قطعت فيها سبعين ألف حجاب من البهاء وسبعين ألف حجاب من العظمة وسبعين ألف حجاب من الكبرياء وسبعين ألف حجاب من النور ، ثم خطتي سكتة من الكرى فلم أدر ما قطعت فيها من الحجب فبينا أنا كذلك وإذا أنا بك نورًا تتلألؤ من نور الباري جلّ وعلا وأنت ساجد بازاء العرش ، فقلت : إلهي وسيدي هذا نبيك محمد صلّعم ؟ فسمعت الخطاب : بلى يا جبرائيل ، هذا نبيّي محمد ، فقلت : السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا محمد صلّعم .

ثم قلت : اللهم إني أشهدك أن جميع ما وهبت لي من الباقيات الصالحات قد وهبتها لنبيك محمد صلّعم ، فرفعت أنت رأسك من سجودك ونظرت إلي بهذا الوجه المليح الذي إذا نظرت به الى نور الشمس تذبل ، ثم قلت بلسانك الفصيح : هو لك عندي يا جبرائيل ، ثم إني قلت : اللهم اجعلني سفيرًا بينك وبين حبيبك محمد صلّعم ، فبعدها سمعت الخطاب : يا جبرائيل قد فعلت ذلك ، ثم إني رجعت إلى مقامي ، فصليت عليك مائة ألف عام أخرى ثم إني سمعت الخطاب : إني جاعل في الأرض خليفة والخليفة هو آدم أبو البشر عمّ ، فذلك معنى قولي : كنت نبياً وآدم بين الماء والطين وأنا نبي ولا آدم ولا ماء ولا طين . فقال الأعرابي : يا محمد إذا كان هذا الكلام كلامك وهذه الحجة حجتك فمن يشهد لك أنك صادق في قولك ؟ فقال النبي صلعمّ : أو تطالب مني شاهدًا ؟ فقال نعم ، أو ليس انا في مقام الخصانية وأنا اليك رسول ؟ فقال النبي صلعمّ بلى إن كنت تطلب مني شاهدًا فأول من يشهد لي بالتصديق هذا وأشار إلى أبي بكر الصديق رضه فقال الأعرابي : هو سيّد بني تيم غير أني لا أقبل شهادته . فقال النبي صلّعم : ولم ذلك يا أخا العرب ؟ قال لأنه أنفق عليك ماله في شدّتك وأنسك في وحدتك وزوّجك بابنته وقاتل بين يديك ، وكل من فعل معك هذه الافعال إيش يمنعه أن لا يشهد لك بكلمة واحدة ، فقال النبي صلّعم : يشهد لي هذا ، وأشار الى عمر بن الخطاب رضه . فقال الأعرابي : لا أقبل له شهادة . فقال له النبي صلّعم : لم

ذلك ؟ قال لأنه أول يوم أسلم بين يديك أوصل الدم الى درج الكعبة إجلالاً لك . ومن فعل معك هذه الأفعال أي شيء يمنعه أن لا يشهد لك بكلمة واحدة ؟ فقال النبي صلّعم : يشهد لي هذا وأشار إلى عثمان بن عفّان رضّه . قال الأعرابي : لا أقبل له شهادة . فقال له النبي صلّعم : ولم ذلك ؟ قال : لأنك زوّجته ابنتك ثم قلت : لو كانت لي بنت ثالثة لزوجتها لك يا عثمان ؛ ومن فعلت معه هذه الأفعال إيش يمنعه ان لا يشهد لك بكلمة واحدة ؟ قال النبي صلّعم : يشهد لي هذا ؛ وأشار بيده إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه . فقال الأعرابي : بخ بخ ؛ يعني عجيب عجيب ؛ يا محمد اذا كنت ما قبلت شهادة أحد من الصحابة كيف أقبل شهادة ابن العم والقرابة ؟ فقال النبي صلّعم : يا أخا العرب ناشدتك الله إذا كنت ما قبلت أحداً من الصحابة وقد اختصتهم واحداً بعد واحد فمن تريده أنت يشهد لي بأني محمد رسول الله وأني لصادق في مقالي ؟

فقال الأعرابي : كم يجوز في شرعك شاهد ؟ فقال النبي صلّعم شاهدان . فقال الأعرابي : قبلت بهما وأنا اقول لك عنهما إن شهدا لك يا محمد بالتصديق أسلمت على يديك أنا وسبعون قبيلة من سادات العرب . فقال له النبي صلّعم : ومن هما هذان الشاهدان اللذان يشهدان يا أخا العرب ؟ فقال : أما الشاهد الأول فهو هذا يا محمد ؛ ثم أدخل يده في جيبه وأخرج منه حجراً أسود ؛ وقال : يا محمد أنا أناولك هذا الحجر فما يصل إلى يديك حتى ينقسم بشطرين ثم تقلّبه في يدك فيصير أربعة أجزاء ؛ ثم تقلبه يتباً فيصير ستة عشر قطعة ؛ ثم تقلبه في يديك فيصير اثنين وثلثين قطعة ؛ تنطق كل قطعة بلسان فصيح يسمعه كل أحد أنك رسول الله حقاً حقاً وأنك صادق فيما قلته ؛ والشاهد الثاني أن على باب المسجد شجرة قد يبست أغصانها ؛ وتساقطت أوراقها من طول الأعوام ، ولا عاد فيها إلا جذع يابس فتدعوها أنت يا محمد بلسانك فتأتي الشجرة إلى بين يديك ، وما تصل الى عندك الا حتى تغصن وتورق وتثمر في الساعة ثم ينطق كل غصن منها وورقة وثمرة بلسان فصيح يسمعه كل أحد أنك محمد رسول الله حقاً حقاً وانك صادق فيما قلته .

فلما سمع رسول الله هذا الكلام من الأعرابي أطرق الى الأرض حياء من الله عز وجل فبينما هو مطرق برأسه الشريف صلّعم ، إذا نزل عليه المطوّق بالنور جبرائيل عمّ وقال : يا محمد الله يقرئك السلام ويخصّك بالتحية والإكرام يقول لك وعزتي وجلالي خصصتك بهاتين المعجزتين من قبل أن اخلق أباك آدم بألف عام . فبعد ذلك تهلل وجه النبي صلّعم بالفرح والسرور وعرج جبرائيل عمّ إلى السماء .

قال ثم إن النبي صلّعم أقبل الى الأعرابي وقال له : يا أخا العرب ناولني الحجر فدفعه الى النبي صلّعم . فما وصل الى يده حتى صار نصفين ثم قلبه في يده المباركة فصار اربعة اجزاء ، ثم حوّله من يده اليمنى الى اليسرى فصار ثمانية اجزاء ، ثم قلّبه فصار سته عشر قطعة . ثم حوّله الى يده اليمنى اثنين وثلاثين قطعة كل قطعة نطقت بلسان فصيح يسمعه كل أحد أنت محمد بن عبدالله رسول ربّ العالمين حقاً حقاً وانك صادق فيما قلته وجعلت كل قطعة منه تعلن بالصلوة والسلام على سيّد الأنام . فقال له النبي صلّعم : اسكن أيها الحجر بارك الله فيك . فلم يبدأ من الصلوة فقال : ايها الحجر أطعتني في الأول وتخالفني في الآخر . فقال : لا يا رسول الله ولكن ما تهدأ روعتي حتى تضمن لي على الله بالجنة . فقال النبي صلّعم : أنت حجر وتطلب الجنة ؟ فقال الحجر : يا رسول الله ، إني سمعت قوله تع نارا وقودها الناس والحجارة[1] فخفت أن اكون من تلك الحجارة . فقال النبي صلّعم : أسكن وأنا اضمن لك على الله الجنة . فسكن الحجر من وقته .

ثم إن النبي صلّعم قال : يا اخا العرب قم وقف على باب المسجد وناد : يا هذه الشجرة أجيبي محمداً قال فعند ذلك نهض الأعرابي ووقف على باب المسجد ونادى برفيع صوته : يا هذه الشجرة أجيبي محمداً ولكن أنا أعلم ما لك أذن تسمعين بها ولا عين تبصرين بها ولا لسان تنطقين به حتى لا تستقلّ العرب عقلي .

فما استتمّ الأعرابي كلامه إلا والشجرة قد مالت إلى أمام فقلعت عروقها ثم مالت إلى خلف فقلعت عروقها ، وجاءت تسعى إلى أن دخلت من

(1) Sourate 66, 6 ou 2, 24.

باب المسجد فما وصلت حتى أورقت بعد أن أغصنت وأثمرت بعد أن أورقت من ساعتها بقدرة من يقول للشيء : كن فيكون ؛ وهمّت بالدخول الى المسجد فمنعتها أغصانها فلفّت بعضها على بعض حتى صارت كالعمود ثم دخلت من الباب وانتشرت أغصانها على من كان في المسجد وأنطق الله سبحانه وتع كل غصن منها وكل ورقة وثمرة بلسان فصيح وهي تقول : السلام عليك يا أحمد السلام عليك يا محمد السلام عليك يا رسول الله ؛ أنت محمد رسول الله حقاً حقاً وإنك صادق فيما قلته صلّم فعند ذلك قال النبي صلّم : يا جابر : قم واجن من ثمرها بيدك حتى يكون حجة لك وعليك ؛ فقام جابر رضه وجنى من ثمرها ووضعه بين يديه صلّم فقال النبي صلّم : أيتها الشجرة ارجعي الى مكانك وعودي كما كنت .

قال فعند ذلك خرج من الشجرة رغاء كرغاء الإبل وحنين كحنين المرأة الثكلى . فلما رأى النبي صلّم منها ذلك مدّ يده المباركة اليها ، وقال : اسكني فقد فيّضني الله كلامك الذي علّم الانسان ما لم يعلم . فارجعي الى مكانك وانا اضمن لك بالجنة وتكوين من شجرها يستظلّ المؤمنون بظلّك ويأكلون من ثمرك . وانا شفيع من لا شفيع له . فعادت الشجرة إلى مكانها تجرّ عروقها حتى وافت موضعها كما كانت أول مرة بقدرة الله . فعند ذلك قال الأعرابي : يا محمد لا كفر بعد إيمان ولا شكّ بعد عيان ؛ امدد يدك الشريفة فأنا أقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وأن دين الإسلام هو دين الحق وما سواه باطل . فعند ذلك صافحه النبي صلّم وصافحه المؤمنون والصحابة أجمعون وزوّده النبي صلّم . وسار الى أهله وقومه . ثم إنه لما وصل أعلمهم بجميع ما وقع وما رآه فلما سمعوا ذلك منه أسلموا عن آخرهم ببركة النبي صلّم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل وصاحب كل وتابع التابعين . وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير .

تمّ بقلم المختير ذي التقصير محمود الذي ذنبه كثير ورجاؤه من الله الكبير أن يغفر له ذنوبه بسبب السيد البشير اللهم اغفر لي وللمسلمين امين يا معين في سنة ١٢٠٨ .

وثائق وأحداث

العرب في العصور الكلاسيكية القديمة

تعريف لكتاب فرانتس التهايم وروث شتيل[1]

بقلم الدكتور مارتيانو روكاليا
المعهد الالماني للابحاث الشرقية في بيروت

سئل مرة الأب لاگرانج[2] الدومينيكي : ما هي اللغة الشرقية التي لا غنى عنها لكل مستشرق ؟ فاجاب جواب الواثق بنفسه وهو يبتسم بدهاء : الألمانية . إن اعتماد المذكور على خبرته الشخصية أدت به الى الاجابة على هذا النحو ، فانتاج حركة الاستشراق الألمانية تشمل كافة الحقول وتحلى بدقة التحليل مما يجعلنا نلاحظ أن دور النشر المختصة بالاستشراق تعيد ، حتى في يومنا هذا ، طباعة مؤلفات الكثيرين من المستشرقين الألمان القديمة التي لا تزال تعتبر كلاسيكية وصالحة للاستعمال رغم التقدم البزيع الذي احرزته العلوم الألسنية والفقهية ورغم صدور ابحاث حديثة تتعلق بحركة الاستشراق والشرق . فهذه ، على سبيل المثال : دار فلتر ده گروبتر[3] التي تنوب الآن عن عدد كبير من دور النشر الخاصة بالاستشراق ، تقوم برسالتها وتنشر المؤلف الموسوعي (وهو تاريخه يتألف من ست مجلدات) الذي يعالج موضوع العرب في العصور الكلاسيكية القديمة . إن اسمي المؤلفين فرانتس التهايم وروث شتيل يكفيلان لضمان جدية هذا المشروع العلمي المتعلق بالاستشراق . ولئن تركنا المؤلف بعيداً عن متناول من يجهم الأمر في الأولية اي العلماء العرب لتحسرنا في الواجب ولذا كان علينا ، رغم

(١) *Die Araber in der Alten Welt*, von Franz Altheim und Ruth Stiehl, Berlin, Walter de Gruyter and Co., 1964 *sq.*
(٢) Lagrange
(٣) Walter de Gruyter

صعوبات اللغة الألمانية واللغة التقنية المستعملة في المؤلف. أن نستنير كنوز هذا السفر القيّم المشحون بمسائل فقهية وتاريخية وأثرية الخ ... وإذ زُودت بعطف وتشجيع المؤلفين الأستاذين السيد التهامي والسيدة شتيل نفسيهما أقوم بتحليل هذه المجلدات الستة وتقديمها محتفظاً لنفسي في بعض الأحيان حق ابداء بعض الملاحظات الإضافية التي تمليها عليّ الحقيقة التاريخية كما اني أرى لزاماً عليّ احترام رأي المؤلفين والخضوع لسلطتهما غير المنازعة.

المجلد الأول: يبدي المؤلفان الملاحظة التالية في مقدمة كتابهما: كاد تاريخ العرب في العصور الكلاسيكية القديمة أن يكون وقفاً على اختصاصيي العلوم العربية والاسلامية ولم يولِ المستشرقين والمستعربين جلّ جهودهم للعصور الكلاسيكية القديمة بل عالجوها بشكل عابر. ومما يثلج الصدور الآن هو أننا نلاحظ أن هناك جهوداً تبذل لسد هذا الثلم ومن المعلوم اننا لا نستطيع التعرف على ظاهرة عصر معين دون أن نطلع على سوابقها. ولذا تم درس معطيات التاريخ في هذا الكتاب ليس في علاقاتها البيئية العربية المشتركة فحسب بل ايضاً في إطارها الطبيعي من تاريخ العالم: فالعنصران اللذان يحدان هذه الحقبة هما الاسكندر الكبير ومحمد وقد طبعا بطابعيهما طريق الأحداث التي تلتهما. فينتج ان المكانة الكبرى التي يحتلها في هذا المؤلف تاريخ الجزيرة العربية الجنوبية تجد ما يبررها إذ تفقد الأحداث الاسطورية والتاريخية طابعها الخلي وتسجل في مصير تاريخ العالم. يتقيد المؤرخان بلائحة التواريخ التي وضعها گونزاك ريكمانس وجاكلين پيرين[1] تدفعهما رغبة تقديم عواطف تبجيلها لمدرسة لوفان[2] التي استطاعت أن تدخل شيئاً من النظام في تاريخ هذه المنطقة العام.

لم يكن المؤلفان ممن يستنبط العلم في الكتب بل انهما قاما بعدة جولات في سوريا والاردن ومصر وتونس والحبشة والسودان وقد دفعتهما رحلاتهما العلمية لزيارة كينيا ونجبار وحضرموت وللنزول في مدن القاهرة وأديس أبابا وأسمرة وبغداد ودمشق دون التغاضي عن زيارة الحفريات التي تقوم بها مختلف البعثات الأثرية وقد سعيا دوماً للتحري عن العلاقات القائمة بين الحضارات الكلاسيكية الاوروبية والعربية وعن الروابط القائمة بينها وغالباً ما قاما بهذه الرحلات العلمية على حسابهما الخاص. وهذه أمور جديرة بالتنويه اذ تبين الرصانة التي تتجلى بمشروعهما العلمي الذي نفذ بحذافيره.

(١) Gonzague Ryckmans et Jacqueline Pirenne
(٢) Louvain

فيما يلي محتوى المجلد الذي سوف نلخصه مع كافة تفاصيله :

الفصل الأول	: ساراپيس	١٧
الفصل الثاني	: اخبار تتعلق بأصل الأنباط	٣١
الفصل الثالث	: الرحلة حول بحر اريتيريا وكورتيوس روفوس[1]	٤٠
الفصل الرابع	: البطالسة والأنباط	٦٥
الفصل الخامس	: يمبولوس[2]	٨٠
الفصل السادس	: اللحيانيون	٩٣
الفصل السابع	: عمانه وجرّه[3]	١٠٧
الفصل الثامن	: الهجرة الى افريقيا الشرقية	١١٤
الفصل التاسع	: أهل الحضر الأوائل في اخلال الخصيب	١٣٩
الفصل العاشر	: الآرامية : لغة عالمية	١٨١
ملحق	: الكنعانيون والآراميون	٢١٣
الفصل الحادي عشر	: اللغة اليونانية في الشرق	٢٣٧
الفصل الثاني عشر	: تحضير اخلال الخصيب (تابع للفصل التاسع)	٢٦٨
الفصل الثالث عشر	: ابحاث عرقية على ورق البردي اليوناني — المصري	٣٧٣
الفصل الرابع عشر	: سكان افريقيا الشمالية الأصليون من الحروب البونيكية لغاية الولاية الرومانية	٤٢٠

ملاحق

حراب وحاملات حراب	٥٥٠
مُشتّى وأصل الفن العربي	٥٩٢
كلمات يونانية في اللغة السريانية	٦٠٨
التبادل الثقافي الايراني — السامي	٦٢٣
موعظتا كيرلس الاسكندري وتيودوتس الانكيراني باللغة الحبشية	٦٣٩
الدراسات الآرامية في يومنا هذا	٦٤٨
حاشية تتعلق بفرق الرماة في الامبراطورية العليا	٦٦١—٦٧٧

(١) Curtius Rufus
(٢) Iambulos
(٣) Omana et Gerrha

سارابيس[1] (صفحة ١٧ ـ ٣٠)

كانت الجغرافية الكلاسيكية تعين موقع جزيرة الاله سيرابيس[2] او سارابيس على ساحل عمان بالذات. قبل ان تتجه شواطئه نحو الخليج الفارسي دائرةً حوله من الجهة الشمالية الغربية. ويذكرها بطليموس اكثر من مرة كجزيرة سارابيس[3] ويقول ان فيها معبداً ولربما هو للاله سارابيس كما يذكرها ايضاً استفانوس البيزنطي[4] تحت اسمها المنتصب سارابيس ولكن المصدر الذي يتكلم عنها مفصلاً هو «الرحلة حول بحر اريتيريا». ف ٣٣[5] وهو يجعل الجزيرة، حين يمتد شاطئ عمان، على بعد ٢٠٠٠ غلوة من جزيرة زينوبيوس[6]. وتتألف الجزيرة من ثلاث قرى يسكنها أناس يأكلون الأسماك ويتكلمون جميعهم العربية.

تصادف س ر پ ي و كاسم علم عند الانباط وقد حركه مارك لذزبرسكي[7] على شكل «سرابين» وقد كتب ج. كانتينو[8] الاسم على شكل ش ر پ ي و وربطه باللفظة العربية ش رف وربما اننا نعلم ان اللغة النبطية تستعمل بدون تمييز حرف س وحرف ش نستطيع ان نجزم ان شكلي س ر پ ي و و ش ر پ ي و يبيتان بشكل قاطع صحة قراءة لذزبارسكي هذا العلم.

ولا يعجب ان تصادف اعلام تيمن بالاهة أمثال سارابيس وسيرابيون شائعة عند الأنباط ويعود ذلك الى قرب الانباط من وادي النيل ولكن الصعوبة تنجم عن إقامة العلاقة بين الاسم والمسمى اي جزيرة سارابيس لأن هناك أسباباً موجبة تنفي أن يكون أصل الاسم مصرياً وتفيدنا «الرحلة ...» ان سكان الجزيرة كانوا أناساً مكرسين[9] اي مكرسين لسارابيس ولربما كانت لفظة «هيارس»[10] مرادفة للفظة «هيارودولوس»[11] وهذا مما يحملنا

(١) Sarapis
(٢) Sérapis
(٣) νῆσος Σαραπίδος
(٤) Stephanos de Byzance
(٥) *Periplus maris Erythraei*, 33
(٦) Zenobios
(٧) Lidzbarski
(٨) J. Cantineau
(٩) ἱερόδουλος او Κάτοχος كما ذكرتهم اوراق بردي سرابيون منفيس
(١٠) ἱερεύς كاهن
(١١) ἱερόδουλος خادم المقدس.

على اعتبار التثاقف الحاصل في المفاهيم الدينية قد انتشر في كابادوسيا وبابل وعيلام وجنوب جزيرة العرب كما أنه يجب ألا ننسى أنه كان في خليج جره لاجئون كلدانيين قد ذكرهم سترابون[1]. وقد أخذت الآن فكرة وجود إله بابلي يحمل اسم ساراپيس تلقى بعض القبول وكان ف. ديليتش[2] قد أشار الى وجود إله يحمل اسم شرپّو[3] في مجموعة الآلهة البابلية. وقد سعى ليمن[4] في تحديد هوية ذلك الإله وربطه بـ شَر أپْسي إله الاوقيانوس وقد أيدت هذه الفرضية الأخيرة كلياً الدراسات المقارنة التي قام بها ث. هوپفنر[5].

واذا استثنينا بعض القضايا التي وجدت تلقائياً لنفسها الحلول الملائمة. كقضية جزيرة ساراپيس وكونها مأهولة بالسكان العرب. وقد أقام الدليل على ذلك علماً العاديات والكتابات الحديثة؛ وكقضية أعلام التيجان ومنها ساراپيس التي شاعت في شبه الجزيرة العربية وفي أطرافها؛ والتي أدت الى مجموعة من التأملات تتعلق بمصدر العبادة التي حظي بها الإله ساراپيس في الاسكندرية وفي مَمْفيس؛ وقد بين علماً العاديات والكتابات ان عبادة الإله ساراپيس قد دخلت مصر قبل فتح الاسكندر الكبير وقد تدعم هذه النظرية النصوص التاريخية وقد يؤيدها الشعر اليوناني؛ نقول: اذا استثنينا هذه القضايا، نجد ان مشكلة أصل ساراپيس لم تحل بعد وهي لا تزال مفتوحة؛ فنظريات ا. ڤلكن[6] قد لا تلاقي من يحبذها ولكن التأييد اليوم قد يشفع تارة بالنظرية «البابلية» وطوراً بنظرية «سينوپيس»[7].

اخبار تتعلق بأصل الأنباط

نعثر لأول مرة على اسم الأنباط في سنة ٣١٢ قبل الميلاد وقد ذكره هيرونيموس الكرديانيّ[8] بمناسبة قيام حملة عسكرية ضد هذه القبيلة العربية وقد خطط هذه الحملة انطيگونوس[9]. وكان قد شنّ عدة غارات على

(١) Strabon
(٢) F. Delitzsch
(٣) Šarrapu
(٤) C. F. Lehmann
(٥) Th. Höpfner
(٦) U. Wilken
(٧) سينوپيس هي مدينة Sinope. «النظرية البابلية» تعزو عبادة سراپيس الى اصل بابلي فيما نظرية «سينوپيس» تعزوها الى هذه المدينة.
(٨) Hieronymos de Kardia
(٩) Antigonos

سوريا وفينيقيا وهو يذكر أن « هؤلاء العرب الذين يطلق عليهم اسم الانباط[1] كانوا يناصبونه العداء .

هيرونيموس الكرديافي

يقدم لنا نبذة خاطفة عن ميزات العرب . فهم يعيشون أقواماً ويتعشقون الحرية ويقضون حياتهم تحت قبة السماء وقد انتقوا لهم منطقة خالية من ينابيع المياه وخاوية من الأنهار . اذا تجرأ العدو ودخل المنطقة التي يعيشون فيها لسوف يقع في حيرة إذ لن يجد مكاناً يسكنه . لا يبذر العرب الأرض ولا يزرعون الاشجار وهم لا يشربون الخمر قط ولا يبنون المساكن ومن يخالفهم في الرأي فنصيبه الموت وهم يتصورون ان الابتعاد عن العادات المألوفة قد ينوي ارادتهم في البقاء احراراً فالرغبة في الحرية تلازمهم من مطلع حياتهم لغايتها .

ثم يعالج المؤلف : بعد هذه الاعتبارات العامة . تفاصيل حياة كل من الأقوام العربية ويذكر أن بعضها يربي الجمال ذوات السنام الواحد او السنامين وبعضها الآخر يهتم بتربية العجول . ويحتل الأنباط في مؤلفه مكانة خاصة وهو يقدر عددهم بعشرة آلاف نسمة وينسب اليهم الثراء الطائل . يحمل الأنباط حتى البحر الأبيض المتوسط البخور والمر والأفاوي التي تصلهم من سكان الجزيرة العربية السعيدة[2] . ويتعلق الأنباط بحريتهم تمام التعلق واذا داهمهم العدو فهم يلوذون بالصحاري[3] وهي أرض حرام على العدو لانها خالية من المياه ولكن الانباط بنوا فيها الصهاريج حيث تتجمع مياه الأمطار وهم فقط يعرفون مكان هذه الصهاريج او الخزانات . ولا يستقي الانباط انعامهم إلا مرة واحدة في كل ثلاثة أيام وذلك لكي تتعود : إذا اقتضت الحاجة : اللجوء الى الصحراء الخالية من الماء . ويقتات الأنباط بالتمر والحليب ويشربون ماءهم ممزوجاً بالفلفل[4] ونوع من الصمغ . قد يختلط العرب والأنباط منهم بالمتحضرين وقد يشتركون بزراعة الأرض مع غيرهم ولكنهم يأبون السكن في المنازل . إن الصفات المميزة للعرب ولغيرها من الأقوام العربية هي روحهم التواقة الى الحرية

(١) οἱ Ἄραβες οἱ καλούμενοι Ναβαταῖοι
(٢) Arabia Felix
(٣) παράδεισοι ὀχυρώματα
(٤) πέπερι

واكتفاؤهم بقليل من الماء وتقيدهم بعدم إقامة الأبنية وأما في أمورهم المعاشية الأخرى فهم لا يتميزون عن الأقوام التي تجاورهم او التي تسكن في أطراف الصحاري.

يذكر ايضاً هيرونيموس البانيگوريس[1] وهو نوع من السوق الموسمي الذي يذكرنا بالأسواق السنوية التي سوف تقام في العصور المتأخرة في عكاظ ومكة. يقصد العرب والأنباط منهم السوق الموسمي مع أفاويهم ويقايضونها بحاجياتهم اليومية ويترك الانباط اثناء قيام هذه السوق نساءهم واطفالهم وشيوخهم وأموالهم لحصونها في «الموضع الحجري»[2] وهذا الموضع يقع على بعد مسيرة يومين عن كل مكان مأهول بالسكان.

يأتينا بعض المؤلفين بمعلومات إضافية تثبت ما تركه لنا بهذا الخصوص ديودوروس[3] فيفيدنا اگترخيدس[4] في ما كتبه عن البحر الأحمر بأن الأنباط لم يسكنوا داخل منطقتهم فحسب بل قد استوطنوا ايضاً على شواطئ البحر الأحمر؛ وبأنهم اشتهروا بكثرة قطعانهم؛ كما أننا نعلم من الكتاب نفسه أن الذين كانوا يجلبون اليهم البخور والعطور هم سكان جرّه والميّنيون المتاطنون جنوب الجزيرة العربية. وقد تكون جديرة بكل اهتمامنا الملاحظة التي نعثر عليها عند اگترخيدس ومفادها أنه تقوم في قعر جون شواطئ البحر الاحمر، غابة صغيرة ومقدسة من النخل[5] يجليها سكان المنطقة وفيها هيكل مع نقش لم يتوصل اي شخص يوناني الى حل رموزه. يسهر كاهن وكاهنة على خدمة الهيكل وتقام فيه كل خمس سنوات حفلة «پانيكوريس» يجتمع لمراسمها كافة سكان المنطقة المجاورة وتذبح فيها مئة رأس من النوق. يحمل الحجاج الذين يحضرون المراسم حين عودتهم الى بلدهم مياه المكان المقدس الى الذين لازموا بيوتهم وتنسب لتلك المياه خواصاً تشفي من الامراض والعاهات. ان تيوفراستوس الذي يذكر الموقع عينه والاحتفال نفسه يفيدنا ان ذلك يتم مرتين في السنة، في الربيع وفي أواخر الصيف وان احتفالات الربيع تدوم شهراً واحداً واحتفالات أواخر الصيف شهرين وان أمان الله في هاتين الفترتين يعم الكون ويشمل الناس والحيوانات.

(١) παγήγυρις
(٢) ἐπὶ τινος πέτρας
(٣) Diodore
(٤) Agatharchidès
(٥) φοινικῶν

وقد ترك لنا ديو دوروس ملاحظة قد تجلينا لنا بدوره هيرونيموس الكرداني وكلاهما يتفقان في سرد النادرة التي تتعلق بسوق پانيگوريس وبعادة حجر الأطفال والنساء والشيوخ في مكان محصن . ونستطيع ان نتحقق من صحة هذين الأمرين من المهمة التي كُلف بها القائد الينايوس من قبل انتيگونوس بموجب قهر الأنباط .

انتظر القائد موسم الپانيگوريس واقتحم مقاطعة آدوم[1] بعد مسيرة ثلاث ايام وثلاثة ليال قطع فيها مسافة ٢٢٠٠ غلوة مداهماً في منتصف الليل الصخرة ومستفيداً من غفوة الأنباط فباغت الثائرين وأعمل السيف في رقابهم ونهب كل ما وجده تحت متناول يده واستولى على خمسمائة وزنة من الفضة وعلى كميات كبيرة من البخور والمر ولم يطل المقام به في الصخرة بل انسحب . ولكنه لم يكد يقطع ٢٠٠ غلوة حتى لحق به الانباط وباغتوه مع جيشه المتفرق في النوم وقد نجا منه خمسون جندياً فقط استطاعوا ان يلوذوا بالفرار وعادت الغنيمة الى أيدي مالكيها الشرعيين .

كتب الأنباط إثر هذه الحادثة رسالة بالحرف السرياني[2] إلى انتيگونوس يدفعون فيها التهمة عن انفسهم ويلصقونها فيه مدعين انه دبّر هو نفسه تلك المؤامرة ، وإن دلّت هذه الملاحظة العابرة على شيء فهي تبين لنا أن الأنباط لم يتبنوا الآرامية في القرن الأول قبل الميلاد فقط بل قد تبنوها كلغة رسمية في أواخر العصر الاخيمني . أجاب انتيگونوس على رسالة الأنباط مخادعاً وادعى انه حاول صد الينايوس عن تنفيذ مأربه وأخفى نياته الحقيقية رغبةً منه في طمأنة الأنباط لعلهم يولونه من جديد ثقتهم وقد انخدع الأنباط من رد انتيگونوس ولكنهم لزموا الحذر وعندما حاول المذكور في هذه المرة ايضاً مداهمتهم وأرسل لهذه الغاية ابنه ديمتريوس[3] على رأس ٤٠٠٠ من الجند المشاة مع ١٠٠٠ من الفرسان أخفق في مسعاه اذ اطلقت اشارات نارية الأنباط عن قدوم جيوش العدو فحملوا أمواهم « الى الصخرة »[4] وجعلوا لها حامية وأطلقوا قطعانهم في الصحاري . فشلت هجمات المعتدين وقرر الأنباط ارضاء ديمتريوس بالهدايا في حال موافقته على فك الحصار عن الصخرة وعلى الانسحاب فاكتفى المغيرون بالهدايا وابتعدوا عن المدينة .

---

(١) ἀπὸ τῆς Ἰδουμαίας ἐπαρχίας
(٢) συρίοις γράμμασι
(٣) Demetrios
(٤) εἰς... τὴν πέτραν

نعلم الآن حق العلم ان الصخرة التي نحن بصددها ليست إلا الموقع الذي سيصبح فيما بعد مدينة البتراء وهذا أمر تؤيده كافة النصوص والوثائق وهنا نذكر شاهداً أولا : « وكانوا ينصرفون الى موضع قفر ليحتموا به »[1] ؛ وشاهداً ثانياً : « كان في المكان آبار من حفر يديهم »[2] ؛ وشاهداً ثالثاً ينوه معتزاً بدفاع مجيد وساعدته تضاريس المكان »[3] . وبخصوص الشاهد الثالث لا يسعنا إلا أن نلمح الى ذلك عطوف الذي يرتفع الى علو ١١١٠ م. والذي ينتصب في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة التي ستنشأ فيما بعد .

اتجه جيش ديمتريوس بعد انسحابه نحو البحر الميت لتشهير بأسلحته الذي يقبل عليه إقبالاً شديداً سكان مصر ويختطون به مواقعهم وكان سكان هذه المنطقة يحافظون على سلعتهم النفيسة ويسيرون عليها ورأى انتيكونوس في الأسفلت هذا وسيلة ناجعة كغيرها للاثراء قد تعوض عليه ما فاته بعد حملته الفاشلة ولكن الأحداث جرت مرة ثانية على غير ما كان يتوقع ويذكر هيرونيموس الكرديانى أن انتيكونس لم يوفق في قهر ٦٠٠٠ من العرب تجمعوا هناك وتغلبوا عليه وسفكوا دم معظم رجاله .

٥

ونجد لأول مرة ذكر الأنباط ، قبل الأحداث التي سردناها أعلاه ؛ وكان يطلق عليهم اسم عرب وقد ثبت اسمهم هذا من نص حصار الاسكندر لغزة في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

تذكر نصوص ارّيانوس التاريخية أن الخصي « باتيس » هو الذي تولى أمر الدفاع عن المدينة وعندما اقترب جيش الاسكندر الكبير رفض المذكور ان يسلم المدينة بل قام بتحصينها وامتاز مستعداً للمقاومة وقد قيل عن المقاومين إنهم « عرب ... جاؤوا للمساعدة »[4] وما لبث أن أصبح الدفاع عن المدينة أمراً شاقاً فأصيب ملكها بالجراح مرتين لاقتراب المعارك من مشارف المدينة وقاوم سكانها الغزاويون[5] حتى آخر رجل منهم وبيع اطفالها ونساؤها كعبيد .

---

(١) τὸ δὲ χωρίον ὑπῆρχεν ὀχυρὸν μὲν καθ' ὑπερβολήν, ἄπαχυστον δέ .
(٢) οὔσης μιᾶς ἀναβάσεως χειροποιήτου
(٣) διὰ τὴν ὑπεροχὴν τῶν τόπων
(٤) Ἄραβας... μισθωτοὺς ἐπαγόμενος
(٥) Γαζαῖοι

ونعلق أولاً على اسم البطل الذي ذاد عن المدينة Batis : واسمه هذا من أصل عربي ـ باطش : وقد نقش في الخط النبطي على شكل بطشو وقد ربط ج. كانتينو الذي كان يجهل نص اريانوس الاسم بما قرأه في القاموس اي بطّاش .

وتأييداً لما أبداه الاستاذ التهايم من آراء بخصوص البقاع التي انتشر فيها الأنباط . نرى وجوب إضافة ما يلي : ألقى منذ سنتين الاستاذ لانكستر هاردن[1] المعروف في أوساط العاديات الأردنية . محاضرة في المجلس الثقافي البريطاني في بيروت وعرض أفلاماً تبين أن عدداً ضخماً من الحجارة البازلتية التي تغطي كل منطقة آدوم تحمل نقوشاً نبطية بدائية . يشير ديودوروس أن الأنباط كانوا يحملون الى البحر الابيض المتوسط الأقاوي والعطور التي كانت تصلهم من بلاد العرب السعيدة ولا نستطيع بعد قراءة هذه الاشارة إلا اعتبار غزة كنقطة التقاء إذ كانت في نهاية الطرق التي تتجه اليها من ايلات على البحر الأحمر ومن شبه جزيرة العرب . كما أنها كانت تقع على الطريق الذي يربط بلاد ما بين النهرين بمصر . وقد أبدى الأنباط اهتماماً كبيراً بغزة بسبب نوعية سلعهم ولذلك اظهروا دوماً استعدادهم لمساعدة المدينة ولربما ارسلوا اليها المرتزق Batis لكي يعاون مكانها ضد الاسكندر .

ونستطيع بهذا الصدد الاعتماد ايضاً على ملاحظة صادرة عن كورتيوس روفوس الذي يذكر فيها ان آمر موقع غزة كان يدعى « باتيس »[2] وأن حرساً « قليل العدد »[3] كان يحمي اسوار المدينة الحصينة يساعده في مهمته هذه المواطنون وقد لجأ « عربي من جنود الفرس »[4] بتصويب ضربة كادت تقضي على الاسكندر وكانت مقاومة المدينة عنيفة وقد قرر المحاصرون ايقاع خسائر جسيمة بالمحاصرين وقد أدت الغارة الى مقتل عشرة آلاف من الفرس والعرب . لا يميز كورتيوس روفوس قط بين السكان « الغزاويين » و « المرتزقة العرب »[5] (كما فعل اريانوس) وذلك لأنه قد يضفي على غزة الصبغة العربية دون سواها وقد رأى بوليبيوس وفلافيوس جوزف في مؤلفيهما

(١) Lankaster Harding
(٢) باليونانية Βάτις
(٣) modicum praesidium
(٤) Arabs quidam Darei miles
(٥) Ἄραβες μισθοφοροί

التاريخيين الرأي عينه وهما عندما يتكلمان عن هذه المعركة لا يعرفان الا « الغزاويين » .

قد نستطيع القول ان غزة لم تكن عربية قبل الاحتلال الاسلامي ويرى W. W. Tarn عكس ذلك ويؤيد رأيه مستشهداً بـ Hérodote (انظر ٣ و ٥ و ٧ و ٩١) ولكن تعليله للنصوص لا يعتبر كحجة قاطعة ، وعلى كل لا تلمح النصوص المستشهد بها لاحتلال عربي لغزة وهذا ديونيسوس الكرديائي يسمي المنطقة آدوم وهذه المعلومات التي وصلت الينا تبين ان الجزيرة العربية في قديم الزمان كانت تختلف تمام الاختلاف عما هي عليه الآن ، وكل ما نستطيع ان نقوله هو ان غزة لم تكن قط يهودية وكانت لمجتبا دوماً عربية .

٥

ينقل لنا كورتيوش روفوس في تاريخه النادرة التالية : كُلف پوليداماس[1] بعد الحكم على فيلوتاس[2] بالذهاب الى اكباتانا لاغتيال پرمينيون وقد تنكر للخروج من درانگاي[3] عاصمة درانگيانا بزي عربي وصحبه عربيان تركا نساءهما واطفالهما « كرهائن »[4] لدى الاسكندر الكبير ووصل ثلاثتهم عبر صحاري لا ماء فيها وبعد مسيرة تسعة أيام الى المكان المقرر حيث خلع پوليداماس الثياب العربية التي تنكر بها وارتدى لباس أهل مكدونيا . وكان قد آثر لمسيرته من درنگاي الى اكباتانا اتخاذ طريق الصحراء المباشر ليحول دون وصول نبأ رحلته الى پارمينيون قبل أوانها[5] ولربما قد أودى به طريقه الى القريب من بحيرة هامون وحازى حكذا كاباي اي اصفهان الحالية . ويجزم كورتيوس روفوس مؤكداً وجود عرب في منطقة درنگيانا في فارس ولكن رواية اريانوس للحدث نفسه لا تذكر ، حتى ولا تلميحاً ، عرباً قد لقيهم پوليداماس في طريقه . وعلينا أن نتساءل : هل أقام عرب في بلاد فارس ؟ وفي حالة الايجاب ، متى تم ثم المقام فيها ؟ نعثر في « الرحلة حول بحر اريتريا » على خبر يتعلق بهذا الموضوع مفاده ان قمة « اسبخ » كانت النقطة التي تفصل فارس عن الشاطئ الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة العربية

(١) Polydamas
(٢) Philotas
(٣) Drangae
(٤) Vinculum fidei
(٥) Velocitate opus est, qua celeritatem famae antecedas

حيث تقع جزر زينوبيوس التسع والتي عرفت باسمها هذا بفضل اسم رجل عربي لقب بزينب ويبعد موقعها ٢٠٠٠ غلوة عن جزيرة ساراپيس وكان الشاطئ بكامله حتى عمان الحالية تحت السيطرة الفارسية ويروي الطبري نفسه ان شاطئي الخليج الفارسي كليهما كانا تحت سيطرة فارس ولذا مر اردشير الأول بالبحرين عندما أراد فتح حترا .

يحدثنا المسعودي في القرن العاشر عن السيرافيين المقيمين في فارس ونجد ذكرًا لأهل سيراف في المؤلفات المتأخرة وذكر ميكان « محلة من سيراف» . فهل وقعنا عرضاً على سكان جزيرة ساراپيس حسب ما ورد في « الرحلة ... » وفي مصادر تاريخية أخرى ؟

كان في عمان الحديث عرب يخضعون للسيطرة الساسانية ومجرد القاء نظرة على الخارطة الجغرافية يبين لنا ان عمان الساساني هذا وكرمان وكدروسيه[1] تقع جميعاً مقابل بلاد فارس وقد عرف أهل هذا العصر مرفأ مدينة هارموزاي[2] المرافق لهرمز وسوف يطلق على هذا المرفأ في العصور الهيلينستية المتأخرة اسم عمانه وقد ثبت على هذا الشكل في « الرحلة »٣٦ . استوطن عمانيو القسم الجنوبي من الخليج الفارسي العرب في شمال عمان الحديث ويذكر پلينيوس في مؤلفه « التاريخ الطبيعي » عن قربهم من زيتيس[3] الذي قد يكون اسماً مشتقاً من أصل عربي (زيتي من زيت) وكانت سيراف تقع على الشاطئ المقابل في فارس وقد ذكر ذلك ابن خرداذبه وقدامة . وهكذا اننا نجد عرباً يخضعون للسيطرة الفارسية في عمان الحديث كما نجدهم على شواطئ منطقة كرمان المجاورة لبلاد فارس ولربما نجد عرباً في بلاد فارس بالذات .

الرحلة حول بحر اريتيريا وكورتيوس روفوس (صفحة ٤٠–٦٤)

لم تجد بعد مشكلة سنة تأليف كورتيوس روفوس لتاريخ الاسكندر حلاً نهائياً . فالأرجح انه كتب بين عصر الامبراطور كلوديوس وعصر الامبراطور ساويروس وما استجد في هذه المشكلة هو ربط الفترات الزمنية التي يحددها كورتيوس روفوس بالفترات الزمنية التي تذكرها « الرحلة حول بحر اريتيريا » وقد ظهر ان كورتيوس روفوس قد استمد تاريخ أزمنته من

(١) Gedrosia
(٢) Harmozei
(٣) Zétis

« الرحلة » واستعان به ولذا كثر التوافق الزمني بين كورتيوس و « الرحلة » وفي حال قبولنا بأن التعامل التجاري الذي قد عرف رواجاً كبيراً بين الهند والغرب قد ذكره للمرة الأولى بطليموس و « الرحلة »، حقّ لنا نسبة كورتيوس و « الرحلة » الى فترة زمنية واحدة. ولم يزل حتى الآن يتأرجح تأريخ وضع « الرحلة » بين عصر نيرون ونهاية القرن الأول الميلادي ولقد لخضعت السيدة جاكلين بيرين في مؤلفها (*Le royaume sud-arabe de Qatabān et sa datation*, 1961, 167-193) كل المعطيات الكلاسيكية التي توافرت لديها بهذا الخصوص الى غربلة محكمة وقد استطاعت بالحجج الدامغة وبالاعتماد على معطيات علوم الكتابات القديمة وقراءتها والتاريخ والنصوص الفارسية : تثبيت السنوات ٢٢٥ و ٢٣٠ كحد أقصى لتأليف « الرحلة ». ووافق مبدئياً النهايم وشتيل على هذا الحد ولكنهما أدخلا على نظرية بيرين بعض التعديلات والتحسينات الطفيفة التي فاتت هذه الأخيرة أو أوقعتها في بعض الشك والحيرة.

فُحصت الآن الأصول الشرقية واليونانية واللاتينية واستفيد منها الى أقصى حد ولذا نستطيع بكل تأكيد نسبة « الرحلة » إلى النصف الأول من القرن الثالث او على الأصح الى عصر الامبراطور سبتيميوس ساويروس. فالنصوص والتحليلات والتعليلات تقنع بصحة هذه النسبة بشكل لا مواربة فيه.

البطالسة والأنباط (صفحة ٦٥ـ٧٩)

ان المرجع الأساسي الذي يسلط الأضواء الكاشفة على نشأة سياسة البطالسة وتجارتهم في البحر الاحمر هو سفر الكندي اگاثرخيدس الضخم وقد عاش هذا في الاسكندرية ولم يطبع مؤلفه الا طبعة واحدة قام بها مولر[1] في سلسلة *Geographi Graeci Minores* I, 1882, p. 111 s. وهي الطبعة المعمول بها الى الآن اذ لم تخل طبعة أخرى محلها وقد فحصته جاكلين بيرين من زاوية علاقته بالجزيرة العربية الجنوبية وكان مؤلفه قد وضع تاريخاً لاوروبا يقع في ٤٩ مجلداً وتاريخاً لآسيا في عشر مجلدات وقد عكف المؤلف في آخر حياته على تاريخ البحر الاحمر ولكن مجموعة من الظروف القاهرة الخارجية حالت دون انجازه العمل. ونعتمد لتحديد تاريخ مؤلفه البحر الاحمر على الحدس والتخمين ولربما قد قام المؤلف بعمله في الفترة الواقعة

(١) C. Müller

بين ١٣٢–١٣١ و ١١٧–١٠٨ قبل الميلاد . ولم نعثر على أصل المؤلف ولم يصل إلينا بكامله ولكن فوتيوس[1] وديودوروس ٣ : ١٢–١٨ احتفظا بمقطوعتين منه قد نشرهما مولر الذي أتاح لنا قراءة وصف « الخليج العربي » ٧٩–١٠٣[2] .

لم يكد البطالسة يجعلون البحر الاحمر صالحاً للملاحة التجارية حتى هرع الأنباط اليه وأخذوا يقومون بأعمال القرصنة ولذا اضطر البطالسة إلى إقامة شرطة بحرية وعندما سقطت مدينة ايلانا[3] في أيدي البطالسة اتخذت لها اسم بيرينيكه[4] وعسكرت فيها شرطة البحر التي كانت تتألف من ٩٨ « حارساً تتلمذ العربية »[5] .

ويمكننا ان نطرح السؤال التالي : من هم بالضبط هؤلاء التجار الذين مهد لهم البطالسة طرق الملاحة في البحر الاحمر ووضعوا تحت تصرفهم مرافئ بيرينيكه وميوس هورموس وفيلوتيرا[6] ومن هم هؤلاء « رجال البحر »[7] الذين كان يداهمهم الأنباط بغية نهبهم ؟ لم يكن بالطبع هؤلاء التجار من الاوساط التي كان ينتمي اليها القرصنة الأنباط . يقول مثل سائر ينسب الى أخيكار الحكيم عثر عليه في بردي قديم في اليفنتينا : « إياك أن تدل عربياً على البحر او صيداوياً على الصحراء » . مما ينوه بأن العرب . اسياد البر . كانوا يتعاطون القرصنة في البحر وان الصيدونيين . اسياد البحر . كانوا لا يخجلون من تعاطي القرصنة في البر . وعلى كل فلنا ملء الحرية بتفسير هذا المثل على الوجه الذي نرتئيه .

اما امر وصول السلع الى مرفأ بيرينيكه على خليج ايلانا وبه الى غزة فكان يتم على الوجه التالي : كان المينيون هم الذين يؤمنون نقل البضائع كلياً أو جزئياً الى غزة بينما كان يتم نقلها في البحر الاحمر إما على يد المينيين التابعين للبطالسة إما على يد اليونان خاصة . وكان الطريق المتبع لنقل سلع الجزيرة العربية الجنوبية هو أن يستلمها الأنباط من المينيين وان ينقلوها من البتراء

(١) Photius . في مؤلفه « بيبليكا » *Bibliothèque*
(٢) Ἀσάβινος κόλπος
(٣) Ailana
(٤) Bérénikè
(٥) φύλακες τοῦ Ἀραβίου μυχοῦ
(٦) Myos Hormos, Philotera
(٧) πλόιμοι

الى غزة وذلك عن طريق الصحراء . وحتى عندما كان السبئيون يتاجرون بالذهب سوريا إبان حكم بطليموس الثاني : كانت هذه السلعة تنقل تقليديا بواسطة طريق البر فقط وما كانت التجارة البحرية البطليموسية تعتمد إلا على المرفأ الوحيد القائم في الجنوب ، « خرموثاس »[1] الذي كان بوسعه أن يستقبل السفن من المراكب تقريباً . ولم يكن يبعد المرفأ المذكور عن بلاد ثمود القريبة من اليمن وكان هناك تيار من المياه يرتطم على جنوب المنطقة البطلية وقد كان هذا التيار يعوق الملاحة ولذا كثرت الحوادث الناجمة عن صعوبة الملاحة ومرارًا ما أصابت بالأضرار الزوارق التي كانت تقصد مرفأ خرموثاس ونعتقد حسب معطيات التاريخ ان قراصنة البحر لم يكونوا عرباً فحسب بل انباطاً ايضاً ولم تقتصر اعمال القرصنة على البحر الاحمر بل تعدتها الى حوادث برية مما ارغم البطالسة على إقامة حصون على شواطئ البحر وعلى طول طريق نقل السلع وقد هدّد سكان جرء والمينيون يساعدهم السبئيون احتكار نقل السلع نحو البحر الابيض المتوسط ، هذا الاحتكار الذي استأثر به الأنباط وقد سعوا للذود عنه بكل ما أوتوا من قوة ولكن بطليموس الثاني الذي حاول انتزاع هذا الاحتكار منهم نجح في مسعاه ووصل الى البحر المتوسط بالدوران حول البحر الاحمر دون عبور أراضيهم .

كانت الخطة التجارية المينية التي توجه السلع نحو الشمال اي نحو الأنباط والبتراء هي مدينة ديدان في شمال الحجاز وكانت فيها جالية من المينيين وكان السبئيون الذين كانوا هم ايضاً يحملون بخورهم وأفاويههم الى الشمال : لا يتوقعون أن يرحب بهم أهل ديدان وقد كانوا يملكون : للوصول الى فينيقيا أو سوريا : طريقاً يفضي بهم الى الشرق . إننا لا نعرف الكثير عن هذا الطريق التجاري ولكننا نفترض أنه كان يمر بالموقعين اللذين أقيمت عليهما اليوم الحائل والجوف وقد أقام اكاترخيدس وفوتيوس علاقة بين سكان جرء والمينيين وحددا الطريق التجارية المؤدية الى سوريا فقد كانت تنطلق من الجوف مخترقة وادي الرمة بحائل فتيماء وأخيرًا وادي سرحان .

تمتع الانباط بامتيازات سياسية لكونهم حلفاء السلوقيين وناهضتهم البطالسة وقد اهتم الانباط خاصة باحتكاراتهم التجارية ويجدر بنا أن نلاحظ ان الأراضي التي استولى عليها البطالسة في سوريا وفي فينيقيا كانت تخص السبئيين واهل جرة ولا تخص الأنباط . ويفهم من هذا أنه ، رغم اختلاف

(١) Kharmuthas

المصالح البيطية والسلوقية . سلك القيمان مسلكاً موحداً في الأمور السياسية والعسكرية . ولما سقط الغور السوري وفلسطين في حوزة السلوقيين . إثر الحرب السورية الخامسة (٢٠٠—١٩٥ قبل الميلاد) التي أدت الى احتلالهم لسوريا : حارب في جيش انطيوخوس الثالث عرب مع جمالهم واصبحت طريق العطور والأفاوي مفتوحة من جديد للانباط حتى غزة اي النقطة النهائية لطريق التجارية المنطلقة من البتراء . أما وجود السبئيين في غزة فهذا شيء غير معقول . انسحب حرقان[1] الموالي للسلوقيين الى الضفة الشرقية من الأردن وأسس طوبياد ونحن نعرف اليوم أطلال قصره باسم عراق الأمير . وحصنه الذي لا يزال باديا للعيان باسم وادي الشير . وقد حارب حرقان العرب (أعني الأنباط) وقد قتل عدداً منهم ووقع الآخرون بأسره وقد حكم ما جاوره من البلاد مدة سبعة اعوام ولكن عندما تولى الحكم انطيوخوس الرابع بعد وفاة سلوقوس الرابع . انتحر حرقان . خوفاً من أن ينتقم منه مليكه فتوثقت عرى الصداقة من جديد بين الأنباط والسلوقيين .

(للبحث صلة)

(١) Hyrcan

تعريف عن الكتب

علم النفس القضائي

بقلم الدكتور انيس الصغير

دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ٣٤٦ صفحة

الدكتور فؤاد الصغير : المفتش القضائي العام والأستاذ في كليتي الحقوق بالجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية : يعد من القضاة الذين لهم في معرفة القانون على مختلف ضروبه طول باع : وفي تدريس موادد خبرة ونظر . لما عهد اليه برئاسة معهد القضاء ، اضاف الى برامج التدريس فيه مادة علم النفس القضائي : وها هوذا اليوم يبرز ثمرة تعليمه في مجلد انيق الطبع : جذاب الاسلوب : امثاله متنوعة حية . ينم عن معرفة شاملة بدقائق النفس وعن روح انسانية رحبة .

يرى الدكتور الصغير — وكم هو في ذلك على صواب ! — ان القاضي العادل ، اذا ما اراد ان يزين بالقسطاس المستقيم ويبين مدى صحة ما يلصق بالمتهمين من شكاوى ، فلا بد له من ان يأخذ بعين الاعتبار ، في الأولية ، العوامل النفسية . فعليه ان لا ينظر الى المتهم نظرة العدو الى العدو ، بل من واجباته درس نفسيته بحسب الفئة التي ينتمي اليها ، من حيث الجنس والعمر ودرجة الذكاء والعلم والمهنة التي يمارسها والبيئة التي ينتسب اليها ونوع الجريمة الموجهة اليه » ، فيسعى بالنسبة اليه طبيباً يعالج مريضاً .

ثم على القاضي « ان يعطي المتهم الفرصة اللازمة لاثبات براءته . فالتحقيق لا يقتصر على السعي الى ادانة المتهم (او تبيان مدى مسؤوليته) . بل يهدف الى اكتشاف الحقيقة واظهار براءة من لم تتوافر بحقه الأدلة الكافية » (ص ١٠) .

هذه النظرة الانسانية الى المتهم هي اسمى ما يتحلى به كتاب الدكتور الصغير ، وانها منه لبمثابة اللحمة والسدى . تجدها في مقدمة كل مطلب ومن وراء كل تحليل ، تنبهك الى انه « اذا كانت مصلحة المجتمع تقضي باكتشاف المسؤول عن ارتكاب الجريمة ومعاقبته ، فان العدالة الاجتماعية

تأتي الباس الجريمة لبريء، اذ ان الحكم على بريء اقل من الجريمة نفسها. فان بقاء الجريمة من غير عقاب لأفضل من ان يحكم على بريء» (ص١٥).

يقسم الكتاب الى جزءين اساسيين: اولهما مختص بالفرقاء والشهود في الدعوى الجزائية. والثاني بقواعد التحقيق القضائي واصوله. اما القسم الأول وهو الأعظم. فيدرس في فصول خمسة: المتهم، ثم الضحية والمدعي الشخصي. ثم الانتحار واسبابه. فالشاكي والمخبر. فالشاهد. بينما القسم الثاني يتطرق بالتوالي الى قواعد التحقيق القضائي واصوله. فالى التفسير السيكولوجي للمستندات. فالى تعرف الأشياء والاشخاص. فأخيراً الى الوسائل المتبعة في اكتشاف الحقيقة.

مؤلف الدكتور التسخير اثر نفيس يحق للمكتبة القضائية ان تعتز به.

كميل حشيمه

W. J. Schraml, *Initiation à la Pédagogie Psychanalytique.* Traduit par A. M. Seitz. Éditions Salvator, Mulhouse, 1970.

تحرص بعض السيدات الحديثات اذا ما تمتعت باليسر من الثقافة ان تجنب اولادها «العقد النفسية» و«مركبات النقص». غالباً ما تستمد امهات اليوم مفاهيمهن وطرقهن التربوية من بعض المؤلفات التجارية التي لا تنجو من الاعتباطية والسطحية المشوهة لانه يعسر عليهن الاحتكاك بالكتب العلمية لجفاوة تعابيرها الفنية ومشقة فهمها. غير ان أ. م. سلتز نقل مؤخراً الى الفرنسية كتاباً للطيب والمربي والمحلل النفساني ولتر شرمل. الاستاذ في جامعة فريبورغ برسغو، عنوانه: «مدخل الى التربية التحليلية النفسية». اراد الكاتب ان يجيب به، على ضوء خبرته الواسعة في مراكز التأهيل في المانيا الغربية والولايات المتحدة الاميركية، تراث «مجلة التربية التحليلية النفسية» التي اسسها هنريش منغ وارنست شنيدر وتابعها تروبخر وقدرن وآنا فرويد... وهدفها الاول تطبيق التحليل النفسي على الاولاد وادخال الطرق التحليلية في التربية.

يحاول شرمل ببساطة ودقة ان ينقل القارئ مبادئ التربية التحليلية النفسية: ويعرض في القسم الاول من كتابه اسس التربية التحليلية النفسية فيلقي نظرة تاريخية على التحليل النفسي ومسائله، ورغم ميوله الفرويدية يتميز عرضه لسائر المذاهب والمدارس الاخرى بالموضوعية الايجابية: ثم يعرض وسائل علم النفس التحليلي ومفاهيمه الاساسية. ويبين في القسم

الثاني علاقة علم النفس التحليلي بنمو الشخصية فيستعرض مراحل الطفولة والمراهقة وأثرها اللاشعوري في الشخصية. ثم يعرض نظرة التحليل النفسي لشخصية الانسانية. وفي القسم الثالث يعدّد الاضطرابات النفسية وطرق علاجها. فيتكلم عن اضطرابات السلوك وبعض المشاكل التربوية خلال مراحل النمو الطبيعي للشخصية. ويصف اشكال العصاب في مرحلة الطفولة واثرها في شخصية الراشد ويبين طرق العلاج النفسي للولد والمراهق. وينهي الكتاب بالكلام عن علاقة التربية وعلم النفس التحليلي فيعرض مسائل التربية التحليلية النفسية واصول الصحة النفسية عند المربي. ثم يلحق عرضه هذا ببحث سريع عن الروائز وعلم النفس التشخيصي.

يستعرض المؤلف هذه القضايا العلمية باسلوب مشوق وسهل المنال نظراً لاختيار تعابيره وكثرة استشهاداته المأخوذة من قضايا يومية لاحظها بنفسه. ويبين لمنتقدي فرويد الذين صدموا من بعض تعابيره الجافة ابعاداً جديدة لهذه التعابير. غير اننا لا نوافقه — وقد تعب شخصياً لذلك — على حصره الضمير المناقبي الاخلاقي بالانا الاعلى.

وهذا الكتاب اذ يركز على البعد التاريخي الزمني للشخصية الانسانية وديناميكيتها، يدعونا مرة اخرى الى الاهتمام العلمي بتربية الطفل الذي هو «اب الانسان» حسب تعبير وردورث. ويجدر لفت نظر المهتمين بالتربية الى هذا الكتاب وفوائده الكثيرة نظراً لسهولته المقترنة بالموضوعية العلمية.

جورج سلوم

صور حاضرة فينيقيا

بقلم معن عرب

دار الشرق، بيروت، ١٩٧٠، ٢٥٨ صفحة مصورة

هذا الكتاب، المخصص بعضه: هو الأول من نوعه بالعربية؛ وان ما يتحلى به من طباعة متقنة وصُوَر عديدة لمما يجعل قراءته سهلة تلذ ورواجه اكيد.

يفتخر المؤلف بكونه من ابناء صور؛ ولكن انتماءه الى هذه المدينة يؤود بعض الشيء سداد اتجاهه. من ذلك ما فعل لما قابل، متكلماً: ماضي مستقبل رأسه بماضي صيدون. الا ان الكتاب لا يخلو من الحسنات؛ منها انه يحوي بين دفتيه معلومات جمة؛ ليست بغريبة عن ذوي الاختصاص.

ولكنها مفيدة لعامة القراء . وان ما ساعد الكاتب على ذلك . معرفته الالمانية ورجوعه الى المصادر العديدة المتوافرة في هذه اللغة ؛ فجاءت دراسته شاملة لكل ما نعرفه عن صور ؛ مفصلة فصولاً موجزة تذييلها لوائح مهمة لأهم المراجع .

قسم مهم من الكتاب خصص بتاريخ صور السياسي . وهنا تجدر الاشارة الى ان المؤلف استند — وبشيء ما فعل — الى بعض ما رواه المؤرخ نوزو من اخبار خرافية ؛ والى اساطير سنكن ياطون . ثم انه ركن دون الكفاية من التمييز الى استعمال التوراة كمصدر تاريخي لا غبار عليه ؛ بينما العلماء يبذلون جهدهم في ان يثبتوا عن طريق الاكتشافات الأثرية ما روته اسفار الكتاب المقدس التاريخية باسلوب شتان ما بينه وبين الدقة العلمية احياناً . ولكن مهما يكن من امر هذه الملكية الخاطئة . فان المؤلف يدرس صور ابان الحقبات العتيقة . والأشورية الكلدانية . والفارسية والسلوقية والرومانية والبيزنطية ؛ وقبيل انصرافه الى الحقبة العربية فانه يدرج بعض التفصيل عن مؤسسات صور : تجارتها ؛ صناعتها (ارجوان ؛ زجاج) ملاحتها ؛ مستعمراتها ؛ آلهتها وطقوسها ؛ مما يتيح له فرصة التوقف عند بعض الشخصيات الصورية الشهيرة والتكلم عن الحقبة المسيحية .

اما الحقبة العربية فكل ما حظيت به لدى المؤلف ؛ انما يقتصر على ما يقارب العشر صفحات . وهذا لا يكفي . كذلك فاننا نأخذ على الاستاذ عرب اهماله النسبي لما جاءت به مؤلفات الأب بوادابار والأمير موريس شهاب . مع العلم انها اعم فائدة علمية من اخبار حقبات فجر التاريخ .

ثمة ملاحظة أخرى في شأن المراجع والمصادر . فالمؤلف يتسند وينتبه الى مصادر عديدة . الا انه يذكرها بطريقة اعتباطية غير مرتبة . كأن يذكر اثراً لمؤلف لاتيني بعنوانه الألماني او تاريخاً فرنسياً للحروب الصليبية بعنوان لاتيني او تاريخاً لليونان باللغة الانجليزية . الخ ...

نأمل ان تصحح الطبعة المقبلة هذه الهفوات لئلا تحط من شأن كتاب وجدناه مشوقاً لا يخلو من قيمة .

كارليس شاد

القارس الصغير

بقلم الأب اندره دالشرني اليسوعي

منشورات كشافة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٠ — ١٧٩ صفحة

مؤلَّف صغير بحجمه كبير بقلبه . وضيع المظهر إلاّ ان مخبره جدير بأن يُعرَّف عنه ويقرظ . اول الأسباب لذلك ان كاتبه هو المرحوم الأب اندره دالشرني اليسوعي ، المستشرق المعروف الذي وقف قواه كلها ، حتى وفاته سنة ١٩٦٥ ، لخدمة العربية وابناء العرب . تخرج على يده عشرات مجي لغتنا من المستشرقين ، ضباطاً ورجال سياسة ودين . في معهد الدراسات العربية الذي أشرف على ادارته سنين عديدة في يكفيا (لبنان) ، وطبعت له مقالات وكتب اهمها المؤلف المخصص لتدريس العربية للمستشرقين ، المعروف بـ Cours de langue arabe ، وكتاب لتعليم اصول الترجمة والتعريب . وان كان ثمة من دافع حدا الأب دالشرني الى تأليف « القارس الصغير » ، فما هو الا امله في ان يقوم بخدمة اخرى للغة الضاد ولقرائها الفتيان .

لعلنا لمس دالشرني ان المكتبة العربية تفتقر اشد الافتقار الى أدب للاحداث تمتزج فيه عناصر التشويق والمغامرات بالمثل العليا ، وشطحات الخيال بالواقع البناء ، والعواطف النابضة المرهفة بالعمل الايجابي السخي . فأراد ان يتقدم الى الصغار والشبان قصة شيقة من طعم الحياة ، وكتب قصته هو ، منذ طراوة سنه حتى انخراطه في سلك الرهبانية وهو في السابعة عشرة من عمره ، سيرة فتى كسائر الفتيان ، فيه الصالح والطالح ، فيه الطموح يعتريه بعض الخمول ، يدرس ويلهو ويفرح ويتألم ويبني لنفسه مستقبلاً مشرقاً من حبات ايامه الرتيبة .

ولقد حاول دالشرني جهده في ان يكون اسلوبه سهلاً قريب المنال ، مقتفياً بعض الشيء طريقة طه حسين في كتابه « الأيام » . الا انه يقر بكل تواضع انه بعيد ايما بعد عن مجاراة هذا الكاتب العملاق وغيره من كبار الأدباء . اجل ، ان دالشرني لم يتوسع في تحاليله النفسانية وفي اوصافه على النحو الذي نلمسه في « الايام » او في كتاب « اسمع يا رضا » لأنيس فريحه . وانّ اسلوبه لم يخلُ من بعض الصلابة احياناً . غير ان كتيبه يشكر لأنه خطه مستشرق حبذا لو يجاريه دقةً ووضوحاً وسلاسة اسلوب . الكثير من الشرقيين ، ولأنه يفوح منه عبير بساطة ورهافة شعور ينتقل بالقارئ الى اجواء وجدانية تزخر بالمعاني السامية .

كميل حشيمه

جبران خليل جبران

مختارات ودراسات

بقلم سهيل بشروئي

دار الشرق – بيروت ؛ ١٩٧٠ ؛ ١٥٠ صفحة بالعربية و١٦٥ صفحة بالانجليزية

الدكتور سهيل بشروئي استاذ الأدب الانجليزي في الجامعة الأميركية في بيروت وعضو في ثلاث جمعيات عالمية مختصة بالأدب والشعر وقد حاضر في عدد من الجامعات الأوروبية والأميركية والأفريقية وله ابحاث وكتب بالانجليزية عن الشاعر وليم بطلر ييتس .

خصص الدكتور بشروئي دراسته هذه لجبران خليل جبران لمناسبة المهرجان العالمي المنعقد في بيروت اثناء شهر ايار الماضي احياء لذكرى الشاعر اللبناني الكبير . قسمها الى جزءين . واحد بالعربية والآخر بالانجليزية . يحتوي كل منهما على ستة ابواب : ترجمة مختصرة لحياة جبران ؛ مختارات من آثاره بالعربية . مختارات اخرى من آثاره بالانجليزية . مقتطفات من رسائله . بعض اقوال النقاد فيه . ثبت شامل بمؤلفاته وبالكتب ومقالات الصحف والمجلات التي تناولته بالبحث ؛ وهذا الثبت يربو على الثلاثين صفحة اذا جمعنا بين المؤلفات بالعربية والمؤلفات بالانجليزية . الا ان ثمة نقصاً كان من المستحب محاشاته في هذا الثبت وهو عدم ادراج ما كتب عن جبران في غير العربية والانجليزية من اللغات العالمية ؛ وهو لا يخلو من شأن .

كتاب جمع بين دفتيه الكثير في القليل ؛ فكان خير مدخل الى دراسة جبران ؛ لا بد للعامة والخاصة من الرجوع اليه .

كميل حشيمه

في الشعر المسرحي

احمد شوقي ؛ عزيز اباظه ؛ عدنان مردم بك

بقلم عدنان بن ذريل

دار الاجيال ، دمشق ؛ ١٩٧٠ – ١٤٤ صفحة

دأب عدنان بن ذريل على درس المسرح العربي فألف فيه مقالات نشرت في كبرى المجلات العربية وكتباً نذكر منها « فن المسرحية » (١٩٦٣) و « الأدب المسرحي في سوريا » (١٩٦٤) . وها هوذا اليوم يصدر مؤلفاً في الشعر المسرحي هو كناية عن كتيب من القطع الصغير ؛ يستعرض فيه

بعد مقدمة وجيزة : انتاج ثلاثة من كتّاب العربية ممن برزوا في المسرح الشعري ، احمد شوقي ، عزيز اباظه وعدنان مردم بك .

ليست هذه الدراسة تأثيرية بقدر ما هي موضوعية : فقد حرص المؤلف في كل من الفصول الثلاثة التي خص بها الأدباء المذكورين ، والتي درس فيها اهم تمثيلياتهم ، ان يبين اولاً الخطوط الرئيسية لكل هذه المسرحيات . ثم ان يحدد صلتها بالتاريخ ووقائعه بغية ابراز ما ابتدعه او حوره المؤلفون ، ثم ان ينظر في كيفية معالجة هذه المسرحيات للاصول المتعارف عليها في الشعر المسرحي من حركة مسرحية وعقدة والوحدات الثلاث (المكان والزمان والعمل) ، ثم ينتهي بتحليل سريع للشخصيات الرئيسية مع مقارنات منتخبة بين بعض هذه المسرحيات .

من ميزات هذا الكتاب الصغير وضوحه وايجازه ، الا ان هذا الايجاز المتعمد والاسلوب الموضوعي الصرف المتبع ، ينتج عنهما جفاف اشبه بجفاف الكتب المدرسية المختصرة ، وكان بوسع المؤلف ان يتحاشاه بايدائه من الآراء ما هو اكثر شخصية والتزاماً ، وابعد مرمىً ، وذلك بأن يلجأ مثلاً الى مقارنات بين مسرحيات الأدباء الثلاثة المذكورين وغيرها من التمثيليات المعروفة في الأدب العالمي ، قديمه وحديثه .

كميل حشيمه

Post, Werner, *Kritik der Religion bei Karl Marx*, München, Kösel Verlag, 1969, 327 pp.

عنوان الكتاب ينبئ بما تتحلى به دار « كوسل » للنشر في الكاثوليكية الاتجاه ، من رحابة صدر وروح انفتاح : فما ابعدنا هنا عن الحزازات والبلبلة التي تقوم في بعض الاوساط على اثر صدور كتب تتناول الدين بالنقد ! ثم ان المؤلف قد عالج موضوعه بروح منزهة عن الهوى وملكة للمعطيات همها الأول دعوة القارئ الى التفكير الرصين . — كتب كارل ماركس : « نقد الدين هو المقدمة الحتمية لكل نقد » . وقد سبق لنا ان صرحنا ببعض آرائنا في هذا الصدد على صفحات الجريدة اللبنانية « لو جور » *Le Jour* (١٤ تموز ١٩٦٧) حول فكرة « الله والفكر العربي » . وكان قد اتضح لنا آنذاك ان بعض المواقف الالحادية خدمت الله والدين اذ ساهمت في تطهير الفكرة الانتهازية البورجوازية للديانة .

يبدأ المؤلف بعرض ما توصلت اليه الدروس حول فكر ماركس وما يأخذ عليها النقاد عامة ، ثم يبين الشروط والواجبات التي تترتب على كل

من يبتغي الاحاطة بافكار ماركس الحقيقية فينصرف الى ابراز الماركسية كنظرية للانسلاب واللاهوتية وكفلسفة للتاريخ العملي .

هذا الكتاب لسان حال تساؤلات ومشاكل هي من اهم ما يتسخض به عصرنا . ولنا برهان على ذلك وفرة الدراسات التي تصدر اليوم حول فكرة « الالحاد المسيحي » الذي ينوه به توماس التيزر (Th. Altizer) او حول فكرة « موت الله » حسب ما بينه جبريان واهانيان (Gabriel Vahanian) . ولا شك ان مثل هذه التيارات لم تدخل الى حيز الوجود الا بعد تهيئة فكرية طويلة والتزام مواقف وجودية تجاه المعضلات التي تعترض طريق الانسانية في بحثها الديالكتيكي عن هويتها . كما يتجلى ذلك في مؤلفات الكاتب اللبناني خليل رامز سركيس . لا سيما في كتابه « معبر » . ولا شك ايضاً ان مستقبل الفلسفة هو سائر على هذه الطريق التي شرعها لوثر وشتراوس وفويرباخ وهيجل وماركس . فالعالم في « تفلسف » مستمر والفلسفة في « عولمة » مستمرة . لم يكن بوسع ماركس ان يرى في الدين ، كما عرفه في ايامه . الا افيوناً للشعب . وذلك ليس في جوهره بل في عرضه . اذا ما نُظر الى كيفية عرضه للشعب . لم يعرف ماركس الديانة المسيحية في مبادئها ومؤهلاتها وبشارتها على الاسس . بل انه توقف عند مظاهرها الخارجية : كيف كان الناس يرونها وكيف كانوا يعيشونها . — وهنا تلمس ضعف الحجة الماركسية وقوتها . ضعفها : لانها لا تأبه باصول الدين وعقائده المتعالية ؛ وقوتها : لأنها بانصرافها الى المظاهر تمسك بما لا بد منه لكل ديانة اذا ما ابتغت ان تسير في ركب الحياة . ان الديالكتيكية الماركسية تخلط بين المبادئ والواقع . بين النظرية وتطبيقها . ولم يستطع ماركس ان يحل المشكلة حلاً متكاملاً بل انه قطع العقدة قطعاً على غرار ذي القرنين .

ومن متناقضات كارل ماركس الفادحة فيما يختص بنقده للدين انه من جهة اولى يجد . بعد البحث . سنّةً لتاريخ — ومن قال بسنة . ولو مادية : اقرّ ضمناً بوجود مبدإ متعال — . ومن جهة اخرى فهو يلجأ . لبناء قواعده ، الى احداث عابرة وحالات زمنية ومحلية معينة محدودة لا صلة لها البتة بجوهر الدين . فليس الدين بالشرائع الخارجية او بكيفية ممارسة هذا الدين على يد اشياعه .

ينتهي المؤلف الى القول بأنه ، رغم التناقضات التي تعتري اسلوبها ، فالمقاومة الماركسية للديانة لا تخلو من اساس معقول . وان قيل يوماً ان الماركسية لم

يكن ليقيض لها ان توجد لولا المسيحية . فلا بد من ان يقال اليوم ان الماركسية تسدي للابحاث اللاهوتية والفكر المسيحي اجل الخدمات . ولئن كان النقاد الماركسية للدين لا يصح من الناحية النظرية ، فعلى الديانة المسيحية ان تظهر صحتها من الناحية التطبيقية .

مارسيليانو رونكاليا

Mgr Vladimir Ghika, *Derniers témoignages*, présentés par Yvonne Estienne. Beauchesne, Paris, 1970, 104 pages.

كتيب لا يبالغ اذا نعتناه بالدرة . فهو عصارة قلب نابض مفعم بالحب والسخاء ، وهو خلاصة فكر عميق زاده وزناً ووسعه أفقاً خبرة بالغة في الحياة وحنكة .

المسيو فلاديمير غيكا كدهن من روسيا قضى فترة من حياته في فرنسا . عُرف خلالها بغيرته الرسولية المتقدة واهتمامه بالمعوزين ومن لفظهم المجتمع . عاد الى بلاده في سنيه الأخيرة فقُبض عليه وقضى نحبه في السجن سنة ١٩٥٤ . خلف بين مدوناته جميرة من الجزازات والوريقات كان يخط عليها . كلما تسنى له ذلك . فكراً وانطباعات وتأملات في الناس والدنيا والله . فجمعتها ايفون استيان وبوبتها تحت عناوين شاملة ثلاثة : نحن . نحن والآخرون . نحن والله .

« لست اخاف الله بل اخاف ذاتي . ولست اخاف الموت بل اخاف موتي » . — « في حياتك تذكّر انك الى الموت . وعند موتك انك الى حياة » . — « ان ضحيتَ باللذة ، لا تعتم ان تجد لذة التضحية » . — « السعادة شيء نبحث عنه لذواتنا ولا نجده الا في الآخرين » . — هذه نتف من كلٍ يغص بامشاطا . إن تدل على شيء فعلى ما يتحلى به هذا المؤلف الشين — على التشابه — من حكمة انسانية وثروة روحية .

كميل حشيمه

R. I. Orchard, *Pour une foi personnelle*, Beauchesne, Paris, 1970. 160 pages.

مشكلة الايمان من أخطر مشاكل العصر ؛ ولا بد للمسيحي اليوم ، إن هو اراد تخطي الضباب ، من ان يبني بيته على الصخر ويوطد ايمانه على العلاقة الشخصية بينه وبين المسيح . ذلك ان الايمان ابعد شيئاً من ان يكون اعتقاداً بحقائق جافة لا تمت الى صميم القلب والنفس بصلة ؛ بل هو اكتشاف مستمر لشخص ابن الله المتجسد ، المصوَّر لنا في صفحات الانجيل ، الداعي الجميع الى التشبه به . والايمان حياة يجب ان تنمو ساعة بعد ساعة ، تغذيها وقائع يومياتنا الرتيبة الوضيعة بحيث تشارك في بناء الكنيسة وتسيير مخطط الله نحو هدفه المنشود .

تلك بعض النقاط التي يجتهد هذا الكتيّب في تبيانها ؛ وانه لعمري كتاب سهل الاسلوب ، موضوعي ، واقعي ، قريب المنال لكل مؤمن يبتغي تعقل نوراً وتقلب ارتياحاً .

جوزف حنا